أقسى الشهور

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٩ **منشورات المتوسط - إيطاليا.**

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار.- تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Aqsa Al-Shuhur ***by*** "Shaker Alanbari"
Copyright © 2019 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: شاكر الأنباري / عنوان الكتاب: أقسى الشهور
الطبعة الأولى: ٢٠١٩.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-99-4

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

شاكر الأنباري

أقسى الشهور

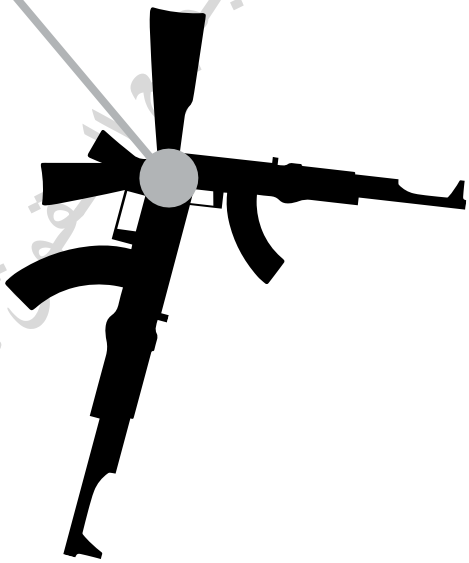

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

المتوسط

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

تبتعد هذه الأحداث كثيراً عن لمسة الخيال، التي تسمُ أغلب الروايات الحديثة، كونها تجربة شخصية، عاشها (جلال مَلَك) بتفاصيلها، وقد التقاه المؤلّف ذات يوم في بيروت صدفة، بعد نجاحه في الهروب من البلد، على متن الخطوط الجوّيّة العراقية، وتوطّدت صداقته معه في أثناء ما كان يستعيد الأحداث التي واجهها هناك، بصوت يشبه النواح.

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

حزيران

- لفظ سرياني، يعني الحنطة، أي القمح، لوقوع موسم حصاده فيه.

- إنكَ إن فتحتَ لهم على نفسكَ مثل سَمِّ الخيّاط، جعلوا فيه طريقاً نهجاً ولقماً رحباً فأَحكِمْ بابكَ، ثمّ أَدِمْ إصفاقه، بل أَدِمْ إغلاقَهُ، فهو أَولى بكَ. بل إن قدرتَ على مصمت لا حيلة فيه، فذلك أشبه بحزمكَ. ولو جعلتَ الباب مبهماً، والقفل مصمتاً، لتسوَّروا عليكَ من فوقكَ، ولو رفعتَ سمكه إلى العيوق، لنقبوا عليكَ من تحتكَ.

الجاحظ / كتاب البخلاء

نسخة مرجعية © جميع الحقوق محفوظة

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

لم يبحْ جلال مَلَك بسرّ الرصاصة، ختم عليه في قارورة زجاجية شفّافة، قارورة افتراضية، ودسّها في روحه، رغم أن ذلك السّرّ ينبعث في ذهنه بين فترة وأخرى، مثل إصبع من نار، مثل لهب شمعة أزرق، مثل واجهات البيوت المتآكلة في شارع الرشيد، ورائحة شواطئ دجلة الطينية، وأعمدة الكهرباء المتهرّئة، وأماليد زيتونة الدار، مثل الجثث الضاحكة المغمورة بالطين والديدان عند أطراف المدينة وفسحاتها، وهو سرّ، كان يُخلخل هدوءه وتماسكه، وكأنه بكتمانه سيلغي وجوده وتأثيره اللاحق على مصيره. لبث أسبوعاً بكامله يمارس حياته المعتادة التي تنحصر بالذهاب صباحاً إلى العمل، ثمّ الرجوع إلى البيت عند العصر، ليجلس مساء في غرفته الواقعة في الطابق العلوي، متفكّراً بأحوال هذا العالم الذي أصبح بَغْتَة غير مفهوم لعقله. لم يجد الأمر مستغرباً، فهو على قناعة أن جميع مَنْ يعرفهم، سواء مَنْ يقطن في شارع الدير من جيرانه، أو من زملائه في الدائرة، لديهم أسرارهم الخاصّة، إلا أن الأسرار تظهر في المنعطفات الحادّة والحوارات العفوية بين البشر، دون أن يجد الشخص القدرة على التّحكّم فيها. لقد تحوّل أبناء هذا البلد إلى قبضات بائسة من الأسرار، وهو يعرف أن في كتم السّرّ حَصَانة غير مَرئية، لكن مرأى الرصاصة جعله ينفذ في دهليز الرعب منذ ذلك النهار.

***

حدث الأمر ظهراً، على الجسر، في نهار قائظ غير مألوف، حين شعر جلال، بَغْتَة، أن عينَيْه تنفتحان على عالم آخر، كَمَنْ يستيقظ من نوم عميق، وألفى الحرارة غير مُحتَمَلَة، تكلكل على المدينة، ليجد نفسه في عالم آخر، عالم قاسٍ، ويتجلّى لباصريه دخانياً، شابحاً، متجسّداً بمنظر البيوت والعمارات البعيدة المحيطة بنهر دجلة المنسرب نحو الشرق البعيد. هنا بدا النخيل المتسامق شواخص عملاقة، تروم الطيران إلى الأعلى، تترجرج مع الأفق الدخاني برقصة فترة الظهيرة المتوهّجة أمام ناظرَيْه.

هل هي انعكاسات الأمواج المتشكِّلة من ملايين النبضات الضوئية، المتكوِّنة من امتزاج الأشعّة مع المياه، وهي تتراءى له أينما أدار وجهه، هي ما حمله ليقظة الوعي هذه؟

سقطت اليقظة المُفاجِئة عليه في أثناء عبوره جسر الطابقَيْن الواصل بين الكرخ والرصافة، واكتشف أن مسيره يخترق حقل ألغام، يحيط بحياته من الجهات كلّها، وشعر عبر موهبته الداخلية الكامنة، موهبة تحسُّس الخطر وتوقُّعه، أن ثمّة أحداثاً، تُرسِل إشاراتها إلى قلبه، إلى عينَيْه وأعضائه، على هيئة نغزات خافتة تُدغدغ بطنه، وتتمركز حول حجابه الحاجز بدفقات عصبية غير مريحة. اجتاز الجسر بسيَّارته البرنس البيضاء، متّجهاً نحو منطقة الدَّوْرَة، وكانت الحرارة قد ارتفعت ارتفاعاً غير مسبوق، وأمواه دجلة تتلاصف تحت الجسر مثل بحر من الصهير، وتعكس الأشعّة إلى العيون، كما لو كانت نصالاً من الحديد، وكانت ضفَّتا بغداد ممتدَّتَيْن في أغوار الأفق شرقاً وغرباً، فبدت مدينة أشباح، مرسومة بألوان مائية على ورقة بيضاء. تُشوى شوارعها تحت شُواظِ الظهيرة، وتتصاعد من مقاهيها المتآكلة رائحة العطن، ورائحة الشاي الثقيل المهيل، وهو يدور على الجالسين على التخوت الخشب، الهاربين من بيوتهم المشتعلة

مثل فرن. ففي المقاهي الموزّعة في الميدان وشارع الرشيد والسنك وشارع السعدون والكَرَّادَة، يجدون، على الأقلّ، مِروحة تزيح العَرَق عن أجسادهم. تلك الصورة الحزيرانية خلّفها هناك مثل رسمة شاحبة، ما إن اجتاز الجسر، حيث آلاف المُولّدات العملاقة تنفث سموم محروقاتها إلى رئات تعبة، وتتجمّع في الصباح الباكر مثل غيمة سوداء في فضاء، لا تسنده سوى رؤوس النخيل. ذرّات اليورانيوم، المتخلّفة من حروب سابقة، تتسلّل إلى الخلايا الحَيّة، وتستوطن هناك، لدى الشيوخ والنساء والمواليد الجدد. حتّى قططها تستظلّ تحت سقيفة أو تتلطّى تحت باب مطلّ على الشارع أو تندسّ بين الفضلات طلباً لقليل من الظّلّ. شوّايات الدجاج أمام المطاعم الرخيصة، تلال الرقي المغطّاة بقماش خشن، وجوه سوّاق التاكسي التي تتجوّل في الشوارع باحثة عن راكب تائه في مياه الظهيرة. سيَّارات الشرطة المتوقّفة عند نقاط التفتيش، وهي تنثّ الوهج الحارّ من حديدها، ويجلس قربها أفراد كسالى، يقضون الوقت الثقيل باللعب على تلفوناتهم الحديثة، ذلك كلّه خلفه هناك، إذ عادة ما ينقل الجسر إليه إحساساً غامضاً بأنه ترك العاصمة وراءه، ليتوغّل في مساحات غامضة، تلك الضواحي الخطرة المحكومة بأشباح مجهولة الهوية.

في تلك الظهيرة، وفي أثناء ما كان يُحدِّق في مياه النهر البعيدة، وأشباح البنايات الرجراجة تحت الضوء الساطع، تساءل في نفسه عن كيفية احتمال البشر العيش في هذا البلد، الفرن المكتنز لهذا القدر كلّه من الحرارة، هذا القدر من العَرَق المالح الذي يتغلغل في زوايا الجسد، ويسيل على العينَيْن، والوجه والشَّفَتَيْن، وهذه الملوحة الكثيفة التي تدفع إلى الاختناق. هل الصيف عقاب مجهول نازل من السماء؟ أم لعنة حلّتْ بهذا المكان؟ حتّى السماء خَلَتْ من الطيور، بسبب الحرارة. يرفع رأسه إلى السماء، فلا يرى سوى ذرّات غبار ناعم، ووهج بعيد، وزرقة غير

محدودة، تخلو من الغيوم. اتّفق الناس الذين يعرفهم على أن ارتفاع الحرارة المُفاجِئ جاء بالتزامن مع دخول الجيوش الأجنبية إلى البلاد، فهي التي تُثير الزوابع الترابية بسرفات الدَّبَّابَات، والقذائف المنطلقة من الطائرات والمدافع، وقد عُبِّئت باليورانيوم، كي تصبح أشدّ انفجاراً، وأكثر دقّة في إصابة الهدف. بدت الشمس غاضبة مهدّدة، والوهج المنغلّ في العيون، كأنه مسامير من الفضّة. الشمس ليست جميلة في الصيف. هي عدوّ يسعى للانتقام. وشعر كما لو كان محمولاً على غيمة بين اليقظة والمنام، في ذلك الإحساس الذي يستولي عليه بعض الأحيان، فلا يعود يميّز بين الحلم والواقع. كيف لبشر أن يأكلوا، ويضحكوا، ويفكّروا، ويناموا في صيف، تجاوزت حرارته الخمسين درجة مئوية، دون أن يُقدِموا على الهجرة إلى أماكن أخرى باردة، رطبة، ظليلة؟ أمّا جبل الجليد الذي حطّم سفينة التيتانك، في ذلك الفيلم الأميركي الذائع الصيت، فيتخيّله سيذوب بخمس دقائق، لا أكثر، لو وُضع على جسر الطابقَيْن الملتهب. حرارة وموت، متلازمتان لا ينجو منهما أحد في هذا البلد.

***

قبل اكتشاف الرصاصة كان توق الوصول إلى البيت، يزيّن لخياله المياه الباردة تتدفّق على جسده، والخلاص من الاختناق المروري الذي ألفه طَوالَ ثلاث سنوات، إذ ينبغي له أن يُقشّر جسده من الغبار. والطريق ذاته، عاش مئات الحوادث، والتفجيرات، والمشادّات، والاغتيالات، شَعْره الطويل ينزّ عَرَقَاً، شَعْرُكَ لا يناسب الصيف، قالت له زوجته نور أمس، حبّذا لو تقصّه لدى الحلّاق سعد. ظلّ جلال مَلَك جزءاً من إيقاع الحياة في شارع الدير، وربمّا بغداد كلّها، شخص عادي، لا يريد أكثر من العيش برتابة وكسل، الأسرة، العمل، المتع الصغيرة، دون أن يمتلك طموحاً خاصّاً

به. منذ أن أنهى دورة التصميم في شارع المغرب وسط العاصمة، وبدأ البحث عن وظيفة، وصل إلى قناعة هي أن أصحاب الطموحات والأحلام في هذا البلد ينزوون اليوم تحت التراب، بعضهم لا يتمتّع حتّى بهذه الميزة، وصاروا طعاماً للسمك، أو تعفّنوا تحت غيضة من الشجر في حقل ما، أو دُفنوا كيفما اتّفق تحت تراب بعيد عن المقابر. وهو ينحدر من الجسر، أعجبتْهُ فكرة البرّاقة، البرّاقة لا تعرف ما يدور حولها، ثمّ أعجبتْهُ بعدها فكرة الجمجمة، جمجمة ضاحكة ترقد على قاع دجلة، جنبها جثّة طازجة، يجتمع عليها سرب من الأسماك، ومجموعة من الأشخاص يتناولون السمك المسكوف في مطعم، يقع تحت أغصان حدائق أبو نؤاس. بشر يأكلون الجثث. وظلّ يتخيّل هذه الصورة، المتسلسلة، كلّما عبر بسيَّارته جسر الطابقَيْن، وكلّما أبصر مياه دجلة خلف النخيل. بساتين نخيل الدَّوْرَة، معسكر ضخم للجيش، والبشر مخدّرون، يغذّون السير نحو جهة ما غير معروفة، والغبار يتصاعد من تحت دواليب السَّيَّارات، وليست هناك أيّة غيمة في السماء، صحراء من الزرقة تمتدّ على صفحة الأفق، وخمس سيطرات للجيش، عليه أن يجتازها محمولاً على بحر السَّيَّارات المتراصّة عند المدخل.

لم يعد العيش فيها ممكناً، سمع عشرات الأشخاص يردّدون هذه الجملة، ويقصدون العاصمة، واصفين بها تلك الفوضى العارمة، لمدينة لا يُعرَف، بالتحديد، ما يجري في دهاليزها.

موجات الغبار المتصاعدة من دواليب السَّيَّارات تتسابق للوصول إلى فُوَّهَة السيطرة، موجات تسيح في الهواء، وتترك على الوجوه طبقة خفيفة من اللون الرمادي، لون رمادي يمتزج بالعَرَق، ليصبح عجينة من الطين، وهذا هو لون شَعْره، وهذا هو لون البلد، كالح، رملي، يوحي بالموت،

وحياة تُجبر الفرد على أن يتحوّل إلى حمار، والحمار مشهور بالصبر، وكتب عليهم أن يصبروا، وهذه المقولة أكثر ما سمعها في المقاهي والبيوت وأمام مُولّدات الكهرباء، وعند المقابر الجماعية، وعلى حافّات المُدُن، وفي الدوائر الحكومية، وكان البشر حوله كأنهم أشباح نابعة من عاصفة غبار.

يمتلئ جلال بالخوف، كلّما اقترب من سيَّارة عتيقة، ينظر فيها مدقّقاً، في وجه السائق، إن كان يوحي بالشّرّ والعدوانية أم بالطِّيبة، والسَّيَّارات المفخّخة عادة ما تكون قديمة، يسهل شراؤها، وذات قيمة متدنّية، وهذا ما يفضّله تجّار هذا النوع من المهن، فتجارة الموت رائجة، وهو شيء يدعو للأسف. راح يتوجّس من الشارع المكتظّ بالسَّيَّارات، من الغبار المتصاعد، ومن الحوارات غير المسموعة الدائرة بين أشخاص، يجلسون في سيَّارات مُغلَقة الزجاج، وألحّ عليه هاجس غريب، أودى بلا اهتمامه السابق، هو أنه سينفجر بَغْتَة بالتزامن مع انفجار سيَّارة مفخّخة، تسير جنبه، وصوّر له خياله الطريقة التي يتحوّل فيها جسده إلى شظايا، ولحم محترق، وحكايات تسافر بين الأفواه والبيوت.

***

لو يحدث انفجار: تخيّل أنه سيرى النار تشبّ بعشرات السَّيَّارات، ومنها سيَّارته، وستنتشر رائحة اللحم المشوي في المكان، وسيكون من الصعب التّعرّف على الجثث، خاصّة إذا ما طالها الحريق، لن تأتي سيَّارات الإطفاء إلا بعد احتراق الجميع، وهذا ما يعرفه جيِّداً، فكيف لزوجته أن تتعرّف على جثّته؟ فكرة النظر إلى ما وراء الواقع كانت دائماً تُرهقه، وكان يسمّيها مع نفسه: الاستشراف، التواجد في تلك المساحة البعيدة عن الواجهة، نوع من التّطيّر، يعرف ذلك، لكنه لا يستطيع الخلاص منه، حتّى حين يتكلّم مع شخص ما، عادة ما يدع هواجسه تخترق وجه المقابل، ونظراته، عبوراً

إلى الأعماق، وهذه الهواجس، والتساؤلات، والصور الذهنية، شكّلت سِمَة بيِّنة لشخصه، وظلّت تتصارع في رأسه حتّى قبل أن يعثر على الرصاصة.

ممرّ التفتيش لا يبعد سوى أمتار عن جملون السيطرة، أشار له الجندي بالتّوجّه إلى هناك، هو من القلائل الذين اختارهم الجندي، هل شكّ فيه مثلاً؟ لم يُعجبه وجهه الأسمر، أو طريقة تسريح شَعْره؟ أم شَعْره الطويل المغبرّ؟ رَقْم سيَّارته ربمّا؟ هل جاءت إشارة التفتيش عفوية وروتينية أم أنه فعلاً توجّس من مظهره هو بالذات؟ نبتت الريبة في كلّ مكان، وعرّشت خلال سنوات دون أن تجد مَنْ يقتلعها من النفوس، ممّا حوّل الرموز المتعارف عليها في السابق إلى أُحجيّات، لا توحي بالحقائق. ظنّ أن هذا المجتمع يمشي على رأسه، ممّا دفعه كي يرى الحياة مقلوبة على قفاها.

انعطف إلى اليمين، وخطرت في ذهنه كلمات جاره عادل التي قالها ذات يوم حين جاء الحديث عن الاختناقات المرورية التي تُسبّبها السيطرات في شوارع بغداد وخطورتها: حسبنا أننا تخلّصنا من التفتيش والتدقيق وشرطة الطُّرُق بعد أن تهاوى الزعيم في ساحة الفردوس، لكنْ، يبدو أننا لا نستطيع العيش دون وجود شرطي، شرطي صارم، يُمسك العصا فوق رؤوسنا.

توقّف أمام جنود مدجّجين بالسلاح، جنود أغرار، لا يمتلكون حاسّة شارلوك هولمز، وجوههم يغطّيها غبار كالح، وسجائرهم تنثّ الدخان، وبنادقهم نافرة موجّهة إلى الفضاء، معظمهم تطوّع إلى الجيش، من أجل راتب يقبضه آخر الشهر، كي يعولَ أسرته، وتبادر لجلال أن روحاً من العدائية غير المفهومة تنطلق من وجوههم. ربمّا يعود السبب إلى الخوف الدائم المستولي عليهم، فالانفجارات عند السيطرات لم تتوقّف منذ سنين. آلاف الجنود قضوا في تفجيرات مباغتة مثل تلك، على مساحة الخارطة، وكان

آخر مَنْ يعرف من بينهم الشرطي كاظم موحان والد جواد الذي يسكن مع أمّه وأخيه الصغير في بناية الآلوسي المجاورة لبيته.

فتح الصندوق الخلفي، وانتصب تحت الأشعّة الحارقة بقلب واجف، يعرف أنه لا يحمل أيّ شيء يثير الريبة، ولكنْ، مَنْ يدري؟ في هذا البلد، تجري أمور بعيدة عن المنطق، سمع قصصاً عديدة تقترب من الخيال، إلا أنها تحدث كلّ يوم، كلّ يوم يجلب قصصاً جديدة، السرقات، الاختطاف، التزوير، الانفجارات، وكلّ ما فعله الجندي هو رفع الدولاب الاحتياط في حقيبة السَّيَّارة الخلفية، والنظر تحته، ثمّ أومأ له بالذهاب، وكان برودة لا يتناسب مع الحرارة اللولبية المنطلقة من الإسفلت، والتراب، وحديد السَّيَّارات.

هذا كلّ شيء لهذه الظهيرة القاسية.

لماذا أوقفه الجندي، إذنْ؟ أكان شكله يوحي بالريبة؟ هل هو إرهابي دون أن يعرف؟ فيه سِمَة ما تجعل الآخرين يحسّون، مُجرَّد إحساس سريع، أنه لا ينتمي إلى القطيع، وهذا ما يرعبه في أحيان كثيرة. ناله الاستغراب من الحساسية الفائقة التي تلبّست جسده فجأة، واستيقظت دون مقدّمات في نهار، يُفترَض أن يشبه نهاراته السابقة كلّها.

الابتعاد عن القطيع يعني أن ينتهي جثّة هامدة في مكان ناء، وبأبشع الطُّرُق، جثّة تنام على رخاوة قاع دجلة المليء بالعظام.

حدّثه محمّد موظّف الاستعلامات في الدائرة التي يعمل فيها صباحاً، أن دجلة والفرات يغصّان بالمقابر الجماعية، لكنها لا تشبه مقابر الأرض، فالمقابر المائية لا يتبقّى منها سوى الهياكل العظمية، بعد أن تعرّيها أسماكنا، حسب تعبيره، من اللحم. وتذكّر تلك الجمجمة المسترخية

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

على قاع دجلة. والأسماك التي تنهش الجثث. وأحسّ بروحه تسبح في سائل كثيف.

***

أغلقت معظم المحلّات في شارع الطعمة أبوابها، هي ساعة القيلولة لكثير من سكّان المنطقة، من عادة الشعب النوم في الظهيرة، ليس بسبب الكسل، بل بسبب الحرارة الخانقة، في ساعة، تصل فيها إلى الأوج. الحرارة، والغبار، والاختناق اليومي لصيف، لا يمكن احتماله. لاحظ حرارة المحرّك المرتفعة، ومؤشّر الوقود، وجذب انتباهه، وسط فوضى الأصوات السابح فيها، قطعة بيضاء على أرضية السَّيَّارة، أشبه بمُغلَّف أو رسالة، وربمّا ورقة سقطت من السماء دون أن يراها، كما يحدث في هذه الأيّام بعد تصاعد دوّامات الهواء المُفاجِئة التي ترتفع حلزونياً إلى السماء. يتذكّر: يكون الجوّ ساكناً مثل قبر، وفجأة ترتفع موجة الهواء اللولبية جارفة معها ذرّات الغبار، وبقايا الورق، والريش، وخيوط القماش العتيقة. يحدث الأمر أيضاً عقب كلّ انفجار مروّع.

هل سقطت تلك الورقة من دوّامة ما، صدفة، إلى داخل سيَّارته؟

ما يراه أسمك من أن يُحمَل بتيّارات الهواء، ما يراه سرّ هبط من يد غامضة، وقبل أن يصل جسر الميكانيك العابر فوق الشارع السريع المتّجه إلى مدينة الكوت والزعفرانية وبغداد الجديدة، وعند استدارة السيطرة الراقدة في كتف الجسر، تناول الورقة بسرعة، فأحسّ بثقلها، وسماكتها.

هي ليست ورقة هابطة من السماء، إنها مُغلَّف غير مُعتنى فيه، قُذف بسرعة في سيَّارته لغرض ما، ولأنه لا يمكن أن يكون عبوة لاصقة، أو طرداً انفجارياً، تناول المُغلَّف بحذر، وتصاعد الفضول في داخله لمعرفة هذه

الهدية الطارئة التي زُفّت إليه. المُغلَّف ليس مُغلَقاً، وهو ليس فارغاً، فثمّة جسم صلب في داخله.

وضع المُغلَّف على الكرسي جنبه، لكن لوامسه الواعية، وغير الواعية، والافتراضية أيضاً، استنفرت جميعاً، والمفاجآت خطرة في هذا المكان، خطرة وقاتلة، وانحدر من الجسر، ثمّ انعطف نحو اليمين، ليدخل شارع الميكانيك، مروراً بالكنيسة. بابها مُغلَق مثل باب الدير الواقع في نهاية الشارع. عليه شراء الخبز لنور، وكانت رائحة الخبز مغرية، وكان البائع يجلس وراء طاولة الخبز العريضة، ومنظر الخبز المكدَّس على الطاولة مثير للجوع، ويدلّ على الوفرة، فاشترى بألفَي دينار عشرة أرغفة من الخبز، وجلس في مقعد السَّيَّارة، ساكناً مثل قبر، يفكّر بهذه الظهيرة القلقة، التي ستدخله في نفق حياته المُغلَق.

***

تناول المُغلَّف بين يَدَيْه، ومن بين رائحة الخبز الحارّ اللذيذة، وفي بحر القلق المستولي عليه، ورطوبة يده المرتعشة، وقع على السّرّ، المفاجأة التي لم تخطرْ في عقله، وغيّرت حياته من جريانها العادي إلى مسار قلق ومضطرب. رصاصة كلاشينكوف مفردة، دُسّت في طرف المُغلَّف. حدَّق فيها بدقّة، تلمّسها، وحاول إبعادها عن نظرة صاحب الفرن، وسوّاق السَّيَّارات المارِّين جنبه، ليس بمُستَحَبّ في هذه الظروف حَمْلُ رصاصة كلاشينكوف في شارع عامّ، فضلاً عن الجلوس وراء مقود سيَّارة برنس بيضاء، تحمل لوحة إدخال كمركي مؤقّت، وتقليبها تحت بصر الجميع. هي ليست وردة جوري، هي ليست قنّينة عطر باريسي، هي رصاصة: الأوسع انتشاراً في هذه الحياة التي خبرها، خصوصاً في السنوات الأخيرة. تنطلق في الليالي الماطرة والجافّة والغائمة والمليئة بالنجوم، ويحمل مثلها

مسودة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

آلاف العناصر من الشرطة، والجيش، والحمايات، والميليشيات، والأفراد المتورّطين بثارات دم، أو المتوقّعين لهجوم مباغت، وهي، كما عرف عنها، رسالة من شخص، أو جهة تروم شرّاً، رمز للموت، للاغتيال، للدفع إلى الهروب من العمل أو البيت أو المنطقة أو البلد. سمع، ورأى، وقرأ، عن عشرات الأُسر التي راحت تترك مناطق سُكناها هروباً من رصاصة مثل هذه، أو من عبوة ناسفة، أو انفجار مباغت في طريقها، والحفاظ على الذات، أصبح هاجساً، ومثل غيره، يعيش الانحدار الذي سار فيه البلد منذ سنوات، بقلب خاوٍ من الأمل.

الجميع يعيش في دوّامة لا تنتهي، ابتداء من البحث عن لقمة العيش، وانتهاء بهاجس الحفاظ على الجسد حَيّاً.

رصاصة.

عثوره على الرصاصة الموضوعة بعناية في مُغلَّف أبيض، عزّز لديه تلك القناعة المشوّشة بأن حياته لن تعود كما عاشها في السنوات الماضية، روتينه القاتل المتمثّل بمساره اليومي بين البيت الواقع في شارع الدير، والدائرة المنزوية في حَيّ المسبح المشرف على مسطّحات نهر دجلة المائية المحاطة ببساتين النخيل والبيوت الفخمة التي ما تزال تشهد على عزٍّ سابق، وأُبّهة ماضية، تروي سنوات بغداد المديدة.

مَنْ وضعها في طريقه؟ وكيف؟ هي لم تُعنون إليه، اسمه غير مُدوّن على المظروف، ورسائل التهديد عادة ما تدسّ من تحت الباب، من تحت باب المحلّ، تترك على طاولة الموظّف، تسقط في الجيب وسط السوق. رصاصة في مظروف، أو قرص مُدمَج. الرصاصة تقول للشخص ارحلْ عن البيت، أو المحلّ، أو الدائرة، أو البلد، وإلا ستموت. هذه رسالة مختلفة،

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

رسالة غفل، تذكّر أنه وجد زجاج سيَّارته مفتوحاً، حين غادر الدائرة، لقد نسيه صباحاً على ما يبدو حين أطفأ المحرّك أمام سياج الدائرة التي يعمل فيها مُصمّماً لمجلّة تُعنى بالاتّصالات الحديثة.

هل أسقط الرصاصةَ أحدُ حُرّاس البناية؟ محمّد مثلاً، رجل الاستعلامات الذي حدّثه عن المقابر المائية؟ ولماذا؟ ينبغي له أن يتوصّل بالضبط إلى الجزم على حقيقة أنها مُوجَّهة إليه، لا إلى شخص آخر؟ من هذه النقطة، ينبغي البدء بالتفكير وتقليب الاحتمالات. في الدائرة، لا خصومات له مع أحد، لا علاقات نسوية تُشعِل الحقد والكراهية بين الذكور، حياته في تلك الوظيفة رتيبة ومُملّة، لا تحمل أيّ جديد أو إثارة، حين أكمل دورة التصميم، ظنّ أن حياته ستسير في شارع مليء بالورود والأحلام الملوّنة، وهو لا يطمح إلى القفز نحو موقع أعلى، ولا ينمّ على أحد، لا يشترك بالمؤامرات الصغيرة التي ينشغل فيها زملاؤه.

منذ أن غادر الدائرة، عبر طريق السّدّة في منطقة العَرَصَات، لم يتوقّف سوى في تلك السيطرة.

أعاد سيناريو الوقوف، الجندي الثاني في النقطة كان واقفاً، مثل إصبع من الموز المهترئ، مُمسِكاً بَرشّاشته جنب نافذة السَّيَّارة المفتوحة، هل هو مَنْ أسقط المُغلَّف في أرضية السَّيَّارة؟ وماذا عن الجندي الذي فتّش حقيبة السَّيَّارة الخلفية؟ هل دسّها في غفلة منه؟ رحلته من البلدة حتّى بغداد، كان نائماً في بيت أخيه جمال مَلَك، قضى ليلة واحدة في البلدة، وجلب لنور قثّاء طازجاً وتفّاحاً وكمّيّة من التوت الأحمر حاشه ابن أخيه، وعاد من رحلته دون أن يلحظ ما يثير، لكنْ، ترى هل جاءت من هناك دون أن ينتبه؟

الأذهان في هذه السنين مشغولة بالأحداث التي تدور أكثر من انشغالها بالنظر إلى تفاصيل الواقع الملموس تحت أبصارهم، وهذا أمر مفهوم لجلال وغيره، المُهمّ هو الحفاظ على الروح، لا إصلاح واقع الحال.

بائع الفرن ينظر إليه بتركيز، بريبة، كأنه يقول: لماذا أطال هذا الرجل وقفته أمام مخبزي، ما الشيء المُهمّ بين يَدَيْه الذي يشغله هذا الانشغال كلّه؟ لسان حاله يردّد: خذْ خبزكَ، وامضِ.

في الآونة الأخيرة، صارت كلّ سيَّارة تطيل الوقوف أمام المحلّات تبعث على الخوف والريبة. وخلال السنوات الماضية، فُجِّرَت عشرات المخابز والمدارس والمستشفيات والأسواق المكتظّة بالناس والجوامع والحُسينيات والملاعب، دون سبب وجيه يُفسّر هذه الظاهرة.

وكانت سيول العَرَق تنضح من كلّ مسامّ في جسده مُبلِّلةً قميص جلال وبنطلونه، وثمّة لحظة صانتة، وسط بحر من التساؤلات، داخل سيَّارة مشتعلة مثل فرن، وصيف بغداد، العقاب السنوي الذي لا تتردّد السماء من إرساله على الرؤوس، كلّما بزغت الشهور الثلاثة: حزيران، تمّوز، آب. عاد ليحلم بالمياه الباردة مرَّة أخرى، بابنَيْه سامي ورامي، يفكّر بحياتهما، بألعابهما، بشَعْرهما السابح في ريح المُبرِّدة مثل حقل صغير للقمح.

وضع الرصاصة في جيب بنطلونه الخلفي، ومضى باتّجاه البيت.

انتبه إلى آثار التفجير على واجهة محلّ النخلة، وفكّر أن يشتري قنّينة عَرَق لبناني، لجاره عادل. أرجأ الفكرة إلى يوم آخر. وَعَدَهُ قبل يومَيْن بقنّينة حين التقاه أمام بيته، وتحدّثا عن حرارة الصيف الغريبة هذه السنة، وأخبار شارع الدير، والإشاعات الدائرة في البلد، ومعاناة عادل في الأسر. اشتهى جلال قنّينة بيرة باردة، لكنه، مع رغبته الشديدة تلك، لم يقف، وشاهد بائع

البطّيخ ينام في الظّلّ، ومُولّد الكهرباء هامداً، والكهرباء الوطنية موجودة. الأيّام تركض وتتلاشى دون أن تحمل أيّ طَعْم أو رائحة، وكأنها مياه دجلة القادمة من الشمال، من أصقاع نائية، الذاهبة إلى الجنوب البعيد دون هدف واضح. تصميم إعلانات في الدائرة، جلوس أمام الشاشة الفضّيّة، ثماني ساعات، تسجيل الحضور والمغادرة، النمائم الصغيرة، انتظار الراتب الشهري، وقطع الطريق على السّدّة المشجّرة من البيت إلى الدائرة، ومن الدائرة إلى البيت، وهكذا، لا خطط في حياته، ولا أفراح كبيرة، الروتين المُملّ بلوامسه اللزجة فقط.

يستطيع الجزم أن تسعين بالمائة من هذا الشعب يعيش الحالة ذاتها. المُهمّ في الأمر أن لا يموت المرء. ولغزارة الفخاخ المنصوبة، صار الموت سهلاً وواضحاً، كما لون الماء الصافي.

عند محلّ الكَرَّادَة ظلّ متردّداً، بين الوقوف لشراء الآيس كريم لوَلَدَيْه سامي ورامي، أو المضي قُدُماً نحو دكّان الحلاّق، شَعْره شبيه بعشّ الغراب في نخلة عادل جارهم، كما قالت زوجته، ستكون متعة الحمّام مضاعفة، إزالة ما علق من شَعْر بعد الحلاقة، والاستمتاع بالمياه الباردة بعد رحلة جحيمية امتدّت أكثر من ساعة.

أجَّلَ التفكير بالرصاصة تماماً، فقراءة الرسائل والرموز المترافقة معها تتطلّب جلسة متوحّدة مع نفسه، في غرفته العلوية المُطلّة على شارع الدير.

لن يُخبر نور بالأمر، هي المُتطيّرة أكثر منه في قراءة الرموز والإشارات، سينتظر ما تُسفر عنه هذه الانتقالة السريعة في تيّار حياته، ولكن شمس النهار ظلّت تُرسل شواظّها إلى الكائنات، رغم أنها تميل قليلاً قليلاً نحو

أُفُق الغرب، نحو أبو دشير، والسيدية، تميل بتؤدة فوق برج الدير النافر في فضاء الحَيّ، وفوق الطُّرُق الممتدّة غرباً حتّى المطار.

***

الحلّاق مشهور برواية الأحاديث السّرّيّة، والأخبار، والإشاعات، كلّما جلس معه جلال في محلّه، ينقل له حكايات جديدة عن المنطقة، عن أصحاب المحلّات، عن العائلات التي ترحل أو تأتي حديثاً للسَّكَن، وفكّر أن يُحدِّثه عن الرصاصة التي وجدها في سيَّارته، لكنه أحجم في اللحظة الأخيرة.

وَضْعُ الحكاية في فم الحلّاق معناه انتشارها في الشارع كلّه، وهو ما لا يحبّذه، خروج القصّة إلى العَلَن سيضيف إليها مساحيق، وزوائد، ومبالغات، تضخّم من حجمها. لا يرغب في أن يصبح موضوعاً للحديث في أفواه جيرانه.

لن تمرّ سوى أيّام حتّى ينساها تماماً. هذا ما هو متأكّد منه. لا، لن يغامر بوَضْع الحكاية في فم الحلّاق.

والحلّاق سعد شابّ أسمر الوجه، يربيّ سكسوكة في نهاية وجهه الممتلئ، له عينان ناعستان مريحتان، لا تفارق الابتسامة وجهه، وسعد لا يَحلق لجلال فقط، بل عادة ما يجلب له الوَلَدَيْن، سامي ورامي، كلّما طال شَعْرهما. الصالون شبابي، ولا يناسب أشخاصاً مثل جلال مَلَك. جلال ارتاح لسعد منذ أوّل حلاقة. صور الشباب مُعلّقة على الجدران، تدلّ شُعُورهم وألوانها على تمرّد، وإدارة الظَّهْر للمجتمع، حتّى جسد الحلّاق تهبّ منه رائحة أنثوية، أساوره تُخشخش كلّما حرّك يَدَيْه على شَعْر جلال، وما يلفتُ في سعد أكثر من أيّ شيء آخر بنطلونه الضَّيِّق، وشَعْره المتهدّل

على عينَيْه، والميوعة التي تستولي على أعضائه كلّها. الغريب وجود هذا النمط من الشباب، له من الرّقّة ما يفيض، وفي الوقت ذاته، وجود ذلك النمط من البشر الذين تغيب ملامحهم خلف طبقة كثيفة من الغلاظة والكراهية، وتلك واحدة من مفارقات هذا المجتمع الذي يعيش فيه.

كانت لمسات أصابع سعد الحلاّق على رأسه ناعمة، مهدهدة، ذات طاقة منوّمة، وفكّر أنه سيقرأ عن هذا السّرّ في كُتُبه الباراسايكولوجية، رغم أن جلال يُدرك أن تلك الكُتُب لن تفكّ عقدة هؤلاء الأشخاص الذين يعيشون في شارع الدير، ولا تفسّر ما يفكّرون به ويفعلونه سواء في النهار أو الليل. هم عجينة من المتناقضات والغرائب والأسرار، تراكمت في أرواحهم على مرّ سنين شاذّة، وحروب وهجرات وأحقاد.

أشخاص قلائل يسيرون مثل المخدَّرين، نوفوتيه جميلة المجاور للحلاّق سعد مُغلَق، ربمّا تأخذ قيلولة في البيت مثل غيرها، أو تعدّ الغداء لزوجها، المقهى العتيق، مقهى الجماهير، يحتوي على بضعة روّاد خاملين، ينظرون إلى الشارع بكسل ولا اهتمام، حتّى سيَّارة نهاد غير موجودة، وكان عادة ما يركنها أمام نوفوتيه جميلة انتظاراً للزبائن. قمامة الشارع ترقد بخمول على امتداد الأرصفة، مثل أيّ يوم آخر، البلدية ودّعت مهنة الكناسة، وألغتْها من جدول اهتماماتها.

لا شيء غريب في شارع الدير. السمات الخارجية واضحة ومكشوفة، لكنها مخادعة ومُضلّلة. هناك أحداث لا نراها، غير أنها تجري دون توقّف، فكّر جلال وهو يسرتخي على الكرسي العالي المواجه لمرآة واسعة لامعة.

قبضت الشرطة على عبّود الكهربائي هذا الصباح، قال له الحلاّق سعد، وسكت جلال مُنتظِراً منه إكمال قصّة عبّود الكهربائي المُفاجِئة،

خبر اعتقال عبّود خبر مثير، فعبّود، وكما ألفه جلال، صامت دائماً، حين يردّ السلام بالكاد يسمعه الشخص المقابل، لم يره قطّ يضحك أو يبتسم، سحنة برونزية تحمل تعابير جادّة، لا يتجوّل في الحارة إلا مع العدّة، عدّة الشغل كلّها: الدرنفيس، الكلابات، الشريط البلاستيكي العازل، والدرج بعض الأيّام. عبّود يُصلح التأسيسات الكهربائية في البيوت، يرتق خطوط الكهرباء المقطوعة بين البيوت، ومُولِّد الكهرباء، يمدّ خطّاً كهربائياً جديداً، يُصلح السّخّانات، يمدّد لمُبرِّدات الهواء، ذلك كلّه بعدّته البسيطة تلك، ويُعدّ عبّودي، كما تُسمّيه العوائل الساكنة في شارع الدير، خبيراً ببيوت المنطقة كلّها، لم يبقَ بيت، في شارع الدير خاصّة، لم يزره عبّود. سرق بيت جارهم، قال الحلّاق سعد مُتمهّلاً، كان جارهم مسافراً إلى أربيل، وترك مصوغات ذهبية ودولارات في مكان ما من البيت، وحين عاد من سفره، اكتشف أن لصّاً نزل إلى البيت، وسرق المصوغات والنقود. قيل إنه اتّهم عبّود مباشرة، كونه الوحيد الذي يعرف مداخل البيت ومخارجه، جاءت الشرطة، واستلّتْهُ من مقهى الجماهير ظهراً.

سعد الحلّاق منفتح الشهية هذا النهار على الحديث ورواية الأسرار، فكّر جلال، لكنْ، لا شيء واضح، يقول سعد:

- اليوم لم نعد نعرف الحقيقة من الخيال، المسالم يُطارَد، والإرهابي يسرح ويمرح، ولم نعد نعرف أين نمضي في هذه الغابة، أصبح الشّابّ لا يأمن على حياته، إن سلمَ من المفخّخات، فلن يسلم من الاغتيالات، وإن تخلّص من براثن المجموعات المتطرّفة وأساليبها للإيقاع فيه، فلن يتخلّص من مطاردة الميليشيات والعصابات. نحن وسط غابة، عمّو جلال. تخيَّل قبل أسبوع، وجدوا أسرة كاملة مقتولة في بيت، البيت يقع في منطقة الطعمة، لم يسرقوا أيّ شيء، أب وأمّ وولد وبنت، جميعهم

قُتلوا بكاتم للصوت، لماذا قُتلوا؟ لا أحد يعرف، هذا هو البلد الذي نعيش فيه.

في التلفاز المُعلّق في الجدار، شابّ صغير يرقص، وأُغنيّة غريبة وراقصات، وليس هناك من صوت، فقد كتم سعد صوتَ الأُغنيّة، ولم يبقَ سوى اللقطات تترى على الشاشة الملوّنة. وتخيّل جلال تلك الأجساد الصغيرة وهي تنزف دماً على بلاط الغرف، وعيونهم شاخصة إلى السقف، وقد لا يعرفون لماذا أقدم القَتَلَة على فعلتهم، ونكاية بالجيران والشارع الذي يعيشون فيه، ترك القَتَلَة، ربّما، الباب الخارجي مفتوحاً، كي تتسلّل الكلاب والقطط إلى الداخل، مبهورة برائحة الدم الطازج. تخيّل جلال ذلك البيت مضمّخاً بالدماء، تفوح من أثاثه رائحة ثقيلة لجريمة، لم يعرف مَن ارتكبها. أصبح عقله يُصدِّق أيّ قصّة تُروى عمّا يجري في البلد، فهذا الزمن تفنّن في عرض سيناريوهاته على المشاهدين.

أنهى سعد قصّة الشَّعْر، بخّ قليلاً من العطر على رقبته ووجهه، وضع أدوات الحلاقة على رفٍّ ضيِّق مُثبّت في الجدار، وسأله إن كان يرغب في أخذ خيط لإزالة شَعْر وجنَتَيْه، فرفض، الجيل الجديد فقط يُفضّل هذه الطقوس، أمّا نحن، الجيل القديم، فنكتفي بالحلاقة المعروفة، لا تنسَ أن عدداً ليس قليلاً من الحلّاقين تمّ قَتْلهم في السنوات الأخيرة، بسبب الخيط، المتعصّبون يعتقدون أنها عادة غربية وفدت مع الاحتلال، قال جلال وهو ينفض الشَّعْر من على كتفَيْه.

كلا، لم تفدْ هذه الطريقة مع الاحتلال، زاولها حلّاقو بغداد منذ عشرات السنين، ويُعتَقد أن اللبنانيّيْن والمصريّيْن هم الذين أدخلوها إلى البلد في عقد السّبعينيّات، هؤلاء مرضى لا غير، الله جميل يحبّ الجمال، أنهى الحلّاق حديثه، وهو ينفض المنشفة عن رقبة جلال مَلَك، ويُعطّره بالكولونيا ثانية.

قريباً سأجلب سامي ورامي للحلاقة، قال له جلال وهو يتّجه إلى سيَّارته المتوقّفة عند الرصيف.

***

وعلى مَبعَدة عشرات الأمتار، وفي الانعطافة الصغيرة للزقاق إلى اليمين، وتحت شجرة الزيتون، وفي ظلالها، وقف سامي ورامي يلعبان في حديقة البيت، وكانت آذانهما تتسمّع إلى صوت المحرّك، إنهما يميّزانه بدقّة، في هدأة الشارع وثقل الحرارة المستولية على البيوت والنخيل وأشجار النارنج المتحجّرة من ثقل الأشعّة، كما لو كانت تماثيل في لوحة خيالية. نور في الداخل تعدّ الغداء وسامي ورامي يلهوان في الظّلّ غير عارفَيْن بالرصاصة التي دُسَّت في سيَّارة جلال، المنقلة دَبَّابَة أميركية، قال سامي لأخيه الصغير، ومضى ليجلب المنقلة المركونة إلى جدار جميلة، وجلب رامي حجرة صغيرة، ودسّها في العشب، وقال لسامي وهذا هو اللغم الذي سينفجر، وقريباً منهما، كان الثِّيل يمتلئ بالنمل والحشرات الصغيرة التي لا يعرفان أسماءها.

الظلال المتراقصة لأشعّة الشمس النافذة من أغصان شجرة الزيتون تُبقّع ملابسهما، تتركهما مرَّة في الظّلّ، ومرَّة في الضوء، وبين حين وآخر، تتساقط ثمار زرقاء، بدأت تصفرّ قليلاً، من نخلة جميلة، وتتبعثر في الحديقة.

عجلات عربة جواد تَسحق، من بعيد، حصى شارع الدير وأوراقه وأغصانه التي تساقطت منذ أيّام ماضية، تصاعدت ضجّتها لعدّة دقائق، وأوشك الوَلَدَان على أن يُصدّقا أنها سيَّارة جلال، لكنها سرعان ما توقّفت، وعاد الشارع إلى هدوئه العميق.

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

قلب سامي المنقلة على قفاها، وبدأ يسحبها على العشب الرطب الذي رشّتْهُ نور قبل ساعات، وحين اقترب من الحجر، أحدث رامي فرقعة بفمه، ثمّ قلب سامي المنقلة بقُوَّة، وسقط جنبها، وعَدَّا أن العملية كانت ناجحة، هكذا شاهدا الأمر يحدث في الواقع، وفي شاشات التلفزيون، طَوالَ سنوات من حياتهما. سيأتي جلال ويجلب لهما المثلّجات، كما وعد في الصباح قبل مغادرة البيت، ويُفضّلان أكل المثلّجات تحت أغصان شجرة الزيتون، وهما يُحدِّقان بطيور النخيل، وبلابل النارنج، وعصافير الشارع الباحثة عن الظّلّ.

خفّت أشعّة الشمس، ودخل سامي ورامي إلى المطبخ، وفي الشارع، راح المارّة يستعيدون حركتهم، سيَّارات الكيا بدأت بنقل المسافرين من الدَّوْرَة إلى مناطق بغداد، رجعت طيور الحمام تُحلّق فوق ذرى النخيل، طيور الحمام الداجنة ترسم قوس طيران، يمتدّ من أبراج الدير وحتّى جسر الطابقَيْن، ومن منطقة المعامرة حتّى بيوت السيدية وأبو دشير.

وبالتفاتة خاطفة، رأى جلال مَلَك مئذنة جامع النور تنتصب بكسل فوق مدرسة ابن سعد، وكان لونها الأزرق يشفّ، ويخفت، بسبب الضوء، فبانت لعينَيْه، كما لو أنها أبعد من حقيقتها.

***

في ذلك النهار الحارّ، وغير بعيد عن بيت جلال مَلَك، كان جواد يجلس وسط عربته الخشبية، مستظلاً بنخلة عادل السامقة، يُحدِّق إلى الشارع بنظرات مترقّبة، ويُحدِّق بتاج النخلة بعجب، تلك العذوق الملوّنة بالأزرق والأصفر، وبينها تهدل حمامات تختنق بالحرارة، وفوق ذلك كلّه، سماء زرقاء، كان يستغرب ما يأتي وراءها. نظراته كانت مستطلعة، كما لو

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

تسبر أغوار شارع الدير، ببيوته، وحدائقه، وسمائه، وطيوره والحوادث غير المفهومة التي تجري فيه.

وسط العربة بدت بقايا ألعاب أطفال، وعدد من البالونات الصغيرة، وبعض الملابس متكوّمة في زاوية العربة.

تراءى له الشارع مهجوراً. مَنْ يجرؤ على المسير في هذا الحريق؟

أنهى جواد عمله الصباحي الذي بدأ منذ التاسعة، أفرغ سلال النفايات لبيت جلال مَلَك، وبيت جميلة، أمّا بيت عادل، فيعرف أنهم يتخلّصون من نفايتهم بأيديهم، تجنّباً لمنحه الألف دينار أجور رمي النفايات، والتي تتضاعف إلى الألفَيْن في أيّام الأعياد، ورأى جلال مَلَك يدخل المنطقة بسيَّارته البرنس البيضاء الشبيهة بالصالون، نهض من وسط العربة، وأشار له بالتّحيّة. وقف جلال مَلَك، وقال له تعالَ إلى البيت لتبديل قناني الماء من محلّ الكَرَّادَة، ومحلّ الكَرَّادَة لا يجلب سوى البضاعة المضمونة، خاصّة قناني الماء، لذلك يثق به جلال أكثر من محلات المنطقة كلّها.

عمّو جلال، الأمور ليست جيِّدة، لقد جنّ الجميع في هذه المنطقة، هل عرفتَ بخبر اعتقال عبّود الكهربائي؟

أخبرني سعد الحلّاق.

وجواد يحبّ هذا الرجل، إنه كريم معه، يبتسم له كلّما رآه، ويسأله الأسئلة ذاتها: جواد، كيف حالكَ اليوم؟ هل أزعجكَ أحد؟ كيف هو المحصول؟ ويردّ عليه بالجملة ذاتها: زين عمّو، الحمد لله، لكن جواد هذه المرّة أراد أن يُبدي حرصه على جلال مَلَك في هذا الوقت الحارّ، فقال له بتردّد ما إن نقل إليه خبر اعتقال عبّود: عمّو جلال، ديرْ بالَكْ على نفسكْ،

الدنيا ليست بخير، ولم يدرك جواد أن الجملة وقعت موقعاً عميقاً في دخيلة الرجل، حيث تلبّث جلال لحظة ساكناً، وبانت في عينَيْه تعابير قلق وخوف، وأحسّ بكلام جواد إشارة بعيدة للرصاصة، ودون أن يردّ على جواد، أو يبتسم له، كالعادة، استأنف سَيْره البطيء باتّجاه البيت.

لم يفهم جواد سكوت جلال مَلَك، ولا اعتكار وجهه، هل ارتكب خطأ ما في الحديث؟ هل تجرّأ عليه حين طلب منه الانتباه لنفسه؟ ظلّ جواد واقفاً ينظر إلى السَّيَّارة وهي تصعد إلى مرتقى الحديقة، وامتلأ صدره بالخجل والحرج، وهي مشاعر يحسّ بها كلّما ارتكب خطأ ما مع أحد الأشخاص. يحبّ الجميع، ويرغب في أن يُرضي الجميع، وسمع الباب يُغلَق، وعاد السكون إلى الهواء.

***

لجواد جسد ممتلئ، نظراته قلقة، وجهه أسمر سمرة غامقة، رغم أنه لم يبلغ الخامسة عشرة، إلا أن تعابير وجهه وعينَيْه فيهما ملامح جدِّيَّة واضحة، هذا ما جعل معظم نساء الشارع تتعاطف معه، تحبّه، وتُغدق عليه بالهدايا والطعام.

ظهراً، في فترة الغداء، وضعت له إقبال، زوجة عادل، صحناً من الرّزّ، عليه مرقة الباميا، وقطعة صغيرة من اللحم، ونصف رغيف من الخبز، تناول ذلك بمتعة تحت ظلال النخلة، وكان جائعا حقًّاً، وقد ورث جواد عربته عن أبيه كاظم، الحمّال في سوق الشورجة قبل التّطوّع للشرطة، ورثها منذ أن أكمل السادس الابتدائي، وجاء تطوُّع كاظم في الشرطة حبل نجاة لمعاناته، إذ استطاع أن يشتري شقَّتهم الصغيرة على طريقة السرقفلية، في بناية الآلوسي الواقعة في نهاية شارع الدير، وتحتلّ مع شقَّة مقابلة لها

نسخة محمية © جميع الحقوق محفوظة

الطابق الثاني من تلك البناية المكوَّنة من ثلاثة طوابق، وهي بناية رثَّة، هرب صاحبها محمّد الآلوسي إلى الأردن حين تحوّلت منطقة الدَّوْرَة إلى ساحة مواجهة بين القُوَّات الأميركية والمُسلّحين قبل سنوات. واستطاع كاظم موحان دفع السرقفلية إلى وسيط الآلوسي، ومقدارها خمسة ملايين دينار عراقي. وقُتل كاظم موحان في تفجير، استهدف وزارة الخارجية العراقية القريب من باب المنطقة الخضراء المطلّ على منطقة كراج علاوي الحلّة. كان عمر جواد وقتها عشر سنوات. والشَّقَّة تتكوّن من غرفة واسعة ومطبخ صغير وحمّام مع تواليت، ويُصعد إلى الشَّقَّة عبر درج قديم، ويُغلق باب البناية بشبك حديدي، عليه قفل سميك، يمتلك قاطنو البناية كلّهم نسخة من مفتاحه.

***

بعد اختفاء جلال داخل مشتمله، معتكر الوجه، قلق الملامح رغم حلاقته الملفتة، ورائحته المنسابة خلف سيَّارته، قرّر جواد أنه لن يعود إلى بيته في تلك الساعة، فالكهرباء مقطوعة بالتأكيد، أمّه وأخوه الصغير يسبحان بالعَرَق. أمامه ساعة، لكي يذهب إلى بيت جلال مَلَك. نهض من العربة، وساقها باتّجاه نهاية الشارع من جهة مدرسة ابن سعد، ومنطقة المعامرة، دفع العربة أمامه، وراحت تقرقع بصوت عالٍ، فراغ الشارع، الحرارة، هدأة الحياة الماضية إلى نهاية العصر، تضاعف الضوضاء المنبعثة من عجلات العربة، باب الجامع مفتوح إيذاناً لصلاة العصر، وكان جواد يمشي على مهل، يُحدِّق قليلاً في بيوت الشارع المُغلَقة، ويُركّز أكثر على الأرض، لطالما وجد نقوداً ساقطة من أصحابها، ألعاب أطفال، يحملها إلى أخيه الصغير، أقلام رصاص، أضاعها التلاميذ في أوقات ماضية، وذات مرَّة، وجد قرطاً ذهبياً، باعه بمائة ألف دينار عند صائغ ذهب، يقع محلّه

عند سوق الجسر، جسر الميكانيك. بدأ يمتلك فكرة جيِّدة عن طبائع بيوت الشارع، من خلال تعامله معهم، نقل مياه، التّخلّص من الأزبال، حمل قطعة أثاث من بيت إلى آخر، تنفيذ عمل بسيط في الحديقة، وهكذا عرف أغلب الأشخاص الذين يقطنون في هذا المكان، بل وعرف قصصاً كثيرة عنهم، سمعها من خلال تنصُّته على أحاديث النساء وهنّ يقفنَ في الأبواب صباحاً، يتبادلنَ الهموم وآخر الأخبار في الشارع ومدينة الدَّوْرَة وأحياء بغداد البعيدة ومحافظات العراق كافّة.

قاطنو هذا الشارع ينتمي أصول بعضهم إلى مُدُن بعيدة، مثل جميلة القادمة أصلاً من الكوت، أو مثل عادل وإقبال اللَّذَيْن كانا ساكنَيْن في منطقة بغداد الجديدة قبل أن يأتيا إلى شارع الدير، وبيت جلال الذي قيل إنه قدم من بلدة على أطراف بغداد. عبّود الكهربائي لا يأسف عليه، رآه مرَّة يقطع خطوط الكهرباء بين المُولِّد وبعض البيوت، وقت المساء، وهو يعرف أنه سيُكلَّف لاحقاً بإيصالها متقاضياً على ذلك عشرات الآلاف من الدنانير. ويعدّ ذلك سرقة صريحة، وتدلّ على فقدان الضمير.

خُيِّل لجواد، وكان يجيل النظر بالبيوت البعيدة والسَّيَّارات المارقة متعجّلة نحو مراميها، ناضحاً عَرَقَ الصيف، أنه يسمع عويلاً بعيداً، قد يكون قادماً من منطقة المعامرة، أو منطقة آسيا، الواقعة إلى اليمين من مدرسة ابن سعد، عويل متواصل لنساء ينحنَ، العويل قادم من خلف البيوت الكالحة، وأشجار النخيل، ودوّامات الغبار التي تتصاعد بين حين وآخر في الفسحة خلف المدرسة، وتحمل العويلَ الخفيَّ الأوراقُ والريشُ والغبارُ والعشبُ الجافُّ، عويلٌ من خلف جامع النور الملتمّ على نفسه في هذه الساعة من النهار، بمئذنته المزجّجة بالقاشاني الأزرق، وحروف الكتابة على قبَّته المغطّاة بسَعف النخيل، وسوق الكوخ المجاور له. ربمّا

نواح على قتيل قضى في سيَّارة مفخّخة، أو شخص اغتيل في زقاق ما، وهو يسير نحو دكّانه أو دائرته.

المكان المُسمَّى الدَّوْرَة بدأ يصبح خطراً، هكذا تردّد الحوارات بين الناس، ويسمعها جواد لدى باعة الخضار، وأمام الصيدليات، وعند أفران الصَّمُّون، هناك أشياء تحدث، لكنه لا يراها، يردّد صدى حدوثها الأطفال والشيوخ الجالسون في مقهى الجماهير، أمام سوبرماركت الكَرَّادَة، وحتّى النساء المتسوّقات من محلّ جميلة. أجل هو الجنون بعينه، يراه سافراً في الوجوه.

صيدلية الأمل لم تفتح أبوابها بعد، بائع الخضار يستلقي في الظّلّ تحت السقيفة، ولا يوجد زبائن حوله، العنب والخيار والطماطم والتّفّاح الأخضر والمشمش تصطفّ على الطاولة في سلال من الأغصان أو في صناديق من الخشب، تتطاير فوقها الزنابير والذباب والبقّ، وبين حين وآخر، تمرق سيَّارة كيا صغيرة تلتقط المارّة، والحرارة تنيخ بثقلها على عذوق التمر المصفرّ في النخيل، والسماء خالية من الطيور.

الحياة صعبة، فكّر جواد وهو يتفادى وهج الشمس المائلة نحو أبراج الدير، صعبة دون أب، الحياة مسؤولية، لكن الحياة فيها الكثير من اللعب.

محلّ القصّاب مفتوح وفارغ من الزبائن، وتصل رائحة اللحم حتّى الرصيف المقابل، وقال له بائع الخضار تعالَ خذْ ما تبقّى من العنب، فتقدّم جواد من البائع، وتناول كيس العنب الذي جمعه البائع من السّلّة، وفيما كان زنبور أحمر يطير فوق السلال والصناديق، ليختفي في الفضاء المقابل للمقهى، ناوله أيضاً ثمرة كمّثرى ناضجة، التقطها بفرح، خاصّة وهو يحسّ بالعطش، فبدأ بالتهامها مباشرة. وضع كيس العنب مع لعب

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

الأطفال والأغراض التي جمعها من الشارع، دفع عربته باتّجاه شارع الدير مرَّة أخرى، ثمّة شخص آخر يعطف عليه في هذا المكان، هو بائع الخضراوات، دائماً ما يعطيه بقايا الفواكه والمخضرّات، كلّما مرّ من قربه.

لم يشعر جواد بالذنب وهو يستمتع بقَضْم الكمّثرى اللذيذة، إذ هو عادة ما يمتلئ بهذا الشعور كلّما تناول وجبة طيِّبة من أحد البيوت. يتصوّر أن أخاه الصغير لا يأكل مثلها.

أبواب محلّ الكَرَّادَة الزجاجية مفتوحة، لكنْ، لا أحد هناك، فقط البائع عدنان يقف أمام ماكنة الحساب، يُحدِّق بتلفزيون صغير معلَّق بالجدار إلى يسار الباب. صيدلية نورة مُغلَقة، مصلِّح الساعات أبو حسن أغلق بابه هو الآخر، بائع الحاجات البيتية ترك دكّانه مفتوحاً، داره تقع مواجهة الدّكّان عبور الشارع، ووجد تاكسي نهاد، والد عبّود الكهربائي، واقفاً أمام نوفوتيه جميلة التي افتتحتْهُ للتّوّ على ما يبدو، هي تدخل وتخرج مجهِّزة بضاعتها للعرض أمام الواجهة، أو في الداخل، ونهاد يقف في الزاوية، يتحدَّث لها بصوت عالٍ غير مبال بما تقوم به. جميلة تتابع حديثه بدقّة.

وجدنا الذهب في كيس موضوع تحت شجرة الرّمّان في الحديقة، ذهبتُ أنا إلى جاري، وأخبرتُهُ أننا وجدنا الذهب، لم يكن ناقصاً أيّ قطعة، سلسال من الذهب، ينتهي بليرة ذهبية، ومعاضد، ومحابس، وملوية من التي تُوضَع في المعصم، وضبّة الدولارات، ذلك كلّه حملتُهُ إلى جاري، وقلتُ له يبدو أن اللّصّ ترك الكيس وهرب بعد أن شعر بوجود شخص ما، وافق، بعد أن تأكّد من الموجودات، على الذهاب معي إلى مركز الشرطة، للتنازل عن الدعوى، وفعلاً ذهبنا إلى مركز شرطة الرشيد، تمّ كلّ شيء على أكمل وجه، لكنْ، استجدّ شيء آخر، في القضية، هذا المنحوس عبّود كان له علاقة بامرأة مطلّقة، تسكن قريباً من السوق المجاور لجسر

الميكانيك، المرأة مثل العنكبوت، تنسج الخيوط حول ضحيّتها بمهارة، خيط يعقبه آخر، أكلة طيّبة، ابتسامة، غنج، حتّى يجد الرجل نفسه لقمة سائغة، وهكذا فعلت تلك المرأة. طلب منّي الموافقة على الزواج منها، فرفضتُ. الجيران وجدوها مقتولة في بيتها، وأخبروا الشرطة بالموضوع، أهالي المنطقة الذين استجوبتْهم الشرطة قالوا إنهم كانوا يرون الكهربائي عبّود يتردّد عليها، حيناً لتصليح الكهرباء في البيت، وحيناً من دون سبب، وها هي التهمة الثانية تُلصَق بهذا الأهبل، وأنا لم يعد لديّ أيّ حيلة في معالجة المشكلة. هذا خراب بيت، نحن نعيش في جحيم، نغلق باباً، فينفتح باب آخر.

كانت جميلة مشغولة ببضاعتها، لم تنتبه إلى حكاية العنكبوت، ولا إلى غراميات عبّود التي يرويها أبوه نهاد، وحين لمحت جواد، قالت له بصوت عالٍ: تعال، وأشارت له بيدها، عندي سجّادة، هل يمكن إيصالها إلى محلّ التنظيف؟ قال لها جواد إنه سيجلب ماء لبيت جلال مَلَك، ثمّ يعود إليها لنقل السَّجَّادة، ودفع عربته المجلجلة نحو الزقاق القصير الرابط بين الشارع العامّ وشارع الدير، متّجهاً نحو بيت جلال.

كان يحسّ بالتعب، والنعاس، لكنه لا بدّ أن يقضي واجباته لهذا اليوم.

بعد أن يجلب الماء إلى بيت جلال، سيذهب بالسَّجَّادة إلى محلّ الغسل القريب من مُولّد الكهرباء، ومن بعدها، سيذهب مباشرة إلى البيت. يرغب في الراحة، والنوم، حيث ستأتيه الأحلام المريحة، وربّما في أحدها، سيرى أباه كاظم، هو مشتاق له كثيراً. شاهد عادل يخرج إلى الشارع حاملاً كأساً من الشاي، ليجلس على المصطبة الحجرية التي وضعها جنب الباب، هو في هذه الساعة يكون قد كرع عدداً من كؤوس العَرَق، وانتشى، المصطبة صارت تقع في ظلّ نخلة (أبو رياض)

في البيت المقابل لبيته، إقبال زوجة عادل اختفت عن نظره بعد أن ناولتْهُ الوجبة، وعدا عادل، لم يلاحظ جواد أحداً في الشارع حتّى الآن. استبدل قنّينَتَي مياه حجم عشرين لتراً من نوع (صافي) لبيت جلال، ونقل سجّادة جميلة إلى محلّ التنظيف قرب مُولّد الكهرباء العملاق، وجلب أكياس السّكّر والشاي والصابون والفحم لمقهى الجماهير، ثمّ رجع بعربته إلى البناية، وضعها أمام الباب، وجمع بين يَدَيْه العنب ولعب الأطفال والبالونات التي وجدها في الشوارع، وصعد إلى الداخل، واستقبلتْهُ أمّه بوجه خامد، وتناولت عنه الأغراض، وسلّمها عشرين ألف دينار، جمعها من أعماله في المنطقة.

***

من خلال الشّبّاك المُطلّ على ساحة الدير، لاحظ جواد خيوط الظلام وهي تتكاثف على الخليقة، كان يوم عمل استثنائياً، نادراً ما يجمع مثل هكذا مبلغ إلا في أيّام الأعياد، لذلك سينام بهدوء هذا المساء، راضي البال، سعيداً وهانئاً، لا ينقصه سوى رؤية أبيه في المنام.

جواد الذي يمتلك جسداً سميناً وسمرة غامقة، صاحب الوجه الضخم والعينَيْن السوداوَيْن، المتجهّم دائماً، لم يمضِ إلى الحمّام للاغتسال رغم طلب أمّه منه ذلك، ورغم تنبيهها له إلى دبق العَرَق والغبار الذي يغطّي شَعْره وجسده وملابسه، ورغم رائحة الدهون الفائحة منه، جلبت أمُّه له صحناً من الرّزّ وصحناً من مرقة الباذنجان من دون لحم، ورغيف خبز، مع رأس بصل مُقشَّر ومُقطَّع، وجلبتْ ذلك كلّه على صينية من الفافون، وجلس على فراش يمتدّ بموازاة الجدار، والتهم الطعام بشهية وسرعة، ثمّ عاجلتْه بـ (استكان) شاي ثقيل محلّى بالسّكّر الزائد. لم يتابع أفلام الكارتون التي يحبّها، ولم يلعب مع أخيه الصغير، كما يجري كلّ مساء. طلبت منه

أمّه الحديث عن أخبار شارع الدير والقصص التي سمعها والأشخاص الذين التقاهم خلال النهار إلا أنه تجاهلها تماماً، وظلّ صامتاً.

لماذا كان جلال متجهّماً؟ هذا السؤال ظلّ يلتمع في رأسه ساعة كاملة.

لم يكد ينتهي من الشاي حتّى توجّه إلى فراشه، الموضوع جنب التلفزيون، وأسلم نفسه إلى الأحلام، الفردوس الذي يتوق دخوله كلّ ليلة، دون أن يُتعب رأسه بما يأتي به الغد، هو لا يفكّر كثيراً بالغد، يعيش يومه فقط، ويتوق في نهاية النهار إلى شيء واحد فقط هو النوم، من أجل أن يحلم، وحلم جواد برجوعه إلى مدرسة ابن سعد، ليُنهي المرحلة الابتدائية، ثمّ ينتقل إلى المتوسّطة، حلم بملابس نظيفة، لا تفوح منها رائحة العَرَق والدهون والعفونة، وتمنّى لو يكون لديه نقود، كي يشتري لأخيه سيَّارات إلكترونية، وطائرات بجهاز تحكّم، وبنادق رَشَّاشَة ذات أضواء لاصفة.

تمنّى لو يمتلك نقوداً كثيرة، يشتري فيها مُولّداً بيتيّاً للكهرباء، يُنقذ أمّه وأخاه من هذا الفرن الذي يعيشان فيه، كلّما انقطعت الكهرباء.

حلم بعودة أبيه من عالم الموت، لكي يجعله يُنجز مشاريعه كلّها، ويعفيه من مسؤولية إعالة الأسرة، وربمّا يعيد الابتسامة إلى وجه أمّه. حلم لو يشتري بيتاً مثل المشتمل الجميل الذي يقطنه جلال مَلَك وزوجته الفاتنة نور وطفلاه الناعمان سامي ورامي. ركب بعد غفوة ساحرة على بساط صغير، سمّاه أبوه البساط الطائر، ارتفع به من سطح مشتمل جلال مَلَك، واستطاع رؤية بيوت شارع الدير بيتاً بيتاً، بما في ذلك النخيل أخضر السَّعَف، أصفر العذوق، في ضوء سحري لا هو باللامع ولا هو بالخفيف، شارع الميكانيك، ثمّ شارع آسيا، وشارع الستين، ومحلّة الطعمة، سوق الدَّوْرَة المكتظّ بالبشر، دجلة يتلوّى بين محلات بغداد وبيوتها مثل ثعبان

عملاق، على ضفَّتَيْه الشنبلان والقصب والحشائش الخضراء، والطيور تُحلِّق فوق أمواجه البعيدة. مقاهي شارع السعدون، تشتعل بالأضوية، مطاعم الكَرَّادَة تمتلئ بالنساء المتبرّجات والرجال المُمسِكين بأطفالهم، وهم يُحدِّقون في عيون بعضهم بعضاً، والقطط الباحثة عن ملتجأ للنوم، والسّكارى المشرّدين يلتفّون بالكارتون قرب الأبنية المهمَلَة، وعواء كلاب ناء، ينطلق من عشوائيات حزام المدينة مثل عويل صاخب.

لم يبقَ للبشر في هذا البلد سوى الأحلام. يعيشونها في اليقظة والمنام. الأطفال والرجال والنساء يحلمون بعالم آخر خالٍ من الموت والفوضى والحرارة القاتلة التي تُطبق عليهم ما إن تنطفئ الكهرباء، وتصمت المراوح والمُبرِّدات، فالتحليق خارج اليقظة، الحادّة كشفرة، هو تسلّلٌ غير واعٍ إلى حديقة من الخضرة الرطبة الباردة، والهدوء الشامل الذي لا تُخلخله الأصوات المُفاجِئة العالية، وهو تحلُّلٌ كامل من الواجبات اليومية المكرّرة، كحالة جواد، من أجل توفير الطعام والملابس والاحتفاظ بسقف، والأحلام، في النهاية، لا تُكلّف نقوداً، ويمكن لأيٍّ كان الإيغال فيها، وهذا ما كان عليه جواد كاظم اللحظة، وهو يستلقي تحت هواء المُبرِّدة المنعش.

***

وهكذا بدت ساحة التحرير لخياله، كأنها جنينة صغيرة، فيما شاهد أزقّة سوق الشورجة، وهي تتلوّى وتتداخل دروبها وشوارعها الضَّيِّقة برقصة دودية عجيبة، طالما سمع جميلة تتحدَّث عن رحلاتها إلى هناك، لتُسوِّق البضاعة إلى دكّانها، وكيف كانت تصف الأزقّة والدرابين والحارات المسقوفة والبشر القادمين من كلّ مكان، كي يشتروا حاجاتهم، ويغادرون، ذلك كلّه جميل وممتع، واستطاعت عيناه رؤية الجسور والمتنزّهات والفسحات القاحلة في أطراف بغداد، والتماعات زجاج السَّيَّارات مثل نجوم غامضة. فكّر أن

الحياة هنا، من هذا العلو الشاهق، جميلة بحقّ، المدينة تمتلك منظراً رائعاً وملوّناً، لكنه عاد إلى سؤال نفسه لماذا يعيش هو جواد كاظم موحان ذلك البؤس كلّه هناك في الأسفل؟ ألا يمكن أن يعيش حياة أخرى خالية من عربة الحمل الخشبية الواقفة جنب باب البناية؟ ألا يمكن أن يعيش في مكان بارد، يخلو من جحيم الصيف؟ لمَ كُتب عليه هو بالذات الشقاء منذ الصباح، وحتّى المساء؟`

تمنّى جواد من وسط مويجات النعاس، وهدوء الليل المُوغِل في عَتَمَتِه، لو يظلّ طائراً فوق المدينة على ذلك البساط السِّحْرِيّ الذي جلبه أبوه إلى عقله منذ سنوات وسنوات عبر حكاياته الساحرة. ولم يلبث أن حملتْهُ السماء بعيداً، وانتبه إلى أن المدينة راحت تصغر تحته، ثمّ تصغر مرَّة أخرى، حتّى تحوّلت إلى حبّة عنب داكنة.

***

وفيما ظلّ جواد السمين يحلم برؤية أبيه كاظم موحان، في أثناء ما كان مُحلّقاً في سماء بغداد، كان جلال مَلَك يستغرب من هذه المفارقة، الفكرة التي طرأت في عقله. وكان يجلس ليلاً في غرفته المعلّقة في الطابق الأعلى من المشتمل.

قطعة صغيرة، من الحديد، تلغي عمل تلك الآلة الجبّارة، الإنسان آلة فذّة، معقّدة، استطاعت أن تُغيّر جغرافية الأرض، وتسافر إلى مجاهيل الكون، وتغوص تحت المياه في المحيطات والبحار، وتكتب الشِّعْر، وتُؤلّف الموسيقى، وتطير على بساط طائر في مجاهيل الكون، لكنها، برغم تعقيدها، وعبقريّتها التي ظهرت منذ أن وُجدت على أديم هذا الكوكب، رصاصة صغيرة من الحديد، يمكنها أن تشلَّها. تلغي وجودها، وتُحوِّلها

إلى كيس بائس من الدم، واللحم، والعظام. كيس ينتظر الدفن، أو سمكة جائعة في باطن النهر.

لماذا طلب منه جواد أن ينتبه لحاله؟ لا يمكن التفكير حتّى في الأفلام أنه عرف بقضية الرصاصة؟ هل كان تحذيره صدفة أم تنبّؤاً لأمر سيحدث له في المستقبل؟ أو ربمّا برهان على أن الرصاصة هي رسالة تهديد واضحة له، هو جلال مَلَك؟ هل من الحكمة إخبار زوجته نور بأمر الرصاصة؟ هل يمكنه إخبار سعد الحلاّق أو أخذ رأي جاره عادل؟ وماذا عن نهاد سائق التاكسي، هل ينفعه برأي يزيح عنه القلق؟ حتّى جميلة، فكّر بها بلحظة يأس وتطيُّر، هؤلاء مجسّات يومية، لما يجري في الخفاء، تصبّ في آذانهم تقوُّلات النساء وإشاعات الرجال وقصص العالم السفلي الذي لا يمكن لشخص مثل جلال ملامسته بسهولة.

ألحّت نور بالسؤال عن سبب قلقه، لكنه لم يجبْ، حدّثها عن الزحمة في السيطرات، والإشاعات المتصاعدة عن الاغتيالات، ووضع البلد الواقف على كَفّ عفريت، والحياة اليومية، سواء في العمل أو الشارع، وقد أصبحت لا تُحتَمَل. حدّثها عن رحلته إلى البلدة، أخبارها ومستجدّاتها، وأحوال أَخَوَيْه كمال وجمال. حدّثها عن زوجَتَيْهما سندس ونجاة، والمقبرة التي راحت تمتدّ إلى الأفق، والتمر الذي لم ينضجْ بعد، وإلا كان جلب عَذْقاً إلى البيت.

***

سامي ورامي لم يخرجا خلال يومَيْن إلى الشارع لِلَّعب، كما هي العادة في المساءات، قالت له نور إن جميلة حدّثتْها عن إرهابيّيْن نشروا في الشوارع عبوات ناسفة على شكل أقلام رصاص، ولعب أطفال، لخَلْق

جوّ من الذعر بين الأهالي، وذكرت جميلة أيضاً قصصاً عن أطفال تعرّضوا لإصابات قاتلة بعد التقاطهم لتلك الألعاب، في شارع السّتّين، وشارع الطّيّارة، وآسيا، والطعمة. هذا دون التذكير بعصابات خطف الأطفال للمتاجرة بأعضائهم، وهي حكايات تشيع لفترة من الزمن، ثمّ تختفي ما إن تحلّ محلّها إشاعات ثانية. نور تركتْهما يلعبان في الحديقة الصغيرة الممتدّة بين باب المطبخ والباب الخارجي، في أثناء ما كان جلال مَلَك يتابع الأخبار على القنوات الفضائية، متنقّلاً من قناة إلى أخرى، ساهما، في بعض الأحيان، عمّا يراه على الشاشة، بذهن غائب عن الحاضر، ومُبحر في رسالة التهديد التي نزلت عليه مثل صخرة مُفاجِئة. يحسّ باللاجدوى، وأحياناً باليأس. اليأس يكبر مثل ثقب أسود، ويلتهم في طريقه السعادة الزوجية، ومتعة الطعام، وعلاقاته مع الأصدقاء، ووجوده في الشارع، وحتّى بين أُسرته القاطنة في البلدة.

لم يفدْ إليه هذا الشعور بعد العثور على الرصاصة فقط، إنما تصاعد في روحه منذ سنوات، متدرّجاً من الضجر والملل، ثمّ التّذمّر واليأس، وأخيراً، الشعور بالاختناق.

كان سامي، وهو في التاسعة من العمر ورامي، وهو في الخامسة، يتقافزان على الثِّيل المحصور برقعة ضيِّقة أشبه بالسَّجَّادة بين الصّبّة الكونكريتية التي تقف عليها سيَّارة البرنس البيضاء، والجدار الفاصل بينهم وبين بيت جميلة، الجدار المصنوع من الخشب والمصبوغ بالبوية الرمادية التي تحوّل لونها إلى الرملي، بسبب الغبار البغدادي الذي يضرب العاصمة كلّ سنة عشرات المرَّات.

أخرجا سنّارة صيد السمك، وجاءا بطشت بلاستيكي، ملآه بالماء، وتخيّلا أسماكاً كثيرة، تسبح في الطشت، وهما يصطادان دون كلل،

يُكوّمان أسماكاً وَهْمية على الثِّيل. حاولا ذات يوم الاصطياد من دجلة عند بحيرة الجادرية، حين زاروا المكان المكتظّ بالبشر، بضفافه القصبية ومياهه المتفرّعة من دجلة، لكن الصيد ممنوع، كما نبّههم الشرطي. الصيد الافتراضي لم يُفقدهما متعة اللعب. وفيما كان جلال مَلَك يتنقّل بين القنوات الفضائية، عراقية وعربية وأجنبية، كان سامي ورامي، بعد أن ملّا لعبة السمك، يجهّزان خشبة عتيقة، وجداها مُلقاة في زاوية السياج تحت شجرة الزيتون، مع خيوط من أكياس الطحين المصنوعة من الجنفاص، وصحن فافون متآكل، وعدد من أغصان الزيتون، كي يصنعا سفينة فضائية، تسافر بهما خارج الأرض نحو مجرّة درب التّبّانة، لاكتشاف الثقوب السوداء، كما قال سامي لأخيه الصغير رامي.

***

وسط العَتَمَة، كان جلال يسمع نور تتجوّل في أجزاء البيت، تتفقّد ما تعبتْ في جمعه وبنائه طَوالَ الأربع سنوات الماضية، قرقعة عربة جواد الخشبية غابت عن الشارع، وكان عدد قليل جدًّاً من الأطفال يلعبون في الساحة المقابلة للدير عند نهاية الشارع، وتتناهى إلى الأسماع أصوات سيَّارات بعيدة، وزمّور ناء لبائع الغاز الذي مرّ قبل ساعَتَيْن في شارع الدير، ولم يشتر منه أحد. حرارة الليل تُطَقْطِقُ في عُذُوق النخيل، تتهدّل السَّعَفَات بثقل رحيق حارق، النجوم تخرج بَغْتَة من ظلمات السماء، معظم البيوت أُضيئت بإسراف، كون الكهرباء الآن هي الوطنية، وليست كهرباء مُولِّد المنطقة. كهرباء مجّاناً بعد أن كَفَّ الشَّعْب عن دَفْع الفواتير.

وقفت نور في باب المطبخ الداخلي تتأمّل في زوجها جلال، والثلاجة القريبة من رأسه، وطبّاخ الغاز، ومجلى الغسيل، والأفرشة الإسفنجية التي مَدَّتْها بموازاة الجدران، وهواء المُبرِّدة القادم من فتحة الشّبّاك. أصرّت

على وضع المُبرِّدة في الحديقة، وغطّتْها بسقيفة من الخشب، لكي تُقلّل من وهج الشمس عليها، وبالتالي تزداد برودة الهواء. ذلك القفل الرخو في باب المطبخ المُؤدّي إلى الحديقة، لا يعجبها، طلبت من جلال أكثر من مرَّة استبداله قفلاً أثقل وأكثر أماناً، جلال يصغي لها، ويتّفق معها، لكنه لا يفعل شيئاً، لقد فقد الاهتمام بشؤون البيت. ليس القفل فقط، بل لكلّ قطعة في المطبخ قصّة في رأسها، مثلما لكلّ قطعة في باقي البيت. السَّجَّادة الكبيرة أهدتْها لها نجاة زوجة جمال مَلَك، والمِروحة الأرضية جلبتْها من سندس زوجة كمال مَلَك، الثلاجة من نوع بيكوك اشتراها جلال عند تأثيث أوّل بيت في بغداد، وكان يقع في حَيّ المشتل. تخت الخشب الموضوع في غرفة الطابق العلوي التي يجلس فيها جلال ليلاً، وينام عليه أحياناً حين يتأخّر في عمله على الكومبيوتر، وجدتْهُ في حديقة بيت (أبو رياض) وقد سكنوا فيه سنة تقريباً، قبل أن يُخرِجهم أبو رياض من البيت، ويعطيه لابنه الذي انتقل حديثاً إلى شارع الدير.

لكلّ قطعة من أثاث البيت، فكّرتْ نور، قصّة طويلة، تتردّد في رأسها، كلّما شاهدتْ واحدة منها.

دخلتْ إلى الغرفة، وعدّلتِ الفراش الموضوع على الأرض في الجهة المقابلة لخزانة الملابس، وشغّلتْ مُبرِّدة الهواء، ثمّ وقفتْ أمام مرآة الخزانة، تعدِّل وضع شَعْرها القصير (الكاريه)، وتتأمّل بوجهها الحنطي، وعينَيْها اللَّتَيْن يقول لها جلال إنه تزوّجها بسببهما، كونه لم يرَ رقّة في حياته أكثر ممّا رآه فيهما، تناولتْ قلم أحمر الشفاه، ووضعتْ لمسة خفيفة على شَفَتَيْها، ثمّ استبدلت ببيجامتها البيتية نفنوف نومٍ شفّافاً، كان يُبرز، بتفاصيل مثيرة، جسدها الممتلئ قليلاً خاصّة عند المؤخّرة. قبل أسبوع، كادت أن تعطيه لإقبال زوجة عادل حين أعجبها، وجرّبتْهُ على جسدها، وكانت تُراودها

خيالات جنسية، وتمنّتْ لو تجذب نظر جلال لجسدها الليلة، لكنها، وكما أحسّت، مشغول الذهن بأمر ما لا تعرفه. هو لا يودّ البوح به. نادت على سامي ورامي، ليدخلا الحمّام، وأحضرتْ لهما منشَفَتَيْن نظيفَتَيْن وشامبو الشَّعْر والليفة المصنوعة من خيوط الجوت. حمَّمتْهما جيِّداً، وضعتْهما في الفراش، ونامتْ جنبهما، وهي تحلم بجلال.

كان الهواء البارد القادم من فتحة المُبرِّدة، رغم أنه مُشبَع بالرطوبة، مُنعِشَاً، يُهدهد الأحلام والخيالات. حَلُمَتْ بشراء سرير واسع لها ولجلال، وسريرَيْن لسامي ورامي، وحَلُمَتْ بنقود كثيرة، تُمكِّنهم من شراء بيت خاصّ بهم حتّى لو كان صغيراً مثل بيت أمّ جواد، خلاصاً من تعب الإيجار، والانتقال كلّ مرَّة من بيت إلى آخر، ومن جيران إلى جيران، ومن مدينة إلى أخرى. وحَلُمَتْ بشارع نظيف، وأشجار مزهرة، وأمان، ونهارات لا تُسمَع فيها أصوات انفجارات أو عويل نساء. أجفانها تروي تعب اليوم من حركتها التي لا تنقطع منذ السادسة صباحاً حين تفيق مع جلال، لتُجهِّز له الفطور، وحتّى تحميم الوَلَدَيْن، وتجهيزهما للنوم.

***

مرّ جلال، مُتوجِّساً، جنب الفراش صاعداً إلى الأعلى عبر الدرج، وألفى نور أسلمتْ روحها إلى عالم النوم، احتضنتْ رامي وهو الأصغر، ووضعتْ وجهها قرب وجهه، وأغفتْ. شاهد فخذَها الأبيض المثير بارزاً من ثوبها المشجّر، لكنه لم يستوقِفْه سوى هُنَيْهَة، ثمّ عاود صعوده إلى غرفته، وقاده الدرج عبر التفافَتَيْن إلى الطابق العلوي من المشتمل.

كان جلال، في مثل هذه الأوقات، بعد نوم نور وسامي ورامي، يحسّ كما لو أنه يتحوّل إلى شبح، لا علاقة له بما يجري على الأرض، هناك نداء

خفيّ ينطلق إلى عقله من عالم آخر، يقوده إلى كلّ ما هو خيالي، افتراضي، غير قطيعي. بعض اللحظات يبدأ الدوران في الغرف دون هدف، يُحدِّق في أسرته النائمة صانتاً متأمّلاً، عقله يسبح في فراغ مُطلَق. يطلّ من الشّبّاك العلوي، ليُناجي السماء المظلمة، ويرصد بقلق تلك النجوم البعيدة مُفكِّراً بحكاياتها وأساطيرها ووقائعها. وهذا ما هو عليه هذه اللحظة.

في الاستراحة الصغيرة للدرج، تنفتح نافذة طولية، تطلّ على الحديقة المضاءة بالكهرباء، ويؤدّي الدرج إلى غرفَتَيْن إحداهما جعلت منها نور مخزناً للأشياء العتيقة، أو التي لا تُستخدم سوى في الشتاء، بينها مجموعة مختلفة من الحقائب، وأحذية نسائية وكارتونات مُعبّأة بالملابس الشتوية، والغرفة الثانية رُتِّبَتْ، لتكون أشبه بالمكتب لجلال، حيث وضعت فيها طاولة وكرسياً من البلاستيك، اشتراهما جلال من سوق المشتل المسقوف، ويحتلّ الطاولة كومبيوتر محمول من نوع ديل، حصل عليه تقسيطاً من محلّ للأجهزة الإلكترونية يقع عند سوق الميكانيك المقابل للكنيسة، وقامت جميلة بكفالة جلال لدى البائع. وتقبع جنب الجدار مكتبة من الخشب واطئة، اصطفّتْ فيها كُتُبٌ قليلةٌ، تخصّ الكومبيوتر والأدب وتربية الأطفال والتخاطر وروايات مطبوعة منذ عقود، وقد اشترى جلال ذلك كلّه من سوق المتنبّي في بغداد، أو من البسطات المتناثرة في شارع الرشيد، بأسعار رخيصة، لم تُرهقْ جيبه.

كان غالباً ما يجلس في أوقات فراغه، وضجره، على الكرسي قارئاً بكتاب من تلك الكُتُب، يقرأ أحياناً للمتعة، وأحياناً من الضجر، وغالباً لكي يهرب من الروتين اليومي الذي يعيشه، وهو يحلم أن يعيش حياة غير هذه، وكان بعض تلك الكُتُب يقدّم له قليلاً من لذّة ذلك الحلم.

مع الكُتُب المختصّة بالإنسان وقواه الخفية، كان جلال يجد متعة لا

تُوصَف، وكثيراً ما احتمل رحلة الذهاب إلى ساحة الميدان وشارع الرشيد أيّام الجمع، ليُفتّش عنها بين تلال الكُتُب العتيقة المباعة في ظلال أعمدة الشارع الضخمة، هناك حيث تُبهره السحنات المختلفة المُنحنية على العناوين المعروضة في أغرب الأماكن، بين الأرجل، وعلى الأرصفة، وفي واجهات زجاجية لمكتبات عتيقة، أُسِّسَت قبل أن يُولَد على الأغلب، ولكثرة ما شاهد وسمع من الأحداث غير المنطقية في السنوات الأخيرة، زاد فضول جلال لهذا الحقل، وما يقود إليه من مصادفات عجيبة، وقوى خارقة، وقدرات لبعض الأشخاص، لم يمتلكها يوماً.

تحت الشّبّاك العريض، المُطلّ هو الآخر على الشارع والحديقة وسيَّارته البيضاء وشجرة الزيتون وبقايا لعب ابنَيْه سامي ورامي، وضعتْ نور التختَ الخشبي الضَّيِّق الذي ورثتْهُ عن المستأجرين السابقين في بيت (أبو رياض) المقابل لبيت عادل، وكان ذلك السرير صديقه، وحافظ أسراره، والملاذ الأخير له في أثناء التعب واليأس والشعور بالعبث. يلوذ إليه في الليل، وبعد مجيئه من العمل، وفي صباحات العطل حين تكون العائلة نائمة حتّى وقت متأخّر، وبحشيته الجاسئة، ومخدّته المصنوعة من الصوف، وشرشفه الخفيف، كان الخيار الوحيد له لدخول عالم النوم وأحلامه الغريبة.

تأكّد من قفل الباب المُؤدِّي إلى السطح، واستبعد من ذهنه شبح الرصاصة.

وقف في الشّبّاك متأمّلاً الشارع وبيوت الجيران، وألفى الهدوء عميقاً وشاملاً، والحرارة تتقطّر من سَعَف نخلة جارهم الذي على اليمين، أمّا نخلة بيت جميلة، إلى اليسار، فيُضيئها (بروجكتر) صغير مُوجَّه من منتصفها نحو الأعلى، يكشف لعينَي جلال عُذُوقَها المتدلّية إلى الأسفل، وقد أكسب النور المائل إلى الصفار ثمار النخلة هيئة زُمُرُّدِيَّة، تشبه الخيال. جميلة

نائمة بالتأكيد، فبيتهم تلفُّه السكينة، يوم عملها انتهى منذ المساء، جلبتْ بضاعتها الجديدة من سوق الشورجة، وتبادلت الشائعات والتّقوّلات مع زبوناتها، وهيّأت جسدها لزوجها مثل نساء شارع الدير كلّهنّ.

جلال، من بين قاطني الشارع جميعهنّ، وحده يظلّ ساهراً في غرفته العلوية يتقرّى العلامات.

جارهم إلى اليمين، أبو هند، رجل مُريب، لم ينسج أيّ خيوط مع جلال، حتّى زوجته لا تختلط بالجيران، قيل، حسب رواية جميلة، إنه يشتغل في مُنظّمة غير حكومية، تهتمّ بنَزْع الألغام، ألغام الحرب العراقية الإيرانية، وألغام وقنابل الحروب اللاحقة التي لم تنفجر، وهو يمتلك سيَّارة من نوع تويوتا كورونا جديدة، ودائماً يمضي إلى عمله لابساً ربطة عنق وطقماً أنيقاً، زوجته نادراً ما ترى، حتّى إنها لا تشطف أمام الباب، ولا تتسوّق من سوبرماركت الكَرَّادَة أو الكوخ، ولا يخرج أطفاله إلى الشارع لِلَّعب، كما يفعل معظم أطفال شارع الدير.

ألفى بيت الجار معتماً.

والهدوء يُخيِّم على حديقته، ونخلته تعيش ظلاماً كثيفاً في جرئها الأعلى خاصّة. العصافير النائمة في النخلة وشجرة الزيتون وشجرة التوت تكتم وصوصات ضئيلة واصطفاق أجنحة، تتزاحم على غصون باردة ووشوشات ورق يتدافع برقّة في هواء خفيف. العصافير تنام، العيون تنام، ديدان الشارع تنام تحت الورق، وتسري الحياة بين ثنايا العشب في حديقتهم المستطيلة، ورغم ذلك كلّه، أنصتَ جلال، من خلال تخاريم الهدوء في نور القمر، والضوء الكاشف لأطراف الآس في حديقته، وحركة الطيور النائمة بين سَعَف النخيل، إلى نغمات لأناشيد ودفوف خافتة، يرافقها صوت منشد،

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

لا يستطيع من تلك المسافة فَهْم كلماته. صوت ناعم، ومُنغّم، خلف الجدران، خمّن أن يكون جارهم هو المستمع، الصوت لا يشي بالطرب، سمع مثله لدى باعة التسجيلات الدينية المحرّضة، أو هكذا أوحتْ له تلك الأناشيد. سمع ذلك ذات يوم لدى تسجيلات في مُدُن صغيرة، وأزقّة، وفي سيَّارات مارقة لمراهقين مُلتحين، ينظرون إلى المواطنين بِتَحَدٍّ. وفكّر جلال أن جارهم غير مريح، وقد تكون تلك المُنظّمة غير الحكومية ستاراً لعمل آخر، وهو أمر شائع في البلد، شركات وَهْمية، مستشفيات لتجارة الأعضاء البشرية، تنظيمات سياسية، جرائد صفراء، بيوت فخمة هي رئة لسجون ومعتقلات، تاكسيات للاختطاف، سيَّارات ذات أحجام متباينة للتفخيخ والتفجير، وخطرت في ذهنه فكرة، عَدَّها ضرباً من الأساطير والخرافات، لكنه وقف عندها، واهتمّ بها، وهي أن تلك الرصاصة قد تكون أُرسلت من قِبَل جاره الغامض، المُسمَّى (أبو هند)، وليس من قِبَل جندي التفتيش أو حَرَس الدائرة التي يعمل فيها. لكنْ، لماذا؟ هو لا يمتلك أيّ علاقة معه، لا يعرفه، وحتّى يتجنّب تحيّته إذا ما التقاه، وكان من الجيران الطارئين على الشارع، انتقل بعد مجيئه بستّة أشهر، ولقاؤه به، وطَوالَ سنة من إقامته في هذا البيت، ظلّ نادراً، ويُعدّ على أصابع اليد الواحدة.

إذا كان هو مَنْ دسّ الرصاصة في سيَّارته، فلا بدّ أن يكون قد تسلّل من السياج الفاصل بين بيتَيْهما في الليل، ووضع المُغلَّف مع الرصاصة، أحياناً يترك السَّيَّارة مفتوحة الزجاج حين يعود مستعجلاً أو مُرهَقاً، لكنْ، كيف لم ينتبه إلى وجود المُغلَّف في أثناء مضيه نحو العمل؟ سيناريو غير محبوك، يشبه المسلسلات التركية والأفلام العربية التي تتابعها نور.

***

من الجيران مَنْ يستحقّ أن يشاركه سرّه؟ لا يمكنه كَتْم الأمر حتّى النهاية،

عليه أن يتبادل الأفكار مع شخص ما، قد يفيده بفكرة، يجترح له مخرجاً مريحاً، واستعرض الأسماء، فوقع خياره على عادل، رغم أنه سِكّير، وأسير سابق في الحرب العراقية الإيرانية، ويجلس عادة على مصطبته الصغيرة أمام البيت، وأبخرة العَرَق تتصاعد من رأسه، إلا أنه يعرف خبايا الشارع جيِّداً. يراه في جلسته صباحاً ومساء، ليلاً وفجراً، وكأنه حارس متطوّع لأسرار الشارع، سيتبادل معه الحديث حول الرصاصة في الأيّام القادمة، وحين تواتيه الفرصة. لن يستفسر عن أمر الرصاصة من الحلّاق سعد، هو من جيل آخر، ولا من جميلة أو نهاد السائق. مع سعد، لا يأمن من نشر الخبر بين أصدقائه ومعارفه، ومنذ سنوات، لم يعد أحد يصرّح عن دينه ومذهبه، ولم يعد أحد يبوح بالمكان الذي يعمل فيه، ولا بالدخل الذي يتقاضاه من الوظيفة أو العمل، بل والبعض يخفي ثراءه بأساليب جديدة، لأن كلّ واحدة من تلك الحقائق، يمكن أن تجلب المشاكل لصاحبها. هذه البديهيات يدركها جلال مَلَك جيِّداً. لا يمتلك شيئاً يخفيه، رغم ذلك، فهو خائف، لا من الرسالة فقط، بل من كلّ خطوة يخطوها في حياته، فكرة البرّاقة التي تعيش في جدرانها، تستهويه دائماً، بعض الأحيان، يشعر بلزوجة المخاط، وهو يُغلّف جسده، ويشعر بلوامسه تلتقط المخاطر في التضاريس حوله.

***

من مستنقع الخوف ذاك، وتساؤلاته غير المُفضية إلى إجابات واضحة، لا يملك جلال سوى طريقَيْن للهروب، في غرفته المفتوحة على الليل، ليل شارع الدير: كُتُبه الضئيلة وعالم الإنترنيت، الطريقَيْن الوحيدَيْن اللذَيْن يشعر فيهما بحُرِّيَّة مطلقة. الباب مُغلَق، التخت ساخن، الليل يُوغِل في نجومه البعيدة، هو وروحه فقط، اختفى جمال مَلَك وجلال مَلَك وحديقة البلدة من رأسه، اختفت الدائرة ومخطّطاتها الفنِّيَّة، وكُتُب الباراسايكولوجي

تُحدِّق إليه ببرود. اختفت الدَّوْرَة من مجال رؤيته. اختفت بغداد. وكان يقرأ تعليقات أصدقائه بنهم، ويضع لايك إعجاب على بعضها أو يتمنّى لو يمتلك جرأة التعليق على بعضها الآخر، ونادراً ما كتب ما يجول حقيقة في رأسه، لكي يطّلع أصدقاؤه على هواجسه وأفكاره.

يحسّ أغلب الأحيان بالحماس لإرسال شيء ما، فيفتح عمود الكتابة، ويعتصر عقله في سَرْد أفكار أو آراء أو تعليقات عمّا يجري في البلد أو العالم. يعيش الجميع في بركان ثائر حتّى أنهم ما عادوا يعرفون الطريق الصحيح، والظلام مُطبِق على الآفاق كلّها، وكأن أيّامهم تغذّ الخُطى نحو قيامة مؤكّدة. بعد الانتهاء من الكتابة، بعد أن يفضي بكلماته المرتبكة وهواجسه وتساؤلاته المتلازمة يضغط على زرّ المحو بدلاً من زرّ النشر. نعم، عبّر عمّا يجول في خاطره، لكنه لا يجرؤ على تقديم الطبق للأصدقاء والمعارف. الطبق الذي يعدّه مثل السلطة، خليط من الجنس، والتجديف، والاستهانة بعقائد القطيع وطقوسهم، والرحيل نحو العوالم التي لا يمكن الوصول إليها سوى بالخيال.

هذه الطبيعة التي لم يستطع التّخلّص منها حوّلتْهُ شيئاً فشيئاً إلى بصّاص، إلى عين تُحدِّق من ثقب الباب إلى ما يقوم به الآخرون. وصل إلى هذه القناعة، وأصبح حتّى التعليق على ما ينشره الأصدقاء مُرهِقاً، وراح يتأنّى كثيراً حتّى في وضع الإعجاب، هذه الحركة بسيطة، أجل، إلا أنها تَقرع الجرس للحاضرين على أنه هناك، في اللوحة الزرقاء، لقد اتّخذ موقفاً، حسم رأياً، كشف ما يجول في أعماقه، أصبح صفحة مكشوفة للقراءة.

كتب في صفحته بتردّد: تلقّيتُ رسالة تهديد على شكل رصاصة كلاشينكوف، ثمّ تأمّل في الجملة دقائق، ولم يلبث أن محاها. في بعض الأحيان، تكون الحقيقة مُهلِكَة، ومن الضروري مواراتها في الداخل، دفنها

في الأنفاق الجوّانية للعقل، فقول الحقيقة يُقابَل عادة بردّة فعل، لا يهمّ إن كانت صادقة أم مُستفِزّة، وتفاعلات من هذا النوع يُخشَى الخوض فيها. تخرج الأفكار من الرأس، ما إن تصبّ في كلمات وجمل، تتجسّد في حيّز ثان، وتترك خلفها مشاعر مريحة. إن بقاءها في الداخل يوصلها إلى درجة الغليان، مثل قِدْر يحرق اليدَ التي تلامسه.

وفي هدوء ليل يسري إلى المجهول، راح جلال ينزلق إلى تلك المنطقة الشبحية الغامضة، بعيداً عن الرصاصة وهواجسها، وهي لحظات تتلبّسه، إذا ما توحّد مع نفسه، ليجد نفسه في فردوسه الافتراضي. الفردوس الآخر لجلال مَلَك، الفردوس الذي يشعر فيه بحُرِّيَّة مطلقة، لا يراقبه فيه أحد، ولا يعترض على نزواته أحد، هو حقل (الأفلام الثقافية) كما يُسمّيها أصدقاؤه في العمل، أفلام الخلاعة التي تمرَّس بالضياع فيها، والتّأمّل في خباياها، وأكثر من مرَّة، فاجأتْهُ نور في واحدة من تلك الزوايا المريبة والضّاجّة بالأعضاء، والشهوات، والرغائب، مهما تعدّدت وتفرّدت، يرتبك قليلاً، تلاحظ ارتباكه، تغضّ النظر، ويستعجل الخروج من نافذة البورنو، يدرك تماماً أنها لاحظت وَلَعَهُ بذلك الفردوس السّرّي، لكنها، وكعادتها، تتصنّع عدم المعرفة بما يجري.

نساء شارع الدير كلّهنّ من هذه الطينة، يغضضنَ النظر عمّا يفعله أزواجهنّ، لكنهنّ يبحنَ بهواجسهنّ في نوفوتيه جميلة، حين يجتمعنَ هناك كلّ يوم، وعدّ الأمر نوعاً من التواطؤ فيما بينهما، هو ونور، ولكي يحظر عليها مداهمات من ذلك النوع، بدأ يُغلق على نفسه الباب كلّما رغب في السفر إلى ذلك الفردوس. يسحره التّنوّع، تنوّع الأجساد والرغبات، تسحره التفاصيل التي لا يراها المتضاجعون، وهم ينغمرون في فعلهم، وتسحره التجسيدات المتقَنة للخيالات الشَّاذَّة، والمريضة، والمبتكرة كلّها للكائنات البشرية.

هل من المعقول أن يكون هناك ملايين من النساء والرجال يمارسون هذا العمل جهاراً، وأمام الشاشات، وتحت بصر مليارات البشر على الأرض، دون أن يحسّوا بالذنب أو الخجل أو المهانة؟ هل من المعقول وجود هذا الكَمّ الهائل من الداعرات والداعرين في عالمنا؟ هذا أيضاً من بركات الأميركيّيْن، فكّر جلال. قبل وصولهم، كان أكثر ما يحلم به مُحبّو هذا النوع من (الثقافة) هو شريط فيديو، يُباع سرّاً لدى بعض محلات التسجيلات على أطراف ساحة الأمّة وسط بغداد.

***

يغلق حقل الأفلام الثقافية الذي صار مُملاً لكثرة ما جال في زواياه، ودروبه المتشابكة، ويعود إلى حقل الفيسبوك. ودّ أن يُعبّر عن خوفه هناك، يُبلور صورة عمّا يمرّ به، فكتب أنه يعيش في بغداد، وتحديداً في منطقة الدَّوْرَة، مستأجراً لمشتمل من طابقَيْن، تملكه السَّيِّدة جميلة، بعد أن وضع أحدهم رصاصة كلاشينكوف في رسالة موجّهة له، بدأ يسبح في نهر من الرعب، يتخيّل موته بأبشع الطُّرُق، اختطاف مباغت من محلّ العمل، وتصفيته في بقعة نائية في أطراف بغداد، كاتم صوت يُفاجِئه وهو يعبر جسر الطابقَيْن، إمّا ذاهباً إلى عمله أو راجعاً منه، فتتّجه رصاصاته إلى رأسه من قَتَلَة محترفين لا يُخطِئون الهدف.

كتب أنه يتخيّل دمه يتناثر على زجاج الشّبّاك والمقعد ومقود السَّيَّارة، وهو مشهد رآه يحدث في السنوات الأخيرة عشرات المرَّات، سواء في الفضائيات أو في الصحف أو عياناً، كما حدث مرَّة أمامه في شارع المشجّر المتفرّع من ساحة النصر قرب تمثال عبد المحسن السعدون، رئيس وزراء العراق في عهد الاحتلال الإنكليزي.

ثمّ يتخيّل مطاردة وَهْمية، تتعقّبه فيها سيَّارة مُظلّلة الزجاج، ما إن يخرج

من أطراف بغداد نحو البلدة، وبلحظة خلو نادرة للشارع من السَّيَّارات، تنقضّ عليه بأصناف الأسلحة كلّها، تجعل من جسده منخلاً لتنظيف الهواء، وقد يموت بقنبلة لاصقة، تُوضَع تحت مقعده، لتنفجر خلال الرحلة، أو يتمّ قَتْله بالهجوم على بيته، لكي يُنحر هو ونور وسامي ورامي، ليلاً، دون أن يُنجده أحد من الجيران.

هناك طُرُقٌ أخرى كثيرة مُتَّبعة هذه الأيّام لتصفية البشر، لذلك كلّه، اتّجهت روحه إلى غابة الرعب، هو البرّاقة، وبدأ يتعثّر في خطواته البطيئة وسط هذه الحياة، وثمّة لذّة في رثائه لنفسه، ولذّة فائقة حين يعرض عريه أمام أصدقائه الساهرين مثله على شاشة الكومبيوتر، وفيما كانت الساعة تتوغّل بعقاربها نحو بحيرة الصباح، وقريباً سيرفع الجامع أذان الفجر بذلك الصوت الشجي، لبث جلال صانتاً، يُحدِّق في الشاشة بتعب.

كالعادة، راجع قراءة البوست مرَّة ثانية، كما لو يريده أن يكون جاهزاً حقَّاً للنشر، كلّ جملة في محلّها، لا أخطاء إملائية ولا مطبعية، أمّا القواعد، فلا تعنيه كثيراً، ثمّ بحث بعينَيْه وأصابعه عن زرّ الإلغاء، ديليت، ومسح مخاوفه كلّها من الشاشة. مسحها في الواقع الافتراضي، إلا أنها لبثت في داخله، مثل رصاصة عملاقة، تحتلّ كامل الجسد.

يعرف أنه يستحيل عليه حذف مخاوفه ورعبه من الواقع، قرّر أن ينام في الأسفل الليلة، يحتضن نور، ويُسلّم رأسه إلى النوم، وهكذا فعل في اللحظة ذاتها التي بدأ فيها الأذان يسري إلى سطوح شارع الدير وأشجاره السامقة، والشيء الذي لم ينتبه له جلال في ما لحق من نهارات، هو هيمنة الموت على أفكاره كلّ لحظة، وكأن تلك الرسالة حفرت أوّل كوّة في النفق المظلم الذي أُجبر على الدخول فيه.

***

كَتْمُ السّرّ لا يمكن حمله إلى الأبد، فنحن بشر في نهاية المطاف، وهذا ما مضى إليه جلال مَلَك بعد أكثر من أسبوعَيْن ثقيلَيْن، عاشهما في نهاية حزيران. لقد وجد في ليلة الانفجار فرصة للحديث عن هواجسه، فثمّة حاجة مُلحّة لشخص، يتبادل معه الأفكار حول ما استجدّ في حياته، وهذا ما وفّره له انفجار جامع النور.

في تلك الليلة الكريهة، وبينما كانت أجنحة الموت تُرفرف على البيوت، لم يمدّه عادل بأيّة نصيحة أو رأي، يزيح عن كاهله تلك الهواجس والتساؤلات حول التهديد، لذلك شعر فعلاً بإحباط شديد، بخيبة الوحيد المحاط بأسوار من الغموض، وكأن هذا العالم يتحالف فيما بينه، للنيل منه، ودفعه إلى الهاوية.

لم يفطن جلال إلى أن البوح لشخص آخر بسرّ من الأسرار سيفتح منفذاً لشيوعه، خاصّة في بيئة، تتعطّش للوصول إلى الأسرار، وتجد معنى ما لوجودها حين تتداول الإشاعات والقصص والحكايات حتّى لو كانت بعيدة البُعْد كلّه عن اهتماماتها، وكثيراً ما كان جلال يفكّر، حين يكون في غرفته ليلاً على وجه الخصوص، بأن بعض الأماكن التي يعرفها في المنطقة، مثل نوفوتيه جميلة، ومقهى الجماهير، وصالون حلاقة سعد، ومخبز الصَّمُّون، وصيدلية نورة، يرتكز وجودها واستمرارها على تصيُّد الحكايا، وترصد الأسرار، وتداول الأخبار، أي متعة الكلام، وقد غلبت كلّ متعة سواها.

***

قيل، كما انتشرت الحكاية لاحقاً، وسمعها جلال من أشخاص عديدين، من بينهم عادل، إنه في ليلة هادئة من ليالي شارع الدير، تسلّل شخصان عبر الظلام. نزلا من سيَّارة أجرة، وهما يحملان كيسَيْن كبيرَيْن، واتّجها

إلى الشارع الفرعي المُؤدِّي إلى جامع النور، الواقع خلف محلّ الكوخ، وهو محلّ ضخم أشبه بالسوبرماركت، يُعدّ واحداً من معالم شارع الدير كسوبرماركت الكَرَّادَة، ومقهى الجماهير، وحلاقة سعد، وبائع الخضراوات، ونوفوتيه جميلة. الجامع يُجاوِر مدرسة ابن سعد، والشخصان تسلّلا من بين الصّبّات الكونكريتية الموضوعة عرضياً في الشارع أمام باب الجامع، وكان ثمّة حركات شبحية بعيدة لأشخاص، يمرقون في شارع آسيا، وصياح ديك قادم من منطقة المعامرة الرعوية، وبقع مضيئة لقدّاحات غازية، سقطت في الظلام بعد أن توقّفت الكهرباء، وجمرة تبعد مئة متر عن بوّابة الجامع، لجندي يجلس في نقطة حراسة، تلفّها العَتَمَة. وذلك كلّه كان يجري بصمت، في أثناء ما كان القاطنون جميعهم في شارع الدير ينامون ويحلمون، وكانت بغداد بعيدة، تنام خلف بساتين الدَّوْرَة، والدَّوْرَة جزيرة نحتَها نهر دجلة بسكّين مياهه الحادّة. الجمرة تتألّق بين حين وآخر، ثمّ تخمد، تبعاً لأنفاس الجندي الساهر وراء المتراس، حاضناً بندقيّته الكلاشينكوف بضجر، في حمأة حرارة خانقة، وترقّب خطر قادم من بين البيوت.

كلّ شيء في هذا الليل يوحي بالخوف والرعب، بعد أن امتدّت غيمة الكراهية في سماء العاصمة مُظلّلة دُور العبادة، والشوارع، وأفران الخبز، والأسوار العالية المحيطة بمناطق السَّكَن، والدوائر الحكومية، وحتّى الأسواق. منذ سنوات، والليل يجلب الأخبار والجثث، وهذا ما كان عليه شارع الدير الذي لا يمتدّ أكثر من مائة متر، وتنتصب على جانبَيْه بيوت كانت أنيقة وجميلة ذات سنة قبل عهد الحروب.

قيل كما انتشرت الحكاية لاحقاً، إن الرجلَيْن زرعا العبوة الأولى جنب الرصيف، لدى مضيق بين صبَّتَي كونكريت تعترضان، كما أريد منهما، أي سيَّارة مفخّخة تحاول مهاجمة الجامع، سواء في صلاة الجمعة أو في

الأوقات الأخرى، وهذا الامتياز لا يخصّ جامع النور فقط، بل شملت الترتيبات معظم دُور العبادة، بما في ذلك الكنائس.

الدير على سبيل المثال، ومنه تمّتْ تسمية الشارع المجاور له، تحوّل إلى قلعة عسكرية، إذ هناك الأسلاك الشائكة، وسيَّارات الشرطة الزرقاء المتوقّفة، وهمسات الحُرّاس التي تتسرّب إلى الظلام بخفّة، لتتناهى في أذن جلال مَلَك، الساهر دوماً في غرفته الصغيرة.

ليلاً، وبأصابع خبيرة، بتجارب مرَّت عليها سنوات الحروب، بأحقاد متراكمة جيلاً بعد جيل، وتصميم لا يمتلكه سوى المؤمنين جدَّاً بجدوى ما يقومون به، أنجز المُلثّمان دفن العبوة الأولى، ووضعا آجرّة مكسورة فوق المكان للتمويه، تحت عباءات الظلام، وسكون الموت المتغلغل في الشوارع والبيوت وتلال القمامة وأشرطة الكهرباء، وآلاف النجوم تتغامز في الأعلى، وتتفرّج على رسولَي الموت هذَيْن. انتقلا إلى مكان قريب من سوق الكوخ، يمرّ منه المُصلّون حتماً، أنجزا العمل بالطريقة ذاتها، لم يبقَ سوى الاتّصال بالموبايل المربوط مع العبوة، لكي تنفجر، وفي الوقت الذي يختاره الرجلان، وهي لعبة مميتة، شاعت أيضاً بين الأطفال كمسرحية تُثير المتعة، وأصبحت تمثّل في الحدائق، وفي داخل البيوت، حتّى تحوّلت إلى طقس مقيت، يرفضه البشر، لكنهم يمارسونه كلّ يوم. وتلك خبرة تؤدّي غرضها، خبرة تهيّأت للجميع بعد ثماني سنوات في السواتر الترابية، والتّدرّب على تلغيم الجسور والمناطق الحرام وأبراج المراقبة، خبرة سنوات من القتل والقتل المضادّ بين أحياء بغداد، تلك التي أعقبت دخول أوّل دَبَّابَة أميركية إلى ساحات الكرخ المغطّاة بالدخان.

مهنة زراعة العبوات والألغام تراكمت خلال سنوات بعيدة عبر أكاديميات أمنية في العاصمة، ومجاميع مُسلّحة غير خاضعة للدولة،

وأحزاب ممنوعة، لا تتواءم مع دماء السلطة الجديدة، ولم يشعرْ أحد من سَكَنَة شارع الدير، وسَكَنَة المعامرة، وشارع آسيا، وشارع الميكانيك، بالموت الموقوت الذي دُفن تحت الأرض.

لم يشعر النائمون في البيوت المحيطة بأسماء الموتى الذين سيغادرون في اليوم التالي، حيث صمتت النجوم في السماء طويلاً، إلى أن أدركها ضوء الصباح، واستمرّت الحياة في إيقاعها طَوالَ النهار. النساء يأتينَ إلى سوق الخضر، أمام الكوخ، لابسات العبي، وحاملات أكياسهنّ القماشية أو البلاستيكية، لينتقينَ الباذنجان والطماطم واللوبياء والباميا والشجر والعنب والتين والموز والفلفل الأخضر، إضافة إلى البقدونس والكرّاث والرشاد والبربين، موضوعة كلّها على سلّة من خوص النخيل، مغطّاة بقطعة مبلّلة من الجوت الذي يحافظ على طراوة الخضار، حتّى الظهيرة على أقلّ تقدير.

قاطنو شارع الدير لم يشعروا بالموت المدفون عند الرؤوس، وإن شعروا به، فهم لن يبالوا كثيراً بالأمر بعد أن تحوّلوا إلى جثث حَيّة، تعرف أنها ستُدفن قريباً، وهي مسألة وقت لا أكثر. الشمس لم تتوقّف ذلك النهار من تسليط أشعّتها الحارقة على الأرض، وحشرت تلك الحرارة الجميع في بيوتهم محتمين بالغرف المُبرِّدة أو الظلال المنعشة، محاولين ترطيب أجسادهم بمياه الحمّامات الدافئة، أو تناول صحون البطّيخ الأصفر والأحمر بعد إخراجه من الثلاجة، وظلّ جواد، على سبيل المثال، يتلطّى مع عربته تحت أفياء النخيل، وفي الزوايا التي تُظلّلها أشجار الرّمّان والنارنج، وعاد جلال مَلَك من عمله، ليسترخي أمام التلفزيون، بعد تناول الطعام، متابعاً فيلماً عن الفضاء، وجميلة تقف وسط محلّها تبيع وتشتري، وسط حشد من نساء شارع الدير والشوارع المجاورة، وعادل يُحدِّق في كأسه مسافراً

إلى ماضيه البعيد الذي أصبح حديقة هانئة، يسرح بين جنباتها، منتشياً بالخمرة الرخيصة.

عاشت اللامبالاة يوماً كاملاً في هذا الشارع المُهمَل.

رفع مؤذّن الجامع ذو الصوت الشجي أذانه ثلاث مرَّات، ثمّ ألحقها بالرابعة عند المساء، داعياً الناس إلى صلاة المغرب. بعد أقلّ من ساعة من الأذان، خرج عادل مع كأسه إلى الشارع، وجلس على المصطبة، وراح يتأمّل في الأفق، محاولاً الابتعاد عن ذاكرته المؤلمة التي تجرّه دائماً إلى سنوات الأسر، السنوات التي حرمتْهُ من أن يكون إنساناً سوياً، يعيش مثل الآخرين.

كان معتاداً على بدء مشواره أمام التلفزيون. يأخذه الكأس الأوّل إلى سنوات الحرب الأولى، والمنطقة التي أُسر فيها، ثمّ بعد ذلك طريقه في الداخل الإيراني الذي قاده إلى معسكرات إيران كلّها، حيث وُزّع الأسرى العراقيون على معسكرات أراك، وبروجند، والحشمتية وبرندك، ومعسكر تختي ودزبان. ثقلهم تركّز عموماً في منطقَتَي طهران ومشهد. لم يعد يستطيع التّخلّص من تلك الذكريات التي سلخت أكثر من عشر سنوات من حياته، وما إن عاد من الأسر حتّى تزوّج وسَكَنَ في بغداد الجديدة، وأنجبتْ له زوجته الأولى ابنه طه، وتوفّيت بعد خمس سنوات من ذلك التاريخ بسرطان القولون. تتوالى الذكريات مع توالي كؤوس العَرَق، إلى أن يقرّر قَطْع هذا السيل من الماضي، والخروج إلى الشارع رغم حرارة الجوّ، يضع ما يحتويه الكأس في فنجان شاي كبير، ويخرج، كما هو الآن، ليحتلّ المصطبة ذاتها، القابعة تحت ظلال شجرة النخيل.

عادل مثل غيره من سَكَنَة الشارع لم يخطر على ذهنه وجود كائن

خرافي مدفون أمام الجامع، كائن يمتلك طاقة هائلة لتفجير الحزن واليأس والعداوات والأقاويل وأجساد البشر، وقد رأى من جلسته على المصطبة جلال مَلَك من بعيد وهو يقف في بابهم يُحدِّق إلى العُذُوق الصفراء في نخلة جميلة. هو أيضاً رجل غامض، لم يستطع الوصول إلى حقيقته كما فكّر، ويعرف فقط أنه يشتغل موظّفاً في دائرة حكومية، تهتمّ بالاتّصالات، وعادةً ما يتبادل معه الحديث في شؤون عامّة، يعرفها الجميع. تأتي صورة جلال، الغامض كما يصفه مع نفسه، محاطة بأسرته الصغيرة، زوجته نور وابناه سامي ورامي.

يُحدِّق في النخلة بضجر، يرتشف السائل الحارق من كأسه، ليعقبه بمصّة كثيفة من سيجارته الفايس روي.

رأى جواد في الطرف المقابل يمضي بعربته إلى سوق الكَرَّادَة، لجلب بضاعة لامرأة أو التّخلّص من قمامة، صوت عربته يصل إلى أذنَيْه، ورآه يمسح العَرَق من وجهه السمين، وصوت سيَّارات إسعاف ضعيف ومألوف في كلّ ليلة. الجارة في البيت المقابل تشطف حديقتهم بالماء، وكان الماء يسيل إلى الشارع من تحت الباب، وتتساقط بين الحين والآخر تمرات من عُذُوق النخيل بصوت أجشّ، ويتحرّك طير بين الكرب، ليُخلخل خيوط المساء وهي تتدلّى في الزوايا السوداء والمناطق المعتمة. لا أطفال في الشارع.

ثمّة إيقاع ليلي مألوف لشارع الدير.

إيقاع ليلي بطيء، ولكنه مثل كلّ ليلة لا يوحي بالطمأنينة، فثمّة دائماً ما هو غير متوقَّع، وما هو خارج عن المألوف.

جميلة بعباءتها السوداء تغادر البيت، وتمضي إلى المحلّ. رآها تتكلّم دقائق مع جلال الواقف في الباب، وهما يشيران إلى النخيل وأشرطة

الكهرباء المتشابكة، وهي تربط البيوت بمُولِّد الكهرباء في المنطقة. سعد الحلاّق أغلق محلّه، ومضى إلى بيته، وتراكم الزبائن في سوق الكَرَّادَة المقابل للمقهى، واكتظّ المقهى بلاعبي الدومينو والورق والطاولي ومُشاهدي التلفزيون المُعلّق على الجدار المواجه للشارع، وأغلبهم من الشيوخ والعاطلين الباحثين عن تسلية، تقتل وقتهم الطويل والثقيل والساخن.

ذلك كلّه شكّل خلفية سينمائية للحظة الانفجار، خلفية من الأصوات والروائح وضوضاء الطيور في أغصان شجر الشارع ونخيله. غيمة الموت السّامّة لم تتوقّف، ولم تنتظر.

***

بعد أقلّ من نصف ساعة على أذان العشاء في جامع النور، وفي أثناء ما كان المُصلّون يخرجون إلى الشارع حدث الانفجار. دويّ وصل صداه حتّى تخوم بحيرة الجادرية والجسر المُعلّق والمنطقة الخضراء المحاطة بالصّبّات الكونكريتية، وأزقّة الشورجة التي زارتها جميلة في اليوم ذاته. ولم تمضِ سوى بضع دقائق من ذلك، حدث الانفجار الثاني الذي لا يبعد سوى أمتار عن سوق الكوخ. قد يكون عادل أوّل شخص يسمع هذا الدّويّ المهول، فهو الأقرب إلى المكان، لا يفصله عنه سوى مائة متر، إذا قيست المسافة باستقامة.

سمعه جيِّداً، وذكّره بسنوات الحرب، تمزُّق حادّ للهواء، موجة تسونامي غير مَرئية تطيح بالمُخَلْخَل من الأشياء، تمرُّد الأجساد على وجودها الأرضي، وهي لحظة تعصف بالحَجَر والشَّجَر، تنسف هدوء العصافير والحمام والغربان، فتجعلها تفرّ من وكناتها، وتهرب إلى الفضاء الدامس. وكانت هناك مويجات خافتة لذلك الانفجار، تترسّب عادة في الآذان بعد

هُنَيْهَات، وترجيعات لأصداء نائية، تُضخّمها الضفاف المعشبة وحافّات الجروف الطينية، وكانت هناك طلقات مكتومة، ترسلها الشرطة للتحذير أو لمطاردة قَتَلَة غير مؤكّدين.

رغم تشابه الانفجارات في السنين الأخيرة، إلا أن هذا التشابه خادع ومراوغ، فليس هناك انفجار يشبه أخاه، إذا ما دخل المرء في التفاصيل، وهي حقيقة يعرفها لا عادل وجلال مَلَك وجميلة وجواد وسواهم من سَكَنَة الشارع، بل الجميع، خاصّة من الأشخاص القريبين، والمُكتوِين به، والمتضرّرين من عصفه وهوله. انفجار الكَرَّادَة يختلف عن انفجار علاوي الحلّة، وهذان يختلفان عن الانفجارات التي حدثت في مدينة الثورة والأعظمية والمسبح والدَّوْرَة والعامرية، فضلاً عن الانفجارات في المُدُن البعيدة التي تتواتر أخبارها في التلفزيون والصحف والإشاعات. في ظلّ هذه السنوات الغريبة، ما عاد أحد يتساءل كثيراً عمّنْ يقف وراء هذه الأفعال، مثلاً الإشاعات حول الرجلَيْن المُلثّمين اللَّذَيْن زرعا العبوَتَيْن لم تلتفت بقُوَّة إلى مَنْ يقف وراءهما، فالقناعة أصبحت ثابتة، وهي أن الجميع يمكن أن يُقدِم على القتل، بعد أن تجاوزت الذرائع والمبرّرات كلّ منطق شعبي عاقل، ويفهمون فقط أن الانفجار يعني: زوج يُقتَل، ابن يرحل ممزَّق الجسد عن البيت، شيخ يتفتَّت إلى أشلاء. هواجس تغصّ برعب المفاجأة، وتوقُّعات بفراق قريب، كان في دائرة الانفجار. هذا هو العراق، وهي الجملة التي كانت تتردّد على الألسن أكثر من غيرها، في العشر سنوات الأخيرة.

لكنْ، من الأكيد أنه مهما تباينت الانفجارات وأهدافها، فهي، في النهاية، تُخلخل جريان الحياة، وتعصف برتابة الكائنات، العاقلة وغير العاقلة. فجميلة أغلقت محلّها بعد أن ردّد شخص قادم من المقهى

بصوت عالٍ أن هناك انفجارات أخرى ستعمّ الدَّوْرَة هذه الليلة، والجميع شاهد عبر الظلام غبرة في السماء، تتلاصف أوراقها وشظاياها بنور النجوم البعيد وأضواء المصابيح الخافتة. فزّ جلال مَلَك من غفوة سريعة، في أثناء ما كان يتمدّد في المطبخ تحت تيّار هواء بارد أمام برنامج عن الفضاء الخارجي وأسراره، يُبَثّ على قناة ناشيونال جيوغرافي العربية، وابناه سامي ورامي جالسان على الكومبيوتر يتابعان حلقة جديدة من مسلسل للأطفال، حيث تتحوّل المعكرونة إلى شخصية ضاحكة، والفيل يطير في الفضاء، والروبوتات تختلق المقالب لكائنات صغيرة، تتولّد من الغيوم.

***

بعد الانفجار الثاني بلحظات، استولت على جلال غيمة من الذهول، لقد دخل الموت إلى الشارع، بأذرعه الحديدية ونفثه السّامّ وعبواته المُعبّأة بالحقد، الموت يقترب مثل وحش خرافي، الموت يحاصره، كما فكّر، دون كلل أو ملل، ليس الليلة فقط، بل منذ عشرات السنين. في بيت جلال صمت سامي ورامي ونور، صمت التلفزيون، صمتت العناكب في الحديقة، ولاذت تحت تفرُّعات الثِّيل، وظلّت مُبرِّد الهواء وحدها تدور في المطبخ، وعلى بُعْد عشرات الأمتار، ومن بين غيومه الكحولية، كان عادل يتساءل بغضب: أما آن لهذه المدينة أن ترتاح؟ أما آن لكم أن تثوبوا إلى رشدكم؟ ألم تُدخِل الحروبُ الملَلَ إلى نفوسكم؟ سكب بعدها كأس العَرَق على ثيّل الحديقة، ووضع الفنجان على الأرض، وركض نحو الجامع بفرق، برعب، بخوف، بفضول، بنخوة رجل جرّب الموت ولم يعد يخاف منه.

وذكّرتْهُ ساحة الانفجار بما عاشه في فترة الحرب مع إيران، تلك المشاهد كانت تجري في العراء، أمّا هذه، فبين البيوت، وقريباً من أشجار النارنج والنخيل، وسط عويل الأفواه الفاغرة والعيون المرعوبة. وكانت هناك

زعقات غير بشرية ونهنهات تطير مثل غربان سود، وكانت هناك استغاثات، تمضي إلى الأعلى مُوجَّهة إلى كائن لا يُحسّ.

الحرب نفذت إلى داخل الحدود، الحرب نفذت إلى البيوت والشوارع ودُور العبادة والأسواق، الحرب نفذت إلى النفوس، من أين نبعت هذه الدماء كلّها التي يراها في المساحة المحصورة بين سوق الكوخ وبوّابة الجامع؟ وهذا الغبار المتصاعد إلى النجوم كيف استطاع العصف إرساله إلى هناك بهذه السرعة؟

أوّل شخص وقعت عليه عيناه هو عامل سوق الكوخ، الشاب العشريني، وقد تمدّد قريباً من سلال التين والعنب وعُذُوق الموز المتناثرة أمام الواجهة، كان مُصاباً بوسطه السفلي، وينزف دماً، ويحاول الحديث طالباً أحداً لإنقاذه من الموت.

أضواء القدّاحات الغازية، الممسوكة من أياد مرتعشة، تتجول بين الرجال الممدّدين أو الجالسين بين الجثث التي فارقت الحياة.

نساء شارع الدير اللواتي كان رجالهنّ غائبين في أثناء الانفجار كلهنّ حضرنَ إلى المكان، بعباءاتهنّ السود، وأنفاسهنّ المتقطّعة، وأصواتهنّ النائحة على أموات منتظرين، أو غائبين، لم يجدنَ لهم أثراً على الإسفلت الحارّ المنفرش أمام الجامع. لا حول ولا قُوَّة إلا بالله العلي العظيم، الله أكبر، حسبي الله ونعم الوكيل، كانت هذه الجمل هي الأكثر تردّداً من الحشد في هذه اللحظة، بنِيَّة صادقة تستجدي العون من سماء بعيدة. وكانت تتردّد أيضاً من الأحياء المنقذين أو من الجرحى، أمّا الأموات والغائبون عن الوعي، فسبحوا في دمائهم في ليلة حارّة صانتة مثل جبّانة.

يتّفق الجميع على أن هذه السنة من أغرب السنوات وأعنفها التي

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

مرَّت على بغداد، إذ تنفجر يومياً عشرات السَّيَّارات المفخّخة والعبوات الناسفة، ولا تستثني منطقة دون سواها، وهو ما أشاع غيمة من الرعب، ظلّلت الجميع، بما في ذلك قاطنو شارع الدير. ولتنوّع الأهداف وغرابتها، انتشر هاجس غير مُصرَّح به بين سكّان العاصمة هو أن الجميع يستهدف الجميع، في حفلة متواصلة، مستمرّة من الذبح والثأر والتّشفّي، ممّا حوّل الموت الطبيعي إلى حالة استثنائية في البيوت والأحياء. لحظة جنون، شبّهها البعض بشخص فَقَدَ عقله، يحمل سكّيناً طويلة، يجتزّ بها أعضاءه واحداً واحداً. كيف اختزن البشر هذا الكَمّ الهائل كلّه من الكراهية بعضهم لبعض؟ وكيف استقام لتلك العجلة العملاقة السير في كلّ منطقة وشارع دون أن تجد مَنْ يضع لها العوائق، من أجل إيقافها؟ أسئلة مثل هذه، وغيرها، تنطلق من الألسن عَبّ كلّ كارثة، لكن الأجوبة سرعان ما تهرب وتفرّ من الجميع.

جاء الأفراد من نقطة الحراسة القريبة ببنادقهم الكلاشينكوف، ووقفوا متأهّبين، فاغري الأفواه، والدهشة تتراقص على وجوههم، وصلت سيَّارتان من قُوَّة الطوارئ نوع همر، وحاولت القُوَّة تطويق المكان، ومنع وصول الفضوليّيْن، لكنها لم تستطع إبعاد مَنْ له ضحية عن مكان الحادث، وكان جواد هناك، أبصره عادل هو وعربته، متى وصل؟ وكيف؟ لا أحد يدري، ونظر عادل إليه نظرة مليئة بالإعجاب والحبّ، وفكر بأن الشهامة تسكن هذا الفتى حتّى أعمق خلية في جسده.

بدأ بعض الرجال يركنون الجرحى في العربة، ثمّ يدفعها جواد خارج الصّبّات الكونكريتية نحو سيَّارات الإسعاف المتوقّفة قريباً من بداية شارع الدير من جهة مدرسة ابن سعد. الأموات، وأنصاف الأجساد، والأعضاء المتناثرة، ظلّت متروكة على الإسفلت، وتركّزت الجهود على الجرحى، الذين كانوا يئنّون، ويبكون، ويحشرجون، وينوحون على حياتهم المارقة.

لم يلتفتْ أحد إلى القصص والحكايات التي يحملها الضحايا، كما لم يلتفت أحد إلى الآمال التي كانت تعتمر النفوس قبل دقائق، فما يحدث تحت النجوم البعيدة هو سيناريو لفيلم رعب، أو مسرحية رُتِّبت مُسبَّقاً بكراسيها وممثّليها وموسيقاها وحواراتها، لتُعرَض بَغْتَة أمام أنظار قاطني شارع الدير المبهوتين إزاء ما يجري على الخشبة.

تسرّب العويل، كالسابق، إلى فوق، ليختلط بغبار النهار، ورائحة الأعضاء المتفسّخة وهي تتصاعد من ضفاف الأنهر، والأراضي السبخة، والسواقي المتخفّية تحت بساتين النخيل، وكانت هناك رائحة ثقيلة لبارود ولحم محترق، وكانت هناك نتانة لأحشاء ممزّقة، زادت حرارة الليل من ثقلها، وسالت الرائحة الرُّهْمَة ببطء نحو شارع الدير، الشارع الذي كانت أبواب بيوته كلّها مفتوحة، يقف فيها رجال ونساء وأطفال مرعوبين من توارد الأخبار.

***

في تلك اللحظات الثقيلة، المتورّمة، نسي جلال مَلَك مصيبته، الرصاصة التي دُسَّتْ له في سيَّارته البرنس قبل أيّام في أثناء عودته من العمل، وانهمرت الأخبار تترى دون معرفة مصدرها. يقال إن الشَّابَّ مؤيّد عامل سوق الكوخ من بين القتلى، ويقال إن الشيخ طلال مؤذّن الجامع قُتل، يقال إن (أبو علاء) مصلّح الساعات جريح، ونُقل إلى مستشفى العلوية. وزنها طنّ، تقول واحدة من الإشاعات عن حجم العبوة الناسفة التي سبّبت الدمار والقتل، وتقول إشاعة غريبة إن المسبّب صاروخ أطلقه الأميركان من قاعدتهم المتبقّية في المنطقة الخضراء على الجامع لتأجيج الفِتَن المذهبية. هكذا تتوارد الأخبار عبر الشارع، وتتناقلها الألسن مثل همسات أثيرية، كما لو كانت ثمار النارنج في الحدائق، وأجنحة البوم

الليلي، وذبذبات الوطاويط، لها هي الأخرى ألسن تسري بأسماء القتلى والجرحى، ولها أصابع ترسم مشهد الانفجار، وتبذر الشائعات في حدائق البيوت، وزوايا المقاهي، وعند منعطفات الأراضي البور التي تتسكّع فيها الكلاب الضَّالَّة.

حاول عادل بدشداشته المصنوعة من الململ(*) الخفيف المصبوغة بالدم، الصعود مع الجرحى في سيَّارة الإسعاف إلا أنه مُنع من قِبَل عناصر شرطة الطوارئ، فعاد إلى جواد، يساعده في التقاط بقايا الضحايا.

قال له بعد أن تمّ كلّ شيء:

- آن لنا الذهاب الآن، نضع هذه الأشلاء على باب الجامع، ثمّ نمضي، الليل يقترب من منتصفه، ويجب أن نرتاح، غداً عند طلوع الشمس يمكن رؤية المكان بصورة أفضل، وعلينا غسل الدماء.

- أنجزا عملهما، تركا الشارع المحترق المليء بالشظايا، ثمّ توجّها مُنكّسي الهَامَتَيْن، إلى شارع الدير.

- عمّو عادل، فُوجئ عادل بجواد وهو يقول له هامساً، صرتُ أخاف من المنطقة، صارت غير آمنة، اقتربت منها الانفجارات والتهديدات، والخطف صار مثل شرب الماء، وبدأتُ أحسّ بوجود ناس، يقفون وقفات غريبة في رؤوس الأزقّة، كما لو كانوا يراقبون السّكّان. لا أفهم ما يجري لنا.

- صحيح، عمّو جواد، لكنْ، مكتوب علينا العيش هنا، أين نذهب؟ الجميع خائف، ليس وحدكَ فقط. مكتوب علينا مثل لعنة أن نعيش في هذا المكان، وفي هذا الزمان الأغبر. لهذا السبب، دفعتُ ابني طه،

*) نوع مشهور من النسيج الخفيف معروف في العراق

بالمناسبة، هو في عمركَ تقريباً، للهجرة إلى اسطنبول. ربمّا أبيع البيت، وألحق به، القادم أعظم، يا جواد.

- الحمد لله، رأتْني أُمّي قبل أن آتي إلى هنا، وإلا جُنَّت من الرعب، تقول لي دائماً بعد مقتل أبيكَ كاظم ليس لنا من رجل في البيت سواكَ. أُمّي سيقتلها الخوف، لا تريدني أن أتأخّر في الرجوع إلى البيت، أقصى حدّ الساعة التاسعة، مهما كان عملي مربحاً.

ثمّ غرق جواد بلجّة من أفكار وتساؤلات: هل كان الانفجار الذي أودى بحياة أبيه أمام وزارة الخارجية شبيهاً بهذا؟ وهل تمزّق جسده كما الأجساد التي شاهدها، وتجلب الجنون إلى الرأس؟ لم يرَهُ كيف وُضع في التابوت، شاهدهم وهم يرزمونه على سقف سيَّارة، ثمّ يأخذونه إلى مدينة بعيدة. كان أصغر ممّا يستطيع تذكّر ذلك المشهد المُوجِع. لكنه لا يجد صعوبة في استعادته كلّ ليلة قبل النوم. يطير معه في سماء بغداد المدبوغة بالموت. يعتليان بساط الريح، ثمّ يسافران في السماء اللزجة لزوجة الصيف.

***

صمت، وكان ثمّة رعب، عويل، والإيقاع ذاته، ايقاع الحياة المعولة في غنائهم وأعراسهم ومواكبهم الدينية وزياراتهم للقبور، الإيقاع الحزين المعجون في أرواحهم منذ آلاف السنين، صيفاً وشتاء، نهاراً وليلاً. بارود ثقيل الرائحة يتغلغل في بويصلات الشّمّ، أصوات تُهمهم، وتُدمدم، من وراء السياجات المظلمة، والأبواب أغلبها مُغلَقة الآن، فقد عُرفت الأسماء كلّها، ومعظم الضحايا كانوا من منطقة آسيا، ومن سكّان حَيّ المعامرة.

سلم شارع الدير هذه المرّة، لن تُقام فيه العزاءات، ولن تنتصب في فضائه مُكبِّرات الصوت المنطلقة بأصوات المقرئين، وفُوجئ عادل بشخص

جلال مَلَك ينبثق من ظلال الشجر قريباً من المصطبة. لا ملامح تنمّ عن مشاعر ما يريد البوح به، ليس هناك سوى وقفة مقلقة، تكاد ترتدي مرأى تمثال من الصخر.

صحيح أن جلال يشاركه بعض الأيّام الجلوس على المصطبة، رغم أنه لا يتكلّم كثيراً، لكنه ينبغي أن يعترف له بفضيلة، لا تتوافر كثيراً في هذه الأيّام، وهي أنه مستمع جيِّد. يصغي بجوارحه كلّها، ويتغلغل بعينَيْه الهادئَتَيْن بين ثنايا الكلمات.

وقف في عجينة العَتَمَة ناظراً نحوه بحزن، وخلافاً لمعظم رجال الشارع الذين يرتدون الدشاديش البيض في الصيف، جاء جلال يلبس بنطلوناً صيفياً، فوقه تي شيرت داكن، وينتعل صندلاً جِلْدِياً رخيصاً، يداه تنسدلان باستسلام حول جسده النحيف، ووجهه مغمور بتعابير حزن وخوف، يمكن رصدهما حتّى في ضوء الليل الخفيف.

أمّا جلال، فما زال تحت وطأة الصورة، الصورة المرافقة للحظة الذهول تلك، منذ أن هزّ الانفجار أركان المشتمل، لا بدّ أن تلك العبوة مزوّدة بآلاف الطلقات مثل تلك التي دُسَّت في الظرف، كي تتسبّب بعصف مثل ذاك، وراح جلال يتخيّل عدد الطلقات التي زُوّدت بها قنبلة مرعبة مثل التي أسقطت على مدينة هيروشيما اليابانية، وأبادت، كما شاهد ذلك في فيلم وثائقي عن الجريمة، البشر والحديد والصخر والإسفلت والجسور. هل تحتمل مدينة مُتهالِكَة مثل بغداد قنبلة مشابهة لقنبلة هيروشيما؟ الصورة ظلّت متشبّثة بعقله حتّى وهو يقف جنب المصطبة، فيما ظلّ جواد سائراً نحو بيته، مُيمِّماً صوب بناية الآلوسي، المواجهة للدير، وعجلات عربته الحديدية تقرقع بصوت ناشز ومرعب. وجوده بهذه الساعة المتأخّرة في الشارع لم يكن مألوفاً للقاطنين، وجوده له علاقة بالموت الذي ضرب ضربته، ومضى.

ضجيج، وفي منتصف الليل، علامة غير سارّة للنائمين.

لم يكن جلال مَلَك صديقاً لعادل، هو موجود في الشارع، وكفى، يتذكّر عادل الأيّام الأولى لقدوم جلال إلى الشارع وتأجيره لمشتمل جميلة، وكل ما عرفه في البدء أنه وفد إليهم من منطقة المشتل، بأغراض بيتية قليلة، لا تتناسب مع عائلة مُرفّهة، وله زوجة تُدعى نور، وابنان، هما سامي ورامي، وعرف أن إقبال تلتقي بنور، بعض الأحيان، في نوفوتيه جميلة، وأعطت عنها صورة محبّبة وجيِّدة. عرف أنه يذهب صباحاً بسيَّارته البرنس إلى عمله، ثمّ يعود بعد الظهيرة، كلّ يوم تقريباً، ورآه في شارع الميكانيك، يتسوّق اللحم من القصّاب أو حاجات منزلية من سوبرماركت الكَرَّادَة، وتبادل معه المجاملات والأحاديث العابرة، ولمحه عند الحلّاق يقصّ شَعْره، وجلس مرَّة معه في مقهى الجماهير لشرب الشاي، والشيء الذي أفرح عادل وقتها، في هذا الوافد الجديد، هو احتساؤه للخمر، وكل مَنْ يحتسي الخمر يُعدّ، بالنسبة إلى عادل، شخصاً مضمون الجانب، يزيل القيود عن كلامه، وقد شاركه جلال ذات عصر شتائي كأساً من العَرَق، فتح بينهما منافذ روحية عديدة، وماض بعيد، ممّا دفع جلال لمفاجأته بقنّينة من العَرَق هدية صداقة، كما قال له، اشتراها من محلّ النخلة للمشروبات، القريب من الجسر.

- الموت في انفجار تجربة إنسانية رهيبة؟

- الأموات أكثر من خمسة، ولا أعلم كيف عاشوا تلك التجربة، ولا أعرف كم عدد الجرحى، بعد أن خرجوا من باب الجامع، فاجأهم الانفجار، فرّوا إلى الشارع، ففاجأهم الثاني، وهو الذي أوقع المجزرة الحقيقية. العملية مرسومة بدقّة، وهي تتكرّر كلّ يوم، عجلة الموت وفدت مع الأميركان، كانت تدور ببطء قبلهم، ثمّ جنّ جنونها، ما إن وطئوا بأقدامهم تراب الوطن.

جواد اختفى بعربته في عَتَمَة الشارع، متّجهاً إلى بناية الآلوسي المتآكلة، وكانت هناك قدحات من النار عند ساحة الدير الذي شكّل خلفية غريبة لنهاية الشارع، وكان هناك مصباح مشنوق محاط بغيمة راقصة من البرغش، يتحرّك حركة نوّاسة يميناً وشمالاً، بفعل احتكاك غصن شجرة ليمون بالأسلاك، ومرق طائر بوم في فضاء الشارع متّجهاً نحو مقهى الجماهير، دون أن يسمع صوته أيّ كائن، فيما قال جلال مَلَك بصوت، شعر به عادل، وكأنه قادم من بئر مهجورة:

- ما إن سمعتُ الانفجار حتّى لبستُ بنطلوني، وهممتُ بالخروج إلى جامع النور، لكن زوجتي منعتْني قائلة: لن تذهب، لا أحد يمكن التّكهّن بما سوف يحدث، قد يكون هناك هجوم على المسعفين أو انفجار ثالث، وبقيتُ منتظراً في الشارع، أعدّ نجوم السماء، وأتحسّر على مَنْ مات.

- هذه أكبر مجزرة أراها عياناً بعد الحرب مع إيران، قال عادل وهو ينظر إلى دشداشته المصبوغة بالدم، في ذلك العهد، كنّا معتادين على سقوط القذائف الثقيلة على مواضعنا، وقد ألفْنا رحيل أقرب الأصدقاء بانفجارات مثل تلك، تخيّل، منذ ثمانينيات القرن الماضي حتّى اليوم لم ينقطع سيل الدم، أكثر من ثلاثين سنة أكلت الحروب أعمارنا، انظرْ كيف أصبحتُ أنا، أسنان مهدّمة، جسد عليل، حياة فقيرة، لا تستحقّ أن تُعاش.

- ما العمل؟ تساءل جلال وكأنه يُوجِّه السؤال لنفسه، لا إلى عادل، ولاحظه يمُسك بدشداشته الملوّثة بالدم، جامعاً أطرافها فوق ركبَتَيْه، وكأنه يهمّ بالقفز إلى قبر.

- وسط الليل، كان يتحدَّث بصوت مرتفع كعادته، ممّا جذب إليه رؤوس الجيران الفضوليّيْن التي كانت تُطلّ من السطوح، من بين سَعَف النخيل وأشجار التوت والزيتون والنارنج.

- سأتّصل بأخي عمر في إسطنبول، وأطلب منه إرسال نقود لي، كي أرحل من هذا البلد. سأبيع كلّ شيء حتّى هذا البيت، الحياة لم تعد ممكنة هنا.

- ليس هذا فقط، بل زادت الاغتيالات ورسائل التهديد والذبح ليلاً، حدّثني سعد الحلّاق كيف ذبحت عائلة بكاملها على جسر الميكانيك، جرائم لا تُصدَّق، قال جلال وهو يحاول الاقتراب من موضوع الرصاصة الذي يدور في رأسه. التهديدات وصلت لي أنا أيضاً، همس بصوت مرتجف، جعل من تصريحه هذا، كما لو كان شيئاً عارضاً يجري كلّ يوم، استلمتُ رسالة تهديد. وجدتُ رصاصة بندقية كلاشينكوف في مظروف ورقي، مُلقَى داخل السَّيَّارة. متى وُضعَت؟ ومَنْ وضعها؟ لا أعرف. هل سقطت من السماء؟ أم دسّها شخص لي بقصد؟ وما هو ذلك القصد؟ ليس لي علم بذلك. أنا لستُ ثرياً، ولا أنافس أحداً على منصب أو زعامة، أنا، مثل ملايين العراقيّيْن، ظلّ لا أكثر، منذ أيّام وأنا أفكّر بالموضوع دون أن أصل إلى نتيجة مقنعة.

***

وكانت لحظة بوح، ستنعطف فيها حياته من السّرّ إلى العَلَن، وسيتحوّل إلى خارطة مكشوفة، يتأمّلها قاطنو الشارع، أجمع، ليل نهار. يستقطرون منها الإشاعات، يفسّرون الأقوال والحوارات، يُخمّنون ما سيحمله له الغيب، يضعونه، هو ونور وسامي ورامي، على طاولة تشريح عملاقة، تتغلغل فيها العيون حتّى أدقّ التفاصيل: سيَّارته البرنس البيضاء، رَقْم السَّيَّارة، واسم المحافظة، من أين يشتري اللحم، ضوء شباكه المتوهّج حتّى هزيع الليل الأخير، والضوء مريب، هل تضع زوجته نور حجاباً مناسباً حين تخرج إلى الشارع أم لا، ومن أين تتسوّق بضاعتها، كم هو راتبه الشهري، وهل

يزوره ضيوف عادة، يحتسي الخمرة أم يؤدّي فروضه الدينية، اللهجة التي يتكلّم بها الولدان، الأغاني المنبعثة من التلفاز، وهي تتسلّل في هدأة أوّل الصباح، أو آخر الليل، نحو شارع الدير، فمنذ هذه اللحظة، سيتحوّل ذلك كلّه إلى حكاية، تُثير الفضول والتّرقّب والمتابعة.

وليس بعيداً عن أشرطة الكهرباء المعلّقة في جذع النخلة المقابلة، وقفت بومة بغدادية ضئيلة الحجم، رمادية الريش، مدوّرة العينَيْن، بين أغصان النارنج، استوطنت منذ الربيع الفائت في هذا الركن الكَثّ من الشجرة، وقفت تُدير البصر بهذَيْن الشَّبَحَيْن الواقفَيْن، اللَّذَيْن يتبادلان همهمات غير مفهومة، وإيماءات ذات طابع مُتواطِئ مريب. تُدير عينَيْها متوقّعة شرّاً مستطيراً، سيطالها في أوّل ذرذرات فجر الشارع، وارتفاع ذلك الصوت الثاقب من مَكمن قريب على هيئة مئذنة، وقرقعة تلك العربة، وهي تسحق الحصى قادمة من لا مكان ذاهبة إلى لا مكان.

وهنا صمت عادل لدقيقة دون أن يُعلّق، ذهنه مشلول من البوح، حتّى فكّر جلال بالانصراف، ظانّاً أنه لا يريد الولوج عميقاً في الموضوع، كعادة الجميع في هكذا شؤون حسّاسة.

لا أحد يرغب في التّورّط بمشاكل غيره.

- كنْ حذراً، لا تتكلّم عن الرصاصة حتّى لنور. ليس هناك دخان من دون نار. قال عادل، ثمّ عرض على جلال الدخول إلى المنزل لاحتساء كأس آخر الليل، لكنه رفض.

- نور تنتظرني في الباب وهي متوتّرة، خاصّة في مثل هذه الليلة. ومشى جلال متّجهاً إلى البيت، لكنه عاد بعد خطوات إلى الباب، وخاطب عادل بصوت راجف:

- أرجوكَ، لا تُخبر أحداً بالأمر، السّرّ له رائحة، ثمّ استأنف خطواته باتّجاه بيته، وقد غلّفت جسده غيمة غير مَرئية من الحيرة والقلق والتّأمّل، غيمة تندغم بعَتَمَة الشارع، وظلال أشجار النارنج المنتصبة خلف سياجات البيوت.

وقد لمح جلال زوجته نور من بعيد، في ضوء البروجيكتر الصغير المُعلّق في جذع نخلة جميلة، واقفة بقلق، الوقفة ذاتها التي تركها فيها، تنتظر دخوله بهالة، تحمل أقصى درجات التّوتّر والخوف، ولأنه وجد سامي ورامي نائمَيْن بعمق بعد ضجيج الانفجار تحت هواء المُبرِّدة، ولم يعد ثمّة ما يُقال، ضاجع جلالُ مَلَك زوجتَهُ نور بسرعة، كما لو يرغب في الخلاص ممّا عاشه الليلة، ورغم ذلك، لم يستطع النوم، أذرع القلق والتّوتّر تعتصره مثل كلّابات حديدية.

دقائق فقط، وسقطت نور في عالم الحلم والخيال، وسمع شخيرها الخفيف، فنهض من جنبها، ووقّف متأمّلاً، على ضوء المصباح الأصفر، وجهَي وَلَدَيْه النائمَيْن، ووجه زوجته المسترخي.

ثمّة شبه غريب بين تقاسيم سامي ورامي رغم السنوات التي تفصل بينهما. ناما خائفَيْن من صدمة الانفجار والقصص التي أعقبتْهُ، دون شكّ، ماذا سيحلّ بهما، إن مات فجأة، سواء بسيَّارة مفخّخة أو بطلقة غادرة؟ أو طائشة لا فرق؟ يتراجع عن فكرته، ويُقنع نفسه بأن هناك ملايين اليتامى في هذا البلد، وسيكونان رَقْماً آخر في ذلك السّجلّ. لم يعد يمتلك سواهما في هذه الدنيا، سامي الذي أنهى الصّفّ الرابع بتفوّق، لديه عطلة الصيف، ورامي توقّف عن الذهاب إلى الروضة، لا يحبّها قال لأُمّه، فيها أطفال كثيرون ومُزعجون، وهو لا يحبّ اللعب معهم، ورغم أن جلال مَلَك دفع قسطاً بمائة ألف دينار للروضة، واتّفق مع المدير على مجيء

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

الباص لأخذه كلّ صباح، لكنه بعد أسبوع واحد فقط، امتنع عن الذهاب، نور شعرت في سرِّها بالراحة، فأن يصيد السمك الوَهْمي من طشت الماء في الحديقة بسنّارته الصغيرة أفضل مائة مرَّة من اختلاط مع أطفال الروضة، قد يقوده إلى حمأة عبوة ناسفة أو اختطاف من عصابات بيع الأعضاء البشرية. هي لا تأمن عليه من الطريق، ورغم أن الروضة تقع في شارع ستّين القريب من البيت، ولا تبعد كثيراً عن الدير، إلا أن أحداث البلد تتصاعد وتيرتها نحو العنف يوماً بعد آخر.

منذ عقود والآباء فشلوا في توفير حياة كريمة آمنة لأبنائهم. هشاشة الأوضاع تسري في أوصال الحياة مثل كهرباء غير مَرئية.

ما الذي سيحدث لكما في هذا البلد؟ سأل جلال نفسه وهو يُحدِّق بوجهَي سامي ورامي المتشابهَيْن، وتخيّل لو أنهما صدفة، كانا قريبَيْن من سوق الكوخ، لشراء الآيس كريم على سبيل المثال، أو خرجا مع أمّهما للمشي قبل النوم، وقد فعلوا ذلك أكثر من مرَّة، وحدهم أو بصحبته، ثمّ انقطعت سلسلة خيالاته، وشلّه الرعب عن إكمال تصوّر الموقف.

يخاف أحياناً من السيناريوهات التي يرسمها عقله، هي تغوص دائماً في جموح الخيال، واللامعقول.

***

أجل، سَلِمَ قاطنو شارع الدير من الموت هذه المرّة، فكّر عادل في الصباح، لكنْ، مَنْ يضمن سلامتهم في المرّة القادمة؟ أيّ واحد ممّنْ يعرفه في الشارع كان يمكن أن يكون الضحية. جميلة أو جلال أو أولاده الصغار مع إقبال، نهاد سائق التاكسي، حتّى جواد لو صادف وجوده قرب محلّ الكوخ، صحيح أن الجميع شعر بالحزن ممّا جرى، لكنه لا يستطيع تجاهل السعادة

الداخلية التي داعبت قاطني الشارع وهم ينجون من موت، اقترب منهم أكثر ممّا ينبغي، إلا أنه تخطّاهم بصدفة غير مفهومة. هكذا هي الحال مع الجميع. يحزنون عند كلّ انفجار، لكنهم، في الوقت ذاته، تخالطهم سعادة محرَّمة، يُخفونها بخجل، بسبب نجاتهم من الموت.

لم يستطع عادل نسيان خبر التهديد الذي حطّ مثل غيمة سوداء على جلال. هذا أمر جديد على الشارع.

ظلَّ الموت بعيداً نسبياً عن الأشخاص الذين يعرفهم معرفة مباشرة، وراح عادل يتخيّل الرصاصة التي ذكرها جلال، ومن ثمّ، حلّق ذهنه في تلك الأيّام التي وفدَ فيها جلال مَلَك على الشارع أوّل مرَّة. حطّ جاراً لجميلة قبل أكثر من سنة. ومثلما يحدث لكلّ وافد جديد، راحت التّقوّلات والفضول والحكايات ترسم صورة له، لا تخلو من بعض المبالغات، لكنها لم تلبث طويلاً حتّى استقرّت على الحقيقة. مصدر المعلومات دائماً كان زوجته إقبال، نور لا يهمّها من هذه الحياة أكثر من وَلَدَيْها سامي ورامي، تقول، حيث تعدّهما السبب الوحيد لمواصلة العيش.

عادة ما يراه عادل يمشي في السوق بقامة مشدودة، وكأنه لا ينتمي إلى هذا المكان، كأنه يعيش في داخله فقط، شَعْره منفوش أغلب الأحيان، يوحي بأنه مُهمل قليلاً، لا يعير اهتماماً كافياً لمظهره، يلتقط اللحم من اللّحّام أو يتسوّق من محلّ الخضراوات عند الزاوية الباذنجان والفواكه، ثمّ يدخل إلى محلّ الكَرَّادَة، يشتري المعلّبات والآيس كريم، ويعرّج على مخبز الصَّمُّون، ثمّ يكرّ راجعاً إلى البيت، وفي كلّ ظهيرة، كان يعود بسيَّارته البرنس البيضاء الشبيهة بضفدعة عملاقة، كما لو ينبثق من عالم آخر، بوجهه المُغلَق وسماته الكئيبة، وشَعْره غير المُعتنى به، وهكذا أغلب

الأيّام، يراه هكذا، يتبادلان تحيّة مقتضبة قبل أن تتطوّر العلاقة بينهما في الأشهر اللاحقة.

تقول إقبال عن زوجته نور إنها امرأة دمثة الأخلاق، خجولة، كرّست حياتها لزوجها وأطفالها فقط، لا تشتري من جميلة أيّ غرض بالدَّيْن، تدفع حسابها فوراً، ولا تتدخّل كثيراً في الأحاديث التي تدور بين النساء.

وكما أيّ قاطن جديد أثار الفضول في شارع الدير، أيّاماً، وحين مرَّت شهور على سَكَنه في مشتمل جميلة، أصبح جزءاً من حياة الشارع، لكن حكاية الرصاصة الموضوعة في مُغلَّف، أثارت القلق في نَفْس عادل، فَمَنْ يستهدف شخصاً تبدو على هيئته الطّيّبة، وعلى نظراته التصالح مع الجميع؟

وحسب علمه، فهي المرّة الأولى التي يتعرّض فيها واحد من سَكَنَة الشارع إلى تهديد مباشر، كما قال لإقبال وهما جالسان في الصالون في أثناء سهره على كأس عَرَق ثقيل، مُتبرّماً من لياليه الطويلة، وكرّر على مسامعها السؤال أكثر من مرَّة:

لماذا جلال بالذات؟

جميع الحقوق محفوظة ©

تمّوز

تمّوز يموتُ على الأفق
وتغور دماه على الشفق
في الكهف المُعتم والظلماء
نقّالة إسعاف سوداء
وكأن الليل قطيع نساء

بدر شاكر السّيّاب

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

حتّى في يوم صيفي حارّ، حتّى إثر انفجار غير محسوب، يمضي الرجال إلى العمل، وتذهب النساء ضحى إلى السوق، وهذا هو الوقت الملائم، عادة، في ضمير النساء العاطلات للاجتماع في محلّ جميلة، بعد أن يُنجزنَ شَطْفَ الغرف، وممرّات الحدائق، والفسحات أمام البيوت، وغسل الأواني، وتحضيرها لطبخ الغداء، وتجهيز الموادّ الأوّليّة للطبخة كاللحم، والباذنجان، والكرفس، والكرّاث، والبربين، ووضع العيار المناسب من الرّزّ البسمتي أو العنبر، وتأمين الثوم، وجلب الخبز من المخبز الملاصق لسوبرماركت الكوخ. هو وحده يبيع الخبز، أمّا المخبز المجاور لمحلّ الكَرَّادَة، فيبيع الصَّمُّون فقط.

كان الخبر الطازج، المثير للفضول، الواقع مثل صخرة من فضاء بعيد، هو التهديد الذي طال جلال مَلَك. التهديد الذي يعني بالدرجة الرئيسة نور وَوَلَدَيْها سامي ورامي، وهو أكثر ما كان يهمّ النساء المتجمّعات في المحلّ.

محلّ جميلة له قصّة طويلة، تعرفها جيِّداً نساء شارع الدير والمناطق المجاورة. ورثتْهُ عن أختها أمّ حيدر، وأمّ حيدر لم تمتْ، إنما رحلت مع زوجها إلى دمشق، واستقرّا هناك بعد أن وجدا لهما بيتاً مناسباً في ريف العاصمة، وتحديداً في وادي بردى، وجميلة تُرسل لها ثلاثمائة دولار من ربح المحلّ كلّ شهر، حسب الاتّفاق، ويقبض أبو حيدر حوالي أربعمائة دولار كلّ ثلاثة أشهر، بِعَدِّهِ متقاعداً، وتصله المبالغ عن طريق البنك التجاري

نسخة تجريبية © جميع الحقوق محفوظة

العراقي في دمشق، وهما يعيشان عيشة معقولة، تقول جميلة كلّما سُئلت عن وضع أختها وزوجها، هما يسكنان في منطقة، تبعد حوالي عشرين كيلومتراً عن دمشق باتّجاه لبنان، وفي بيت يقع على نهر بردى مباشرة، وسط غابات الحور والسرو والصفصاف، ويمتلكان علاقة جيِّدة مع أهالي المنطقة، وأبو حيدر لا يرغب أبداً في العودة إلى العراق، الأحداث التي عاشها بعد صيف ألفَيْن وثلاثة جعلتْهُ يغسل يَدَيْه تماماً من الوطن، تؤكّد جميلة لجليساتها.

لا تتجاوز مساحة المحلّ العشرين متراً مربّعاً، لكن جميلة استغلّت كلّ مليمتر فيه على أفضل وجه، الأرضية، السقف، الجدران، يجد المرء هناك ملابس نسائية، ماكياجاً، علب صبغ للشَّعْر، طلاء أظافير، عباءات ذات نكهة محافظة، جوارب، وزوالي عتيقة. رصفت في بقعة ضيِّقة من الواجهة أزواجاً من الأحذية الحديثة، وهي عادة ما تُسمّيها سكاربيلات، التسمية التي شاعت في السّتّينيّات وسط جميلات بغداد، بدلاً من أحذية، ويزدحم المحلّ بالنساء عادة في أوّل كلّ شهر، حيث يتوافد زبائن جميلة لإيفاء ديونهنّ، أو لإرجاع قسط من الديون. تختلط فيه البضاعة من تركيا وسورية وإيران والعراق ولبنان، كذلك تختلط فيه النساء من الطبقات والمذاهب والأديان ومستويات التعليم جميعها. فمن امرأة بدوية من المعامرة إلى مُعلِّمة مدرسة، تقطن في شارع ستّين. ومن صبية جامعية مثل نغم ابنة جميلة إلى فتاة، لم تُكمل الابتدائية، وتتحضّر للزواج السريع، تقطن في بناية الآلوسي.

لم تكن أيّ من نساء شارع الدير تقرأ كُتُباً أو تهتمّ بالمسرح والسينما، وليس منهنّ مَنْ تقوم بنشاط سياسي أو اجتماعي، وثمّة تشابه كبير بينهنّ، لا في الملابس فقط، بل حتّى في نمط الحياة التي اخترنَ عيشها. يهوينَ النميمة، وتبادل الأخبار، وترويج الإشاعات، والتّذمّر، ومراقبة جيرانهنّ،

وتحمّل القهر والحزن والقسوة وظروف المعيشة الشّاذّة بصمت، وفوق ذلك نزوات أزواجهنّ. إن أفضل وصف يُطابق وجودهنّ الحياتي هو أنهنّ نساء فقط. انشغالاتهنّ تنحصر بالأطفال وتربيتهم وإطعامهم والحرص الشديد على سلامتهم، ويأتي الطعام على رأس الانشغالات. جلب المسواق، والطبخ، وتهيئة ثلاث وجبات منتظمة. ويتخلّل ذلك كلّه الكَنْس والشَّطْف وترتيب الملابس والفرش، ثمّ لاحقاً الانصراف إلى الملابس والزينة لهنّ ولأزواجهنّ وأولادهنّ.

منذ أن حلّقت الطائرات في أجواء البلد، وتناثرت أشلاء المتحاربين على الجبهات، وانتشرت رائحة البارود، وردّدت المُدُن أصداءَ الانفجارات، وجيّشت الجيوش، وتوالت التوابيت، كي تُوسّع من مساحات المقابر، واحتلّت الملابس المرقّطة للجنود كامل فضاء الشارع، واستغرق هذا المسرح الشاسع أكثر من ربع قرن، بدأت النساء تنزوي في البيوت، وتنحسر تلك الألوان البهيجة عن الأرصفة، لتسود الذكورية على امتداد عقود، عقود مظلمة من الخوف والقلق والترّقّب. عقود اختفت خلالها قصص الحبّ، وجولات الذكور مع الإناث في الحدائق العامّة، ومسامرات الأعراس والمناسبات، وغصّت الغرف المُغلَقة بالنساء من كلّ صنف ولون: موظّفات سابقات، موسيقيات، رسّامات، ناشطات سياسيات، مهندسات، عاملات في المصانع الأهلية، حشد يُشكّل نصف المجتمع، وأكثر، حشرتْهُ سنوات الحروب المتوالية، وغير المفهومة، بين أربعة جدران، ليقضي أيّامه الكئيبة في هموم صغيرة، لا تبعد كثيراً عن ضفّتي الطعام والجنس والملابس: نساء فقط.

وكان محلّ جميلة محوراً لتلك الانشغالات كلّها، هو نقطة جَذْب للجميع، وهو الفضاء الذي يردّد صدى الانفجارات كلّها، والأخبار كلّها، كما لو أنه شاشة كونية عملاقة.

تزور إقبال أمّها الضريرة في بغداد الجديدة، تقتطف عناقيد من أخبار الجيران، والمعارف، وباعة الخردة، ونساء الأرصفة اللواتي يعرضنَ بضاعة خفيفة للنساء، ترحل أمّ رياض إلى أهلها في مدينة الثورة، وتعود ممتلئة بالنوادر والقصص، تزور جميلة الكاظم في مناسبة ما، وتفتح أذنَيْها على ما تتكلّم به الزائرات الجالسات في الصحن المفروش بالمرمر، ترصد هموم البشر القادمين من القُرى البعيدة والمُدُن النائية، تتزوّد نغم من الكُلّيّة بآخر أخبار الموضة والصرعات الشائعة بين الطالبات، يختفي نهاد أيّاماً في زيارة لعامرية الفلوجة، ويُدوِّن في ذهنه آخر الإشاعات التي يتفكّه بها السائقون، وعمّال المطاعم، وشيوخ العشائر، والجنود العائدون من معسكرات التدريب، يصبّ ذلك كلّه في أذن جميلة، ليتقطّر بعدها على دفعات بين الزبونات، ممّا حوّل النوفوتيه الصغير إلى مؤسّسة إعلامية جديرة بالاهتمام والإدهاش.

نساء يتلذّذنَ في جمع الحكايات وروايتها، والإضافة إليها، وتزويقها، بعد أن تصحّرت حياتهنّ الحقيقية، وتحوّلنَ إلى فم، تقتصر مُهمّته على إدارة الكلام والطعام.

وقد نُوقش انفجار جامع النور في برلمان النساء هذا عدّة أيّام، وكان العامل المشترك بين النسوة هو الفرح الخفي المستتر في الصدور، لكنه يبين في تعابيرهنّ الصغيرة التي تبرق بين فترة وأخرى، وتفترش الوجوه، الفرح بنجاة بيوت وأُسر شارع الدير وشارع الميكانيك من آلة الموت تلك، إلا أن الأسف على الراحلين لم يفارق الشفاه.

***

انصبّ الحديث، الجديد الطازج، تحديداً، على بيت جلال مَلَك.

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

وحده طغى على الأفكار، والإشارات، والرموز. راحت النسوة يتجاذبنَ أمر التهديد بلذّة فائقة. أجل، في هذا الصباح، وفيما كان عادل يستأنف شربه للعَرَق أمام التلفزيون المُطفَأ والمِروحة السقفية الدائرة بكسل، وجلال مَلَك أمام الكومبيوتر، مشغولاً بتصميم جديد، لواحد من إعلانات الدائرة، لا يبعد عن مياه دجلة المتلألئة بين جرفَيْن معشبَيْن سوى مائة متر، طغى خبر تهديد جلال مَلَك على أحاديث النسوة في نوفوتيه جميلة. ذكرت ذلك إقبال، عرضاً، وهي تعتقد أن الأخريات سمعنَ بما جرى، ولم تتوقّع المفاجأة الكبيرة للخبر. وقع مثل صاعقة على الرؤوس، لكن الخبر ما زال محصوراً في داخل المحلّ، لم يشعّ بعد في محلّ الحلّاق أو مقهى الجماهير، ولم يصلْ إلى زبائن فرن الصَّمُّون، لذلك فوجئنَ، جميعهنّ، بكلام إقبال.

قالت جميلة باندهاش إنها لم تسمع بالأمر، ولو حصل شيء من هذا، لكانت نور أخبرتْها بالحكاية فوراً. جاءت اليوم صباحاً، بعد أن غادر جلال إلى دائرته، وطلبت مكنسة الخوص لكَنْس الأرض أمام الباب الخارجي، ورأت سامي ورامي يلعبان في الشارع، قالت جميلة، لكنها لم تشرْ إلى التهديد. مَنْ يهدّد رجلاً تنحصر حياته بين البيت والدائرة؟

إقبال أكّدت أن هناك عيوناً تنقل ما يدور في الحارة إلى الإرهابيّيْن، وأصبح الواحد يشكّ حتّى في جاره. لا بدّ أن التهديد نفّذه عبّود. همست وعيناها تنظران في الوجوه، وهي تُقلّب جوارب نسائية سوداء. وقفت النساء بذهول لهذا الخبر، فعبّود مُعتقَل منذ أسابيع. الجميع يعرف ذلك. وكان أبوه واقفاً جنب سيَّارته أمام باب المحلّ، ينتظر زبوناً من بين المارّين في الشارع، وكان صوت مسجّل الحلّاق سعد، الصادح بأُغنيّة شبابية حديثة، يصل إلى النساء الجالسات والواقفات في محلّ جميلة. أُغنيّة يرقص عليها شابّ، اسمه سيف العروس في أحد فنادق العاصمة. أعاد

الحلاّق الأُغنيّة ثلاث مرَّات، متواصلة، وهو أمر أثار دهشة النساء، ومعارف الحلاّق وجيرانه من أصحاب المحلاّت، ولم يعرف السبب إلا بعد أسابيع، إذ إن سيف العروس كان من جماعة الإيمو.

فتاة تلبس شالاً حريرياً على رأسها، وتطلي شَفَتَيْها بالأحمر الثقيل، تدخّلت في الحديث، وقالت إن عمّها اختُطف في نقطة تفتيش للشرطة، ولا نعرف حتّى الآن مصيره، يجوز أن واحداً من عناصر الشرطة هو مَنْ أسقط الرصاصة في سيَّارة جلال. هذا الرأي أثار فضول النساء، وتكلّمت إحداهنّ عن عشرات الإرهابيّيْن الذين تطوّعوا إلى الجيش والشرطة من أجل الراتب، والرشاوى، واستغلال السلطة.

لا تنسينّ عناصر الميليشيات الذين دمجهم (بريمر)، بعد أن اختلط الحابل بالنابل، قالت شابَّة ثانية، تمتلك سحنة غير متحضّرة، وتُتأتئ بالكلام، تقف جنب جميلة.

أمّا علاقة ذلك كلّه مع تهديد جلال مَلَك بالذات، فلم يخطرْ على ذهن أيٍّ من الجالسات والواقفات.

كانت هناك روائح نسائية، تتنشّقها الواقفات بلذّة، وكان هناك اختلاط لروائح الأقمشة والسكاربيلات الجديدة وأقلام الحمرة وقمصان النوم ونسيج السَّجَّاد القديم، تعجن ذلك كلّه المِروحة السقفية الدائرة بكسل، ممّا يجعل لمحلّ جميلة هوية خاصّة، يحسّ بها أيّ شخص يمرق من أمام الباب.

لا يمكن أن يكون جواد، قالت واحدة من النساء بنفي يشبه الاتّهام، كانت تجلس على سجّادة عُرضت للبيع، في زاوية المحلّ القريبة من الباب. جواد غير مريح، فهو ينقل أخبار الشارع أينما ذهب. ربمّا كلّفه أحد

ما بوضع تلك الرصاصة. هو يدخل البيوت، ويسمع الكلام بين الناس، ويطّلع على أسرار كثيرة. حين يحمل قنّينة غاز من مطبخ أو عبوة مياه فارغة، يعرف بعدها ما يحتويه البيت، ومقدار الثراء أو الفقر لصاحب البيت. لكن رأي تلك المرأة لم يلقَ تجاوباً من أحد، فَفَضّلت السكوت.

ثمّ انصبّت التعليقات على الزمان، والحياة التي لم تعد تُطاق، وكيف اختلفت أخلاق البشر بظرف عقد واحد من السنين، واللون الأسود، لون الحزن في ثياب النساء، وقد أصبح ماركة لهنّ جميعاً.

وجوه ناشفة، حواجب غير مُعتنَى بها، أجساد يابسة من الخوف والحزن، وعيون قلقة. العيون جميعها في محلّ جميلة، الصغيرة والكبيرة، المكحَّلة وغير المكحَّلة، السوداء والبُنِّيَّة، كلّها توزّع القلق على الحياة، يشمّها أجمع شعور الدهشة والتّوقّع من حدث سيقع بَغْتَة، ولا يحمل لهنّ سوى الألم.

انعطف الحديث المختلط، المتداخل، المتنافر، الهامس والضّاجّ، إلى سعر اللحم المرتفع، وفيضان اللحوم المستوردة التي تُباع بنصف سعر اللحم الطازج.

اللحوم الهندية غريبة، بدأت واحدة تتحدَّث لهنّ بصوت مرتفع، بعضها مهروس، وبعضها مقدّد، يقول الحجّي، رجلي، إنها لحوم البقر المريض والمتهالك والهرم، فهم (هندوس) يعبدون البقر، ولا يأكلونه، يذبحونه، ويُصدِّرونه إلينا، والناس هنا تشتري دون أن تسأل، المُهمّ لحم، الفقير لا يهتمّ بالمكان الذي يجلبون منه اللحوم، مادام ينفع للدولمة، والمحشي، والكبّة، والكباب، والتبسي، وتشريب الباميا. وهل للحوم دِيْن؟ ثمّ لا تنسين لحم الكنغر المجلوب من أستراليا، مرَّة شاهدتُ كنغراً مجمّداً ملفوفاً

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

بكَفَن أبيض، يستلقي في مجمّدة أحد القصّابين، ممّا أعاد إلى ذاكرتي أيّام الحرب العراقية الإيرانية حين كانت مطاعم الجيش كلّها تطبخ المرق بذلك اللحم الزنخ. صرنا لا نعرف ماذا نأكل.

ما هو سعر هذه السَّجَّادة؟ وجّهت امرأة اللحوم سؤالها لجميلة، وهي تشير إلى السَّجَّادة التي تجلس عليها المرأة المتحدّثة. مئة ألف دينار، وهي سجّادة كاشان أصلية رغم أنها عتيقة، ردّت جميلة، فيها نقوش وصور لغزلان وطواويس، وحجمها مناسب للصالونات، وحتّى غرف النوم. أمامنا وقت طويل على الشتاء، قالت إقبال وهي تضع جوارب نسائية ولباساً داخلياً، لونه أحمر فاقع، على طاولة الخشب التي تقف وراءها جميلة. سجِّلي هذا على الحساب، طلبت من جميلة. حسابكم صار ثقيلاً، تجاوز المائَتَي ألف دينار، قالت جميلة بتذمّر. سأوفي نصف المبلغ حين يستلم عادل راتبه التقاعدي، ردّت إقبال بصوت يفتقد إلى الثقة، ورغم ذلك، أمسكت جميلة بقلم الحبر الجافّ، وفتحت الدفتر الصغير، وسجّلت ثمن الجوارب واللباس الداخلي.

بخروج إقبال من المحلّ، عادت جميلة لتُفكّر، عميقاً، بما سمعتْهُ اليوم حول تهديد جلال مَلَك.

صفنت متطلّعة في بضاعتها التي غطّى بعضها غبار العاصفة الغبارية الفائتة، تيبّست شَفَتَاها، ونظرت إلى الشارع نظرة فارغة، لكنها توحي بالوجل الداخلي ممّا سمعتْهُ اليوم، لقد رحل نهاد مع سيَّارته التاكسي إلى مكان مجهول، وساد الهدوء محلّ الحلاقة، حيث توقّفت أُغنيّة الشباب الراقصة.

تخيّلت جلال مَلَك يتهاوى، بمُسدّس كاتم للصوت أمام بابهم في صباح مغبرّ، وتخيّلت رأسه ساقطاً على مِقود سيَّارته في شارع منزو من

شوارع الدَّوْرَة، والدماء تُلوِّث وجهه ويَدَيْه، كما المناظر المماثلة التي رأتْها على الفضائيات، وهي تنقل تفاصيل اغتيال لواحد من الأشخاص المعروفين. بدأت تخاف على زوجها (أبو نغم)، وعلى نغم التي تدرس في جامعة بغداد، بعد أن زادت عمليات اختطاف الفتيات، وأبو نغم يمتلك محلاً لاحتياطي السَّيَّارات الحديثة، ويقع محلّه في شارع الشيخ عمر، من جهة ساحة الميدان. يخرج منذ الساعة السادسة صباحاً، ولا يعود إلا عند الغروب، وهما الوقتان الملائمان للقتل والاختطاف. أن يُختطف أبو نغم، أو نغم، معناه بيع كلّ شيء، بما في ذلك المحلّ والمشتمل، والبقاء على الحديدة، كما يقول المَثَل.

عند البيت المقابل لها، جذب أنظار جميلة عربة جواد المتوقّفة جنب المدخل، ولاحظت صاحب البيت، وهو منشغل مع جواد بتبليط ممرّ، يصل طارمة البيت إلى الباب، وتذكّرت أنها ينبغي أن تطلب من جواد حمل ثلاثة من البطّانيّات العتيقة إلى محلّ التنظيف. كان جواد منشغلاً بخبط الإسمنت والحصى والرمل مع الماء، فيما راحت الشمس تسعى نحو الظهيرة، والشارع صار يتصحّر مع كلّ شعاع، تدسّه الشمس على الإسفلت. فقدت الحماس بالوقوف خلف طاولة الحساب، واستعجلت خروج آخر امرأة من المحلّ. أدخلت البضاعة المركونة على الرصيف، ولبست عباءتها البريسم، ثمّ أغلقت الباب الداخلي فقط. عبرت واجهة محلّ الحلّاق سعد، ومشت باتّجاه بيت جلال.

أمامها ثلاث ساعات على الأقلّ حتّى عودة جلال إلى البيت. ساعات كافية لمعرفة أحوال نور، وما يدور في بيتهم، فكّرت جميلة وهي تطرق الباب الأسود، وتمدّ رأسها عبر السياج لرؤية الباب الداخلي، باب المطبخ، وهو المنفذ الوحيد لدخول بيت جلال مَلَك.

وجدت حديقة البيت خالية من الأولاد. الشمس أذبلت الثِّيل، وجعلت أوراق شجرة الزيتون تتراخى إلى الأسفل.

الموادّ المصنوعة من الحديد كلّها كانت تنثّ حرارة ووهجاً غير محتملَيْن، المُبرِّدة الموضوعة في الخارج دائرة بقُوَّة، صوتها يبدّد السكون المتشبّث بواجهة البيت، وثمّة نسيج غير مَرئي من الحزن، يُجلّل المشتمل، يُجلّل شبابيكه وأبوابه وشجرة الزيتون. بعد الخبر الذي وصلها اليوم عن الرصاصة، تبدّى لها مرأى المشتمل مختلفاً، شبابيكه المُغلَقة كئيبة، شجرة الزيتون حزينة، وثمّة عزلة غير مفهومة، تبثّها الأسلاك الكهربائية وحديد المُبرِّدة المثبتة على الشّبّاك، وفتحات البلوك المكوّن لسياج السطح، كما لو أنها عيون مبحلقة فارغة.

لم تفتح نور الباب، واضطرّت جميلة للطَّرْق بقُوَّة على الحديد الأسود الذي أحرق أصابعها.

***

- آسف، يا جميلة، لم أسمع الطَّرْق، قالت نور بصوت عالٍ، وهي تفتح الباب الداخلي، وهرولت راكضة لفَتْح الباب الخارجي، الولدان في الحمّام يستمتعان بالماء، وأصواتهما عالية، الحَرّ لا يُحتمَل، لم أسمع الدّقّ، أنا آسفة، تفضّلي.

- ما الذي يجري؟ تساءلت جميلة وهي تجلس على الفراش الممدود بمواجهة التلفزيون، بعد أن أسقطت عباءتها عن جسدها، فبانت تسريحة شَعْرها الشبابية رغم أنها تجاوزت الأربعين سنة.

- خير، ماذا تقصدين؟ استفهمت نور منها، وتشاغلت بفتح الثلاجة

وتناوُل قنّينة من الكولا، سكبت في كأس بلّوريّة ذلك السائل البارد المائل إلى السواد، ووضعتْهُ أمامها، فيما (طرطشة) المياه والأواني الحديدية والأصوات الضاحكة والمحتجّة والراضية تأتي من الحمّام، هناك تحت الدرج.

- سمعْنا أن جلال مُهدَّد، متى حدث ذلك؟ وكيف؟ ومَن الذي يقف وراء الموضوع؟ كانت جميلة تتكلّم وهي على قناعة مطلقة أن نور تعرف جيِّداً بالحدث، لكنها تكتمه، كما لو كان سرّاً بمنتهى الخطورة.

- بالتأكيد، الخبر الذي نقلتْهُ إقبال في فضاء نوفوتيه جميلة، أشاع الرعب في قلب جميلة أكثر من غيرها، بالأساس، لأنها تحبّ نور، وترعاها، ولأن جلال هو المستأجر المثالي للمشتمل، ولم تجد خلال أكثر من سنة من نزوله جاراً لهم، إلا ما يسرّ. فهو ممتلئ باللطف وجمال الروح، مثل نسمة تسري في شارع الدير، كما وصفته خلال حديث النساء عن قضية الرصاصة. حتّى ولدا نور سامي ورامي، تختزن لهما الودّ، وتصفهما بالورود والرياحين، لما لهما من صفات محبّبة، يمتلكها قلّة نادرة من الأولاد في عمرَيْهما. الحبّ لهذه العائلة هو ما دفع بجميلة إلى زيارة نور، ولأن نور كانت تجهل هذه القصّة كلّها كما قالت، نزل عليها سؤال جميلة نزول صاعقة في نهار صاحٍ، وصار وجهها مثل ليمونة من هول المفاجأة، وأبسط وصف لما أحسّت به نور هو الرعب، وحدسها يقفز إلى النتائج البعيدة دون تروٍّ، ولا تتوقّع سوى الأسوأ كعادة نساء هذا البلد. ففي حياتهنّ جميعاً، ومن خلال خبرة السنين الطويلة، لم يعهدنَ بالمصائب إلا أنها تجرّ بعضها بعضاً مثل سرب من النمل.

أحسّت نور أن البيت الذي بَنَتْهُ لَبِنَة لَبِنَة مُهدّد بالتّصدّع، ومن ثمّ، الانهيار، ونساء شارع الدير عادة ما يأخذنَ مثل هذه الأحداث بجدّيّة أكبر

من الرجال، إذ اعتدنَ على قراءة الإشارات، والظلال، والإيحاءات، ونتف البوح، والنظرات، ببلاغة أكبر من سواهنّ.

من جهة الصالون الداخلي تأتي جلبة سامي ورامي، وهما يتراشقان بالماء في الحمّام، عادة ما تضع نور لهما برميلاً صغيراً من الفافون، تملؤه بالماء البارد القادم من أنابيب الإسالة. تضع علبة الشامبو جنبه مع الصابون نوع (فا) العطر الرائحة، وتُعلِّق (الليفة) في حنفية المياه القادمة من الخزّان، ثمّ تتركهما يستمتعان بالماء لأكثر من ساعة، وصوتهما كان يطغى على أنفاس نور التي أصبحت سريعة، وتتردّد بصوت مسموع.

- لم يذكر جلال أيّ شيء عن الموضوع.

وقع الخبر عليها للمرَّة الأولى ثقيلاً، ومُفاجِئاً، ومُرعِباً. لماذا لم يُخبرها جلال عن التهديد؟ صحيح أنها لاحظت حالته غير المعتادة في الأسابيع الأخيرة، لكنها عزت ذلك إلى الصيف، وإلى معاناته حين يعود من العمل بسيَّارته البرنس غير المُبرِّدة، والازدحام في الشوارع، والانفجارات التي تصاعدت حتّى صارت كابوساً، يتلبّس الجميع. آخرها انفجار الجامع، جامع النور. إضافة لهذا، فجلال شخصية تحبّ العزلة، ولا تظهر على وجهه أيّة انفعالات مباشرة. لا يرغب بإظهار ضعفه أمام الآخرين. هذا ما تعرفه عن زوجها. لم يُخبرني جلال بشيء، كرّرت قولها، وتوهّجت عيناها بمزيج من الخوف والحَيْرة وعدم التصديق، ربمّا تكون إشاعة، لا أكثر، واصلت كلامها، وهي تصبّ مزيداً من الكولا في كأس جميلة، لكن العينَيْنْ السوداوَيْن، اللَّتَيْنْ عشقهما جلال تشبّعتا برعب عميق، يصعب التعبير عنه بكلمات.

جلال بالنسبة إليها سور البيت، المُتَّكَأ في هذه الحياة الجارحة، المتقلّبة، وهو القارب الذي يسير بهم، هي وسامي ورامي في بحر البلاد المضطرب.

- تعرفين نور، بدأتُ أخاف أنا الأخرى، مرَّة أفكّر بزوجي (أبو نغم) ومرَّة أفكّر بنفسي، أصبح محلّي يُثير الفضول، خاصّة وهو مركز جَذْب لنساء المنطقة، كذلك زياراتي الأسبوعية إلى سوق الشورجة، ولقائي بالتّجّار والباعة وسوّاق السَّيَّارات الذين ينقلون لي بضاعتي، في عَتَمَة الليالي، أحسد أختي أمّ حيدر أنها غادرت الدَّوْرَة، مثلما فجّروا جامع النور، يمكنهم وضع عبوة ناسفة في محلي، وأحيانا أخاف على نغم، كلّنا خائفون ممّا يجري. أقول لنفسي بِيعي المحلّ، يا جميلة، والبيت، والمشتمل، وغادري إلى سورية، التحقي بأختكِ أمّ حيدر. مثل هذه الأفكار تراودني ليل نهار.

ورغم أن ما قالتْه جميلة شكَّل مفاجأة لنور، فهي تعرف أن جميلة تختلف عن أمّ رياض أو إقبال أو غيرهما من النساء، فهي جادّة، ولا تنقل الأخبار إلا بعد التّأكّد منها، أو على الأقلّ، الأخبار التي تهمّها هي ذاتها، إلا أنها أحسّت بتجمّد داخلي غير مسبوق، كما لو غزاها ثلج قطبي قادم من المجهول. وخلال حديث جميلة كان عقل نور شارداً في متاهات أخرى، تتخيّل جلال مقتولاً، وتتخيّل سامي ورامي مُشرَّدَيْن في الطُّرُقات، وتتخيّل نفسها، وقد صارت أرملة رغم أنها لم تصل الأربعين بعد.

كانت تستمع إلى جميلة جسداً فقط، أمّا روحها، فتهيم في عوالم أخرى، عوالم من السواد والحزن والفقد، نظرها لا يكفّ عن التّطلّع إلى الساعة المنضدية الموضوعة على التلفزيون، جلال على وشك الوصول، وكان غراب أسود ينعق في شجرة الليمون المنتصبة في حديقة جارهم (أبو هند)، والزمن عجينة غير ناضجة، والكلمات بالونات هوائية تتطاير أمام التلفزيون، وعلى سطح الثلاجة، وفي مجرى الهواء القادم من المُبرِّدة.

معظم نساء شارع الدير يتبادلنَ الهموم، بما فيها الهموم الشخصية، كأسرار الرجال ومشاكل الأطفال والضائقة الاقتصادية، والمصائب الأُسرية،

ولكن جميلة من بين الجميع، تحسّ نور، أنها تحبّها بصدق منذ اليوم الأوّل الذي استأجروا فيه بيتها. ودَّعت جميلة عند الباب الخارجي، وكانت تفكّر بما سمعتْه للتوّ، وعَدَّتْهُ أشبه بكابوس، ستفيق منه بالتأكيد. مثل مخلوق منوّم، نشَّفت الوَلَدَيْن، وألبَسَتْهما ملابس نظيفة، وأنجزت الطبخة التي يحبّها جلال مَلَك، وكانت من الرّزّ العنبر، ومرقة الباذنجان مع اللحم، وقطّعت الرقي، ووضعتْه في الثلاجة، كي يبرد.

رتّبت فراش المطبخ، وجلست تنتظر جلال بأعصاب مشدودة.

لماذا لم يُخبرها جلال بقصّة التهديد؟

كان هذا السؤال يهيمن على روحها، ويضعها في موقد ساخن غير مَرئي، لا تعرف ماذا تعمل، ولا كيف تفكّر، حتّى حين عاد جلال متجهّماً، وركن سيَّارته في الكراج، ورفع غطاء المحرّك، لكي يبرد، وهي الحركات التي يزاولها كلّ يوم، لم تنبس نور بحرف. أطعمتْه طبختَها، وعملت شاياً ثقيلاً من النوع السيلاني الذي يحبّه، وتحرّكت في البيت بهدوء وحذر، كون سامي ورامي ناما على هواء المُبرِّدة في غرفة النوم بعد حمّامهما الطويل، والممتع.

هنالك خوف داخلي من السؤال، لا بسبب السؤال ذاته، إنما بسبب توقُّع جواب، يقلب حياة الشخص رأساً على عقب، وهذا ما كان يشغل رأس نور. اختصرت أيّامها في هذَيْن الوَلَدَيْن، الملابس، الماكياج، الخروج إلى المطاعم، لذّة الجنس، الطعام الشهي، تجيء كلّها في هامش القائمة من أولويات وجودها. جلال مَلَك والولدان النائمان.

***

أخذ جلال قيلولة قصيرة، وصرفت هي الوقت بإحصاء أثاث بيتها: تصعد إلى السطح، وتنزل إلى الحمّام، تتجوّل رغم الوهج في الحديقة، كي تعود إلى الوقوف في المطبخ، ثمّ ترمق وجه جلال المستسلم إلى النوم، وفي رأسها صور بشعة، لما يمكن أن يحصل في أواخر هذا الصيف اللعين.

وحين أفاق، وضعت أمامه صحن الرقي البارد، وجلست تنظر إليه مواربة. أنهى التهام قطع الرقي، وتمدّد أمام الشاشة الصغيرة مُنتظِراً نشرة الأخبار. فكّرت أنه الوقت الملائم لاستجلاء حقيقة الوضع. لم تعد تطيق السكوت أكثر من ذلك.

قالت له دون مقدّمات:

ما هي حكاية الرصاصة التي وجدتَها في سيَّارتكَ؟ كان سؤال نور مُفاجِئاً له. كعادته ظلّ صامتاً أكثر من خمس دقائق، مُتشاغِلاً بالتقليب بين المحطَّات، بواسطة الريموت كونترول، وساد في المطبخ سكون قلق، لا يقطعه سوى صوت المُبرِّدة وهي تضخّ الهواء إلى البيت، وصوت حمّامات قادم من بين سَعَف نخلة جارهم الغامض (أبو هند)، حمّامات تهدل من بين ظلال السَّعَف، ووهج الحرارة المنبثقة من الثمار الصفر في العُذُوق المتهدّلة. أحسّ جلال بالقشعريرة تسري في جِلْده، وأغضى بصره، وحاول رسم ابتسامة صغيرة على شَفَتَيْه، كما لو يريد الهروب من مفاجأة السؤال.

- لا أظنّ أن الأمر جدّيّ، قد تكون الرصاصة سقطت من شخص ما صدفة في السَّيَّارة، تعرفين جيِّداً أنني لا أشتغل في السياسة، وليس لي نشاط اجتماعي، ولستُ في الواجهة، كي أُستهدف.

وأوشك أن يقول لها إنني لستُ سوى برّاقة، وأتردّد حتّى في الظهور على شاشة الفيسبوك، وأخشى من الاختلاط بالبشر، كي لا أدفع الثمن.

بدلاً من ذلك، راح جلال مَلَك يتحدَّث بثقة، يريد منها إزالة أيّ قلق أو خوف من روح نور، وهذا كان السبب الرئيس الذي دعا جلال لكتم الخبر عنها، يقرأ نور مثلما يقرأ خطوط كفّه، هي مُتطيّرة، تمتلك وساوس وشكوكاً، وكثيراً ما كانت تخشى حتّى أحلامها التي تراها في النوم، كلّما رأت مناماً مُوحِشاً، أو كابوساً، قصّتْه على جلال، لكي يعطيها تفسيراً مُقنِعاً، يبعث شيئاً من الهدوء في روحها، وخبرته في علوم القوى الخفية، وثقافته العامّة، واطّلاعه العميق في أكثر من مجال، خاصّة علوم الفضاء، دعاها إلى أن تؤمن بتفسيراته، كما لو كانت حقائق مطلقة، وهذا ما جعله أشبه بساحر في نظرها.

تبريراته لم تُقنعها، التهديدات والتصفيات والانفجارات والخطف ليست ظواهر جديدة في حياتهم، كانت تفكّر، وذلك كلّه لم يعد يُفرِّق بين شخص وآخر، الاستهدافات أصبحت غير منطقية، ولا تخضع لتفسير عقلاني، وهذا ما جعلها تميل إلى تصديق الخبر، وكون جلال هو المَعني.

- مَنْ أخبركِ بالأمر؟ سألها جلال وهو يتّكئ على المخدّة مُستطلِعاً شاشة التلفزيون التي كانت تبثّ تقريراً عن ظاهرة الإيمو المنتشرة مؤخّراً في العراق، وفي بغداد تحديداً.

- جميلة، لقد أصبحتَ حديث النساء في شارع الدير، الزبونات كلّهنّ اليوم عند محلّ جميلة كنّ يتحدَّثنَ عن الموضوع.

***

ارتكب خطأً كبيراً بإخبار عادل بشأن الرصاصة، كان من المفترض أن يغطّي على الحدث، ولا يثير أيّ غبار حوله، لكن ما جرى قد جرى، وعليه أن يُسفّه الموضوع في عقل نور، وإلا ستتحوّل حياته إلى جحيم. لا يرغب في

أن يصبح تحت أنظار أيّة حركة أو مُنظّمة. يريد أن يبقى نكرة، خارج الواجهة، كائناً غير محسوس، شخصية هلامية، تتلطّى على ضفاف الطُّرُق والحيطان والبيوت طلباً للسلامة، لا من أجله هو، بل من أجل سامي ورامي ونور. ينبغي أن يبقى مرتدياً تلك القوقعة السميكة، ويزحف ببطء نحو هدفه، ويتهجّس الهواء بلوامسه الرفيعة، لوامس برّاقة، يمكن أن تُسحقَ في أيّة لحظة. كلّ مَنْ يتصدّر الواجهة، يصبح هدفاً، هذا ما علّمتْه السنوات السابقة في هذا البلد الفائر مثل مرجل نووي. اختفى الضّبّاط القدامى الذين كُرّموا بسبب بطولاتهم في الحروب. هاجر شيوخ عشائر كانوا ذات يوم ملء السمع والبصر، صُفِّي رؤساء ميليشيات وعصابات وحركات بدم بارد، خُطف أطبّاء شهيرون، ووُجدت جثثهم على مزابل خارج المُدُن، أُعدم رؤساء وقادة أحزاب ورجال دِين، بادت مُدُن، وتمزّقت أُسر، ولم يبقَ من ذلك كلّه سوى نساء هذا البلد، تراب المكان الملتصق بنواة الأرض، وكعادته حين يودّ أن يُنهي حواراً عقيماً معها، يلفّ ويدور في النقطة ذاتها، بعيداً عن رؤيته هو بخصوص حدث ما، وضع جلال مَلَك الريموت كونترول على السَّجَّادة الخفيفة أمام الفراش، واتّجه إلى فوق، نحو مكتبه في الطابق العلوي، هناك فقط سيجد راحته في عالم الإنترنيت، وكان يروم هروباً من واقعه، من الإشاعات، والأقاويل، من التفاصيل اليومية المُمزّقة لأعصابه.

يريد الهرب إلى مكان ناء، وربمّا إلى فضاء بعيد، وحيداً إلا من لذّة الخيال.

كان ذهنه يتّجه إلى العيش لحظات مع المُطلَق، مع السّرّ الأكبر، مع آفاق بعيدة عن النظريات والأفكار والأديان والهموم الساذجة للبشر على هذه الأرض. الغيبوبة الكبرى، كما يحلو له تسميتها، الهروب الكبير من هذه الخارطة الدموية. بدون تلك الحقول الافتراضية، من خصور وسيقان

وعجيزات وثقوب سوداء ومجرّات هلامية وأقمار من عاج وأشعّة غير مَرئية، يصبح من الصعب احتمال هذه الرتابة، هذه الحياة الناشفة مثل جِلْد خروف جافّ. زملاؤه جميعهم في العمل يهربون إلى بحر الخيال، وهكذا في ليلة ساخنة، ليس لها أثر في كرته الأرضية الملوّنة، مضى إلى متاهة اليوتيوب، مُفتِّشاً عن ذلك الحيّز الذي لا يشاركه فيه أحد، الفضاء والحبّ، كلاهما يرتفعان به إلى سحابة الخلود. كان عادل يقول له أحياناً إنه لم يخرج حتّى اللحظة من أرض إيران، لم يخرج من الزنزانة، ومَنْ جرّب الحرب، لذلك يعشق معاقرة الخمرة. إنه يفهم السبب، الجميع هنا يعيش في الماضي، كون حياتهم مُشبَعة بالمرارة.

وجد فيلماً وثائقياً عن الأكوان المتوازية، وقد شدّه العنوان بقُوَّة، مئات مليارات النجوم في مجرّتنا مجرّة درب التّبّانة، وهناك مليارات المجرّات في الكون المَرئي، لكن تلك اللوحة المضيئة والمَرئية لا تُشكِّل إلا جزءاً ضئيلاً من العالم الحقيقي، العالم غير المَرئي، حيث تكوّن النجوم والغبار الفضائي والكواكب والمذنّبات الزبد الطافي على وجه تلك المادّة المظلمة. أين نحن من ذلك كلّه؟ فكّر جلال، وإذا كان هناك مليارات المجرّات والأكوان الموازية غير المَرئية، فلم يعتقد الإنسان بأنه شيء مُهمّ وعظيم في هذه السمفونية العملاقة؟ وما أهمّيّة التعاليم الدينية الساذجة، والرسالات السماوية، وتصوّرات ما بعد الموت التي تستند عليها الرسالات والأديان كلّها؟ أليس كلّ ما شيّدته البشرية من أفكار ونظريات، وأغلبها يستند على فكرة المقدّس والإله، هو ضَرْب من العبث؟ ألا يشبه ذلك طفلاً يبني قصراً من الرمال على شاطئ البحر، وهو يعتقد أنه يقوم بعمل فريد وجبّار؟

كان يقف بمواجهة أفكاره التي تبعث الرعب في قلبه. هو لا ينتمي إلى القطيع، إذنْ، وعليه أن يدفع الثمن.

بتطاوُل الليل في شارع الدير، تنطفئ أضواء البيوت ساعة بعد أخرى، وكانت هناك التماعات بعيدة في السماء، وانعكاسات أضواء على أوراق النارنج في حدائق البيوت، ومَرأى أشباح على السطوح تتجوّل دون هدف مدفوعة بتضجّر مُفرِط من حرارة الصيف، وقطعان من الظلمة تتلطّى في الزوايا والمنحنيات التي تُشكِّلها البيوت.

***

الساعات تمرّ على غرفة جلال مَلَك، وهو مُنغمر في هذه العوالم المذهلة: الثقوب السوداء، ولادة النجوم، انفجار السوبرنوفا، المسافات الضوئية الخيالية التي تفصل بين مجرّة وأخرى، وهذا الأنين الوحيد للبشر وهم يبحثون عن لسان ثانٍ في نجم آخر أو مجرّة بعيدة، يمكنهم التّحدّث معه حول لغز الكون. وكذلك الأيّام، وهي تحمله في ثنايا الخيال. كلّ ليلة. في ثنايا النسيج العنكبوتي الذي جلبه الأميركان، مرزوماً مع مئات الدَّبَّابَات والطائرات والمدافع والأجهزة الليزرية والقنابل الذكية. البشرية أرسلت رسالتها مع (فويجر) بتسع وخمسين لغة حَيّة على الأرض، صباح الخير، نحن سكّان الكرة الأرضية، وصوت نجم نابض، وتردّدات ذرّة الهايدروجين التي تُعدّ المكوّن المشترك للأكوان جميعها في الفضاء، هذه الرسالة التي ستعيش لمليار عام على الأقلّ، علّ جنساً آخر من مجرّة بعيدة يعثر عليها، ويردّ.

هي مثل رسالة البحّار الغريق التي وضعها في قنّينة، وألقاها إلى لجّة الموج المتلاطمة، قد تصل بعد سنة أو سَنَتَيْن أو عشر، وقد لا تصل، حينها يكون جلال قد تحوّل إلى عظام بيضاء، بين مغاور خرائط المرجان، في الظلام الأبدي. يكون قد تحوّل إلى جمجمة، أحفورة جمجمة، فيما لو سقط في طين دجلة المشبَع بالأشنات، والغرين، وذرّات الحديد.

ماذا تعني حياة الإنسان التي لا تتجاوز المائة سنة في أفضل الأحوال، مقارنة بحياة نجم عملاق عمره مليارات السنين؟ نجم سينفجر ذات يوم، بوهج ضخم يسافر بين المجرّات؟ ماذا تُشكِّل إطلاقة صغيرة أمام (سوبر نوفا) يسافر في بحر من الطاقة المظلمة؟ أليس شيئاً تافهاً إشغال الفكر بعثرات وجودية مثل تلك؟

في ذلك الليل المشبَع بالعَرَق والحرارة والغبار، جلس جلال مَلَك يتأمّل في وجوده ذاته، ونَتَأَتْ فجأة فكرةٌ جديدة في رأسه، كان غائباً عنها، رغم أنها في متناول اليد: لماذا لا يتخلّى عن السَّيَّارة؟ هناك باص للدائرة يمرّ من شارع الميكانيك للعمّال والموظّفين، يلتقطهم في الصباح، ويعيدهم بعد انتهاء الدوام، ألا يُقلّل ذلك إلى النصف من درجة الخطورة على حياته؟ على الأقلّ، لا يستفرد به القَتَلَة حين يكون وحيداً في سيَّارته عند الصباح، أو عند العصر وقت رجوعه المنتظم عبر جسر الطابقَيْن، مروراً بمنطقة الطعمة، ثمّ عبور جسر الميكانيك، وانتهاء بشارع الدير؟ كذلك يتفادى وجوده مع الوَلَدَيْن وزوجته، حين يمضيان بعض الأيّام في جولة سريعة داخل العاصمة، مُمعنين البصر بغرائب شارع الكَرَّادَة وألعاب شارع أبو نؤاس وأشجار شارع العرصات وملذّات منطقة ساحة التحرير. المجتمع لا يرغب في أن تبقى لكَ أيّة خصوصية، فلمَ الشعور بالغضب؟ هكذا أرادت الأحداث وهي تطوي سنواتها الكئيبة. وعند هذه النقطة من تساؤلاته، وهواجسه، وجد أن هَجْرَ سيَّارته هو أفضل الحلول، وأسلمها للعائلة. التقليل من درجة الخطر حكمة.

خطر لذهنه بَغْتَةً صديقه كامل، وهو صحفي يشتغل معه في الإدارة، كان يُبشّر بمجتمع آخر غير هذا المجتمع، يدعو في جلساته مع الأصدقاء، وفي المقالات التي يكتبها في الصحف اليومية، إلى بناء مجمعات للفنّ،

وإعادة فتح المسارح في العاصمة وباقي المُدُن، وإنشاء مدارس للباليه والرقص، وإبعاد الدِّين ومؤسّساته عن إيقاع الحياة اليومية، وغير ذلك الكثير من الآراء الغريبة، والجريئة. تمّ اغتياله قبل أشهر على طريق محمّد القاسم، في مكان قريب من كراج النهضة، بينما كان عائداً بسيَّارته من شارع المتنبّي، مع أكياس من الكُتُب الجديدة التي وصلت إلى الأسواق من لبنان وسورية ومصر والمغرب، وقيل إن مَنْ كان يسوق السَّيَّارة هو أخوه، تتبّعتْهُ سيَّارة مُريبة منذ خروجه من تقاطع الميدان، وحتّى الطريق العامّ، وكان هناك زحمة في الطريق السريع، والواجهة الجميلة لوزارة المالية لم تُرمّم بعد، بعد أن تهشّم بعض منها، بسبب سيَّارة مفخّخة، ومنظر خزّان المياه القريب من ساحة الطيران يهيم في السماء الزرقاء، الخزّان المحلّق فوق متاهة بغداد، وكانت السماء دون غيوم، تطير بفرح وسط امتداداتها طيور حمام بيتي، بألوان بهيجة، ثمّ في لحظة خاطفة، فتح شخص النار على رأسه من كاتم للصوت، ورماه بثلاث رصاصات، أدّت إلى قتله في المكان.

شارك جلال، وقتها، في وقفة تأبينية مع عدد من معارفه وزملائه في الدائرة، وضعوا فيها الزهور على الأرض، وأشعلوا الشموع وسط الدموع، ومشاعر الغضب في الوجوه.

فكّر أن مصيراً ما ينتظره وسط هذه المدينة الغابة، مشابهاً لمصير صديقه كامل، المصير الذي ظلّ لغزاً حتّى هذه الساعة. لكنْ، مَنْ سيضع الزهور على مكان مصرعه؟

المسير ضمن القطيع أوسع أماناً من التّفرّد، فكّر بذلك وهو يسمع سيَّارة تتوقّف في الشارع، فقام، وأطفأ النور، ووقف في عَتَمَة الشّبّاك ينظر إلى الأسفل، والهواجس ذاتها، نزل رجلان من السَّيَّارة الحديثة، ودخلا إلى بيت جارهم، وكان القمر ينشر نوره على سَعَفَات النخيل وأوراق التوت

وأسطح البيوت المقابلة، نور خفيف، من تحت دثاره السماوي تتصاعد أصوات دفوف وأناشيد ذات طابع تحريضي، وهمسات بعيدة تتسلّل من الجدران.

تمنّى جلال مَلَك لو يخترق قوقعة الجار، ليعرف ما يدور وسط الغرف المُغلَقة، هدوء يسيطر على شارع الدير، مضى الجميع إلى فسحة النوم الملوّثة بالكوابيس.

من مسافة بعيدة، من نقاط الحماية المحيطة بالدير، يمكن سماع حركة سيَّارات، لا تتوقّف، وهناك خوف في الهواء الراكد، وهناك حوارات لا تُقال بوضوح، وثمّة شيء لا يُمسَك، يتجوّل بين الأحياء، ويتغلغل في الزوايا، ويتمطّى داخل البيوت الهاجعة. إنه حكاية تلك الرصاصة التي هبطت في تلك الظهيرة الحزيرانية على جلال مَلَك مثل صاعقة في سماء صاحية.

***

حكاية الرصاصة خرجت من فم جلال مَلَك، في ذلك الليل الدموي لانفجار جامع النور، لكنها لم تسقط في أذن جاره عادل فقط، بل عبرت نحو مسامع زوجته إقبال، وتداولا الرأي حولها قبل النوم، ثمّ تناثرت في فضاء محلّ جميلة، وتحوّلت إلى نازلة، تدعو إلى العجب. اعتزم عادل، منذ تلك الساعة التي أخبره فيها جلال عن الرصاصة، أن يستشفّ ويتحرّى ويستطلع أيّ إشارة حول الأمر. تهديد بهذا الشكل لا يمكن أن يأتي من فراغ. وراء الحكاية ما وراءها. حتّى إن شيئاً من الشّكّ تسرّب إلى دخيلة عادل من أن جلال قد يكون شخصية أخرى غير التي يظهر عليها في المنطقة. له علاقة بعصابة تُتاجر بالأعضاء البشرية، أو عضو في حركة لتزوير النقود، أو ناشط في إحدى مُنظّمات المجتمع المَدَني المرتبطة بجهات

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

خارجية. يجهل سنوات عمره قبل مجيئه إلى المحلّة، ونتف القصص عن تلك السنوات، وهو ما كان جلال يبوح به بعض الأحيان، لا تكفي لمنحه الثقة المطلقة. مَنْ يدري؟

كان يفكّر بهذه الاحتمالات عند طلوع كلّ ضوء.

لم يعد جلال الشخص الوحيد المهموم بتلك الرصاصة، بل أصبحت هَمّ شارع كامل. ومن هنا اتّخذ عادل قراره. لن أحتسيَ الخمر في الصباح، أوصى نفسه ليلة البارحة، وأكّد القرار لنفسه ثانية، وهو يُحدِّق بأولاده الجالسين أمام التلفزيون، يشاهدون مسلسل توم وجيري على قناة إم بي سي ثري.

زوجته إقبال منشغلة بترتيب البيت، كَنْس غرفة الجلوس، نَفْض أفرشة النوم، غَسْل صحون المازة التي تركها عادل في الليلة الفائتة، ومَسْح زجاج النوافذ من الغبار، وتنظيف المسجّل العتيق الموضوع على حافّة النافذة، والإعداد لوجبة الغداء.

كعادته كلّ يوم، لم يفطر عادل، واتّجه مباشرة إلى (قوري) الشاي الموضوع على الطّبّاخ، صبّ لنفسه كأساً ثقيلة، هناك في إيران لا يرغبون في الشاي الثقيل، يشربونه مع السّكّر القند، تأمّل بُرْهَة في عساليج العنب، وهي تُزيّن سطح ذلك الإناء الأنيق المصنوع في الصين، ورجع إلى فراشه الممدود على الأرض، وفكّر كثيراً بابنه طه، ويوميّات حياته في ذلك البلد البعيد، وهل يمكن أن يكون قد فقده وإلى الأبد؟

أشعل سيجارة (فايس روي) جديدة، حدَّق إلى أثاث البيت، إلى أولاده وزوجته المشغولة بالنظافة، كما لو كانت موظّفة نجيبة في مستشفى العلوية، كما دأب على القول لها. جلْسَتُهُ على هذه الطريقة ورثها من

سنوات أَسْره في إيران، جلسة القطّ، العينان تدوران في المكان، تراقبان أبسط التفاصيل، وأصغر المتغيّرات والحركات والتعابير، جلسة القطّ مع سيجارة في الفم، بهمن، هو الصنف الذي أحبَّه في الأسر، سيجارة آزادي لم يحبّها، كانت صنفاً لعامّة الناس، جلو كباب هي الطبخة التي لم يذقْها سوى في المناسبات الدينية حين كان المسؤولون عن المعسكر يرغبون في جَعْل الأسرى العراقيّيْن يتذوّقون ملذّات المطبخ الإيراني، أمّا (آب كوشت)، وهي خليط من اللحم والبطاطا، فكانت وجبة نادرة.

أن تكون أسيراً يعني أن تكون ذليلاً، ولن ينسى القمل، والحكّة، والبراغيث، والأمراض الجِلْدِيّة التي لا يتذكّر أسماءها وأنواعها، وأشهرها في الزنزانات هو الجَرَب، منذ رجوعه منتصف التّسعينيّات، بعد أَسْر امتدّ أكثر من عشر سنوات، لم تفارقْ عادل شخصية الأسير وحركاته، سواء في الجلوس أو الضياع في تأمّلات لا تنتهي، أو الاكتفاء من الحياة بأقلّ ما يمكن، مدفوعاً بإدمان مَرَضي على احتساء الخمرة.

كي أنسى، كما دأب على الترداد دائماً.

ينسى رائحة الجثث، والمستنقعات الموبوءة بالبعوض، والنظرات العدائية من قِبَل السّجّانين، وعفن البطّانيّات في الزنازين الباردة، والبُعد عن الشوارع والأهل وأماسي دجلة ورائحة الشاي بالهيل في مقاهي أمّ كلثوم والبرلمان وحسن عجمي.

كي ينسى جلسات بار جبهة النهر وعُذُوق النخيل الصفر المتدلّية على ثِيل الحدائق وقيمر الجاموس المُشبَع بالعسل أو مربّى التّفّاح. ينسى فتيات شارع النهر وهنّ يلحظنَ الشباب، بعيون سود مكحّلة، وشفاه مصبوغة بدم الرّمّان، وذلك كلّه الماضي.

أُسر في تلك الليلة المرعبة التي لا تفارق رأسه.

فتحوا عيونهم في الليل على مشهد مهول، كان ذلك في منطقة الحدود، قاطع مدينة العمارة، وكانوا يختبئون خلف السواتر الترابية، الليل بلا ضوء، خطّ الجبهة العراقية ينتظر مثل قبر، وفي منتصف الليل، شاهدوا ما يُذهل العقل: آلاف، مئات الآلاف، بل ملايين، كما يتخيّل عادل، من الأضواء، صغيرة وكبيرة، قصيرة العمود أو طويلة، على جبهة تمتدّ أكثر من عشرة كيلومترات، تتّجه إليهم. الألغام الأرضية التي زرعوها في المنطقة الحرام لم تُوقِف ذلك الزحف، الرصاص والقذائف من مختلف الأسلحة كانت كما لو أنها تحارب الهواء، الأضواء ظلّت تتقدّم نحوهم بإصرار وثبات، ينطفئ ضوء متحرّك نحوهم، ويحلّ محلّه ضوء آخر، حتّى أصبح الليل نهاراً لشدَّة الأنوار المنطلقة من السماء والأرض. وتلك كانت بداية مرحلة الجحيم التي عاشها بعد ذلك.

مَرأى الدم ما غاب عن عينَيْه منذ عشرين سنة، كان يهرب منه دائماً، لكنه يطارده بتشبّث غريب، يفكّر أن لا خلاص له حتّى يلفّوه في ذلك القماش الأبيض، ويضعوه في قبر ضيِّق، ثمّ يهيلون عليه التراب.

أيّة حياة فاجرة!!

دمدم لروحه، وارتدى، كعادته، بنطلونه الأسود وقميصه الأبيض، (نص ردن)، ووضع سيجارة فايس روي جديدة في فمه، وخرج من الباب الأسود المُخَلْخَل الذي لا يُغلَق إلا بسلسلة، وقفل ثقيل، يوضعان في آخر الليل، واتّجه يساراً، رأسه في الأرض، ودخان سيجارته يرسم خلفه خطوطاً مبعثرة. مشى حتّى نهاية الشارع، ثمّ انعطف إلى الفسحة أمام سوق الكوخ. وكانت هناك أصوات لأطفال يلعبون على الأرصفة، وصافرات شرطة قادمة من

جهة النهر البعيدة، وصدى لما يشبه انفجاراً، ونداءات لباعة يجلسون على الأرصفة أو يقفون على عرباتهم المكتظّة بالملابس المستعملة، وترتيل لقارئ قرآن، ينطلق من سيَّارة متوقّفة جنب الصيدلية.

رأى الواجهة المخرّبة لمحلّ الكوخ، وبقايا الخضرة، وسلال العنب والتين على حالها، ووقف محدِّقاً بمكان الانفجار، لقد نُظِّف من الدم سريعاً، وكُنس، لولا بعض الآثار لحرائق صغيرة، لما حسب أيّ شخص أن كارثة مرَّت من هنا. تعجّب من قدرة البشر على إخفاء كوارثهم، عيناه في الأرض، كما لو كان يفتّش عن سرّ هذه السيول التي تفور من حوله، أحياناً يعتقد أن من العبث التفكير عميقاً بشيء، ينبغي فقط تقبُّل الأحداث كما هي، وظنّ ذات مرَّة أن أحزانه ومآسيه وقلقه وضياع عمره هباء، ذلك كلّه قد انتهى، ما إن فتحوا باب الأسر، وقالوا له اذهبْ، أنتَ حُرّ منذ الآن. كان واهماً بشدّة، ما عاشه في الحرب، من ثمّ سنوات الأسر، إن هي إلا تمرينات للكوارث التالية. الشيء الوحيد الذي يعتقد أنه يصبّ في مصلحته وفاؤه بذلك النذر، الصحو ما عاد مناسباً لهكذا حياة، وما إن لمعت الفكرة في رأسه حتّى رجع في منتصف الطريق إلى البيت، ودخل مباشرة إلى الصالون، وسط ذهول إقبال واستغرابها.

صبّ، دون أن يتفوّه بكلمة، كأساً كبيرة من العَرَق، ابتلعَهُ دفعة واحدة، دون أن يتناول مزّة وراءه، ثمّ خرج كما دخل، خفيفاً، ساهماً، مُفكّراً، تلفّه غيمة من سيجارته الفايس روي ورائحة عَرَقه الحادّة.

***

حرارة الشمس في أوّل اشتدادها، والزحمة أبصرها عند بائع الخضر، وما زالت السقيفة المصنوعة من حصران النخيل تُلقي ظلّها على المتسوّقين

والمتسوّقات، ورأى جواد يقف بعربته قرب البائع، ينتظر أحداً، يُوصيه بطلب نقل، سيَّارات الكيا تمرق في شارع الميكانيك مكتظّة بالبشر، ومُولِّد الكهرباء يزأر في الفسحة المقابلة لبائع الخضر.

النساء، بعباءاتهنّ السود، ينحنينَ على الخضراوات والفواكه، والبائع الصغير يقف أمام الميزان. قصّاب اللحم مشغول بتعليق الخرفان والعجول في خطّافات تتدلّى أمام الواجهة. تلاشت الأحلام من خيال البشر، ولم يترسّب في وعيهم سوى الطعام، هذه هي الحقيقة الوحيدة، الملموسة، السارية في الأزقّة والساحات والمطاعم وحافات المُدُن. قبل شهر تقريباً، انفجرت قنبلة، كانت موضوعة فوق سقيفة الكهرباء، راح ضحيّتها طفل عمره ستّ سنوات، صادف وجوده قرب المظلّة، وجُرح في الانفجار عدد من المارّة، وفي وقتها، اتّهموا بائع الخضار، هو مَنْ وضعها فوق السقيفة. يتذكّر عادل أن البائع قال للشرطة كيف أكون أنا مَنْ وضع القنبلة فوق رأسي، لتقتلَني؟ هذا ما لا يقبله عقل. أطلقوا سراحه، بعد أن دفع خمسة آلاف دولار، رشوة للشرطة، مثلما شاع الخبر، وعدّوا الحادث عملاً إرهابياً، نفّذتْهُ جهة مجهولة. لذلك، يعتقد عادل مع نفسه، أنه من الخطأ الجسيم التّجمّع هكذا في أيّ مكان، بما في ذلك الجوامع، لكنْ، لا يستطيع التصريح بهذا. من الصعب الطلب من الناس عدم الذهاب إلى الصلاة في الجامع، قال لنفسه، أو التّجوّل في أزقّة الشورجة أو شارع الرشيد، الحياة ينبغي أن تتدفّق دائماً، بخيرها وشرّها.

وجدهم هناك: بائع الخضراوات، مُشغّل مُولِّد الكهرباء، سوّاق التاكسيات المتوقّفة في الظّلّ، النساء المتّجهات إلى محلات اللحوم، كلّهنّ سود، فارقت وجوههنّ رائحة التّمدّن، التّمدّن يتلاشى مع الحروب، هو يفهم هذا، ففي بلد يسوسه الموت منذ عقود، يصعب توقُّع رؤية

الفرح في الوجوه، ومرّ من أمام الفرن، فرن الصَّمُّون، فسلّم على صاحبه بحرارة، عمل معه أسبوعاً، ثمّ ترك العمل، لأنه لم يصبر على فراق الكأس.

قال له صاحب الفرن آنذاك: الزبائن تشمّ الرائحة، وهم أغلبهم متديّنون، أنتَ تقطع رزقي، إمّا تَرْك العَرَق أو تَرْك الفرن، وتَرَكَ عادل الفرن.

ما جدوى الحياة إذا لم يعبر تلك الحدود الواهية بين الصحو والسُّكْر، وإذا لم تغمّ في رأسه تلك الذكريات البعيدة، وتنبعث منها شخصيات، عاشرها في الطفولة والشباب، ثمّ تركت مصائرها بين يَدَيْه، ليستعيدها بالصورة التي يحبّها؟ ما جدوى الحياة دون استعادة الماضي في شوارع هذه العاصمة، وقد جال في أزقّتها، وتطلّع إلى نسائها الملتفّات بالعبيّ السود، الناظرات بعيون عنبية، تنضح بالشهوات المقموعة، أو التّنبّؤ بما ستؤول إليه سنواته القادمة بعد أن يبيع البيت، ويرحل إلى المجهول خلاصاً من الكآبة اليومية المستولية على جسده كلّه! كيف يحتمل تشابه الأيّام، وحرارة الصيف كلّ سنة، وغبار البلد الشبيه بيد عملاقة للعذاب، تُطبق بقُوّتها كلّها على البيوت والشوارع ووجوه البشر؟ هو ملتزم بنذره الذي نذره في إيران قبل عقدَيْن من السنين. كلا، لن يدع يوماً يمرّ دون أن يحتسي إكسير الوجود ذاك، حتّى لو وُصف بسِكّير الشارع، لا يهمّ، مادام ذلك السائل يحمله إلى ما وراء خرائط الواقع الصلدة.

في لحظة خاطفة، وبينما كان عادل يقف قرب الرصيف منتظراً فرصة لعبور الشارع، شعر بالمشهد يتوقّف فجأة، كما في السينما، سكتت الأصوات، وتجمّد البشر، وقد ارتدوا مسحة شمعية، وانتقل مَرأى واجهات الأبنية إلى زمن آخر، وانفتحت في عقله هوّة من التساؤلات: مَنْ هو؟ ولمَ هو هنا في هذا المكان؟ وما هي الجدوى من حياته الجافّة؟ هل هو شبح قادم من عالم آخر، قد يكون عالم الموت؟ لماذا يقف الآن في الشارع؟ ولأيّ غرض خرج من البيت؟

وثمّة صورة جامدة أمام باصرَيْه: تتدلّى الأجساد مقطوعة الرؤوس، تسندها كلّابات حديدية إلى السقف، الرقاب نحيلة، مازالت عليها بقايا من دم الذبح، وقد انتُزعت الأحشاء من الأجساد، وترك ذلك الانتزاع حُفراً سوداء، تندلق نحوها الشحوم العالقة باللحم في مناطق الصدر. فخذ عجل ضخم، يتوسّط لشاش الخرفان والغنم، تطير حول ذلك الفخذ زنابير صفراء، تحوم لحظة، ثمّ تهرب إلى الفضاء. نساء يقفنَ لحظات، يستمتعنَ برؤية اليد، وهي تقصّ اللحم بسِكّين حادّة، وبخبرة واضحة، وفي عيونهنّ شهوة الامتلاك. معاليق تتألّف من الكبد والرِّئَتَيْن، والقصبة الهوائية تتدلّى هي الأخرى وسط المحلّ، وتكاد تعيق حركة الرجل. أكْل اللحم، ورُكُوب اللحم، ودُخُول اللحم في اللحم، تلك حكمة بلد، لم يخرج من حرب حتّى يدخل حرباً جديدة. وتواجه العين لوحة مذهّبة، أُطِّرت في زجاج لمّاع، كُتب فيها: القناعة كنز لا يَفنى. النساء تأتي وترحل، والأطفال يتملّون دقائق في اللحوم المعلّقة، ثمّ يتابعون مَشيهم إلى جهات مجهولة. وقد تسلّل لسان أحمر من المحلّ نحو الشارع ملوّثاً بلاطات بيض مرقّشة بنقاط سوداء، كي يصبّ في مجرى ضيِّق، يسير محاذاة الرصيف.

الرائحة لا تُخطئها العين. رائحة لحم طازج، ألفها أنف عادل منذ أزمان ماضية. لحظة خاطفة، ثمّ تذكّر أنه جاء ليشتري لحماً من صديقه القصّاب، محلّه ينتصب أمامه، وحين خفّ سَيْلُ السَّيَّارات، اجتاز الشارع، ودخل إلى المحلّ.

كان الرجل يتنقّل من الميزان إلى آلة الثرم، ومن الآلة إلى الأجساد المعلّقة، منغمراً جدِّيَّاً في عمله، حتّى دون أن يلحظ الداخلين إلى المحلّ. يقال إن تهديدات كثيرة وصلت إلى أشخاص في محلّتنا، هل سمعتَ بها؟ سأل عادل بين الجدّ والهزل، وهو يُحدِّق بوجه القصّاب. لم أسمع

شيئاً جديداً، لكن كلّ شيء جائز، ألا ترى ما يجري حولنا؟ لا أحد يثق بأحد، على الإنسان في هذا البلد أن يهتمّ بشؤونه فقط، أجابه القصّاب، وصمت، وبدأ ينتظر طلب عادل من اللحم.

ذباب. المحلّ مليء بالذباب. لم تنفع لطَرْده المِروحة الأرضية التي تدور. طلب عادل نصف كيلو لحم عجل، تحديداً من الفخذ الضخم المعلّق، كما لو أنه ثريّا تُزيّن المكان، ثمّ سأل القصّاب إن كان يمتلك قليلاً من العظام، فرمقه الأخير بابتسامة صغيرة، تقول إنني أتفهّم ظروفكَ، وانحنى تحت طاولة الخشب، وأخرج له عَظْمَيْن ثخينَيْن لعجل، دسّهما مع قطعة اللحم، في كيس أبيض، ثمّ تسلّمها عادل بعينَيْن ضاحكَتَيْن، فيهما قليل من الخجل والإحراج، وقال له وهو خارج بضحكة متكلّفة دون أن ينتظر ردّاً: قريباً، سنبدأ بشراء اللحم الهندي، هندوس، لا يأكلون البقر، فيُصدِّرونه إلينا.

سلّم الكيس إلى إقبال، وعاد ثانية إلى الشارع.

***

كانت رائحة الشاي قد أعادتْهُ إلى زنزانة الأسر، وذلك الشوق القديم المختزَن لشاي الوطن، شايهم خفيف، لم يحبّه طَوالَ فترة الأسر، كانوا يضعونه في برميل ضخم، ينتهي الأسير من وجبته البائسة، ثمّ يتّجه إلى البرميل، يُعبّئ كوبه بذلك الشاي المخلوط بالكافور، وقد فسّر العارفون بالطِّبِّ أن الكافور يُقلِّل من الرغبة الجنسية، وذلك تفادياً من انتشار اللواط في قاعات الأسرى، ولاحقاً سمع، وقرأ، أن الكافور يُسبّب العقم، وعاش كابوس العقم طَوالَ تلك السنوات، إلى أن رُزق بابنه طه، فوثق من أنه اجتاز المحنة. أمّا شايه القديم، شاي الذكرى، فقد شربه في معظم مقاهي

العاصمة: الزهاوي، أمّ كلثوم، البرلمان، العشائر، البرازيلية، وكازينوات جبهة النهر، والرائحة ذاتها شعر بها تسري في فضاء الشارع، فما كان منه إلا أن يتّجه إلى مقهى الجماهير، من هناك تنبعث رائحة الشاي بطعم الهيل.

تفتح المقهى أبوابها منذ الصباح، ومعظم مَنْ يجلس فيها هم الشيوخ، وتقابل سوق الكَرَّادَة، وليست بعيداً عن صالون حلاقة سعد. كانت هناك مُويجات غير مَرئية من رائحة الشاي الثقيل، تحيط بالمكان، تتغيّر بعد لحظات، لتصبح رائحة خبز طازج خارج من الفرن، ثمّ ظلال بعيدة لرائحة حلاوة طحينية، تطردها مِروحة محلّ الكَرَّادَة إلى فضاء الشارع، تلك الرائحة التي يتذكّرها دائماً الجيل المولود بعد سقوط المَلَكِيّة قبل أكثر من ستّين سنة.

رأى نهاد جالساً وحده في المقهى، فوجدها فرصة مناسبة لاختبار سرّ هذا الرجل، ومعرفة ما يجري في المنطقة، ونهاد رجل تجاوز الخمسين، شارباه شائبان، قيل حسب ما نُمي إلى عادل أنه كان يخدم في جهاز أمني للنظام السابق، وحين قرّر الجيش الأميركي الدخول إلى المدينة، وبدء معركة الفلوجة الأولى، حمل عائلته، وجاء إلى الدَّوْرَة. اشترى سيَّارة عتيقة، حوّلها إلى تاكسي. بيته لا يبعد سوى عشرين متراً من المقهى، باتّجاه شارع السّتّين. ابنه عبّود أصبح شاغله الأوّل والأخير، كما سمع عادل من أقاويل شارع الدير. منذ اعتقال ابنه وهو يندفع في نفق الوساطات والتحقيقات ومراكز الاحتجاز والرشاوي.

المقهى ذات هيئة مهلهلة، التخوت من الخشب العتيق، والطاولات بلاستيكية بدت عليها آثار حروق سجائر، وبقع قديمة من الشاي الثقيل تجمّد، وأصبح شبيهاً ببقع الدم، رائحة المقهى عطنة، لكثرة الدخان في فضائها، والأرضية مصنوعة من الإسمنت غير المستوي، حيث كان بعض

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

الزبائن يُلقي بأعقاب السجائر، ويبصق على الأرضية، أو يُلقي بقايا التَّفْل، بينما كانت غرفة النار ذات وهج لا يُحتمَل رغم هواء المُبرِّدة التي كانت مركونة في الخارج، وتُطلق هواء رطباً، فيه برودة خفيفة سرعان ما يمتصّها الجوّ الحارّ داخل المقهى.

ما يعرفه عادل أن هذه المقهى افتُتحت في نهايات الحرب العراقية الإيرانية، ولم يكن هو موجوداً في البلد كلّه، كان أسيراً، ولعقود ماضية، شهدت عدداً لا يُحصى من الحفلات، ومباريات تاريخية لكرة القَدَم كانت تُعرَض على تلفازها الصغير، وما لا يعرفه أنها كانت وكراً خطراً لرجال الأمن لرصد أيّ كلام يقال حول الحكومة ورئيسها، أو أيّ شابّ يتخلّف عن واجباته في الحروب المتعاقبة.

وعادل ليس من الزبائن الدائمين للمقهى، فهو لا يحبّ الاختلاط بالناس، لا تأتي منهم سوى المشاكل، يكرّر القول دائماً في أذن إقبال زوجته حين تملّ من جلوسه الدائم في البيت، وترجوه أن يخرج إلى الشارع، ويختلط بالبشر، لكنه، بين الحين والآخر، تجذبه رائحة الشاي الثقيلة ممتزجة بالهيل، فيتناول كوباً من الشاي مع سيجارة فايس روي، ويركن على التخت، يرقب المارّة بمتعة، وهي متعة فائقة، يحنّ إليها بين حين وآخر، خاصّة في النهارات الشتوية، حين تكون السماء مُظلّلة بالغيوم، وتكون جمرات الفحم تلهث في بيت النار تحت (قواري) الشاي. يستمع إلى آخر الشائعات، والقصص التي تحدث في العاصمة، وأخبار مَنْ هاجر أو قُتل، دون أن يُبدي أيّ رأي في ما يسمع.

وجد نهاد جالساً قرب الشارع، على تخت خشبي بلا فراش، كان وحده، يُحدِّق في سيَّارته التاكسي المركونة أمام محلّ جميلة، يحتسي الشاي الثقيل، ويمصّ سيجارته من نوع جيتان رفيع، ويعبث بمسبحته

الطويلة ذات اللون العقيقي، المسبحة التي لم تفارق أصابعه يوماً، وبعد لحظات من جلوسه مع نهاد، فاجأه عادل بالقول دون مقدّمات، وهي طريقة يستخدمها، كي لا يدع للمقابل فرصة للمراوغة أو التفكير:

- واحد من الجيران تلقّى تهديداً، وضعوا له رصاصة في ظرف وجده في سيَّارته، لا نعرف ما الذي يدور في هذا البلد، العاقبة ستكون سيِّئة، إذا استمرّت الأوضاع هكذا، ورسم ابتسامة عريضة، كَمَنْ جاء بنُكتة مضحكة، ثمّ سكت لحظات، وحدَّق إلى وجه نهاد منتظراً ردّة فعله.

نهاد شخص لا أحد يصل إلى معرفته تماماً، هو يختلف عن عادل، ما في قلبه على لسانه، أمّا هذا الرجل، فيمكنه أن يضع القناع الذي يرغب، وفي أيّ وقت. شَعْر أشيَب، عينان صغيرتان حادّتان، وجه مستدير يُخفي ما يدور في رأسه، ويتعذّر على مخاطبه معرفة إن كان صديقاً أو عدوّاً. وعادل متأكّد أن نهاد يعرف الكثير عمّا يجري في المنطقة، بحكم عمله سائق تاكسي، لكنه اعتاد أن يظلّ صامتاً مثل جدار، وتحت مختلف المواقف.

ردّ على عادل بنبرة خالية من المشاعر:

- أكيد الدراويش، هم بأعينهم، هدّدوا أكثر من عائلة في الدَّوْرَة، قال نهاد ذلك بثقة مطلقة، تجلّت بوضوح في تعابير فمه الصارم، ثمّ سكت لحظة، وارتشف قليلاً من الشاي، ومصّ سيجارته بقُوَّة. أطلق الدخان باتّجاه الشارع، وهو يراقب سيَّارته الصفراء الواقفة أمام المحلّ، ذلك كلّه وسط تعابير مُغلَقة، لم يتهيّأ لعادل استقراءها. هنا في الدَّوْرَة تنتشر مجاميع كثيرة: الدراويش، التنظيم، الميليشيات، السرايا، الكتائب، وأنا أرجّح أن يكون صاحبك قد هُدِّد من ثلّة الدراويش، فهم ناشطون هذه الأيّام. كلّ شيء بيد الله، أوشكتُ أن أذهب لأداء الصلاة في جامع النور

تلك الليلة، قفلتُ السَّيَّارة، وقرأتُ الفاتحة على أرواح الشهداء، وما كدتُ أخطو خطوَتَيْن نحو الجامع حتّى صاح عليّ واحد من الزبائن طالباً منّي إيصاله إلى شارع أبو نؤاس قرب الجسر المعلّق. طمعتُ في النقود، فعدتُ إلى سيَّارتي، ذلك قَدَر من الرحمن، قليل من الطمع أنقذني من الانفجار.

هناك ضربات لقطع الدومينو تصل من عمق المقهى، وقهقهات لمجموعة، ترتشف الشاي، وتتشارك في حديث مثير، ونداءات للزبائن، توصي على الشاي والليمون والمرطّبات، وثمّة ضجيج لمُبرِّدة، تطلّ من حائط جانبي، تسكب هواء رطباً سرعان ما يضيع في حساء الحرارة القادمة من شوارع الإسفلت والحصى والتراب المعجون بالمياه المتسرّبة من المجاري.

في اللحظة ذاتها، شاهدا عدداً من المراهقين بأعمار، لا تكاد تصل العشرين سنة، بأزياء غريبة، يقفون أمام باب الحلاّق، هيئاتهم غير مألوفة في المكان، معظمهم يحتفظ بسكسوكة صغيرة مع إزالة الشارب، أو بقصّات شَعْر، وفدت حديثاً إلى البلد، مع دخول الجيش الأميركي، وتلك الموضة هي حَلْق جانبَي الرأس مع تَرْك القِحْفِ فقط. كان الحلاّق سعد يقف معهم، بوجهه الأسمر وحاجبَيْه الرفيعَيْن، وسكسوكته الناعمة، وكأنه الأيقونة التي يُبجّلونها، وبين حين وآخر، يغادر أحد الشباب إمّا مشياً أو بسيَّارة صغيرة، أو يفد آخر جديد. يتهامسون، يضحكون، يشيرون إلى المارّة خاصّة الفتيات والنساء، يتبادلون سيديهات، وفلاشات، ويتحلّقون بعض الأحيان على شاشات الموبايلات ذات الأشكال، والأنواع، والأحجام، المختلفة والغريبة.

كلّ ما فيهم مثير وغير مُطمئِن، كان نهاد يفكّر بعبّود، في أثناء تحديقه بسيَّارته، وبهؤلاء المراهقين غريبي الأطوار متجاهلاً وجود عادل المستكين على الأريكة بحذر.

أيّ تنظيم قلتَ؟ هناك مئات منها تنامت مثل الفطر بعد المطر، استفسر عادل مستغرباً، وعيناه لا تفارقان حركة الشباب أمام محلّ الحلاقة وسيَّارة نهاد.

تنظيم الدراويش. تعرف هناك طُرُق للدراويش، منها الرفاعية، والقادرية، والبدوية، والكسنسانية، والشاذلية، وغيرها، في طفولتي كانوا يأتون مع دفوفهم ودرابيشهم وسيوفهم، يُحيون الذِّكْر في ليلة الخميس، يُنشدون قصائدهم على الدّفّ، تمُجِّد الرسول وأهل بيته، أو يلتهمون الجمر، ويدكّون سيوفهم ودرابيشهم في رقاب المريدين وبطونهم. اسمعْ هذه القصيدة: ذخر وسناد للقايم على الهادي/ يبو قباب الذهب محسوبك ينادي، وكان المريد ينشدها على إيقاع الدَف، والزَّبَد يتطاير من فمه، وضوء اللوكس يجعل من الحاضرين مخلوقات خرافية، كان الدراويش المنشدون، أَكَلَة النار، ممّنْ يتبعون القطب عبد القادر الكيلاني، يفدون إلى ديارنا قادمين من مدينة سامرّاء، أتذكّر لحدّ الآن أصواتهم وملابسهم وعمائمهم الخضر والنور الخفي المنبعث من وجناتهم، ورائحة البخور، والبَسِيْسَة التي توزّع في فترات الاستراحة، أتعرف ما هي البسيسة، يا عادل؟

- كلا، تعرف نحن أبناء مُدُن، ليس لنا علْم بأشياء القُرى والبلدات، قال عادل، قضيتُ حياتي في بغداد، بين حَيّ الدّوريّيْن وباب الشيخ وبغداد الجديدة، إلى أن رماني القَدَر في منطقة الدَّوْرَة.

- البسيسة هي تمر من نوع خستاوي، يُعجَن مع السمسم والدهن الحَرّ، ثمّ يُقدَّم للضيوف، خاصّة في ليالي الذِّكْر أو العزاءات، ويقال إنهم أقوياء في الدَّوْرَة، وقتلوا عدداً من الموالين للحكومة الجديدة أو هدّدوهم، ويعدّون كلّ مَنْ يعمل في الدولة موالياً للحكومة.

- لكن الرجل موظّف بسيط في الدولة، موظّف يعمل على الكومبيوتر، لا أكثر ولا أقلّ. لم يؤذِ نملة في حياته.

وفجأة نهض نهاد من التخت، وقال لعادل شايك واصل، ثمّ بخطى عجلى، دفع النقود، واتّجه إلى سيَّارته، ورأى عادل شخصاً يقف جوار السَّيَّارة، اعتقد أنه راكب، يرغب في الذهاب إلى مكان ما، وكان يتحدَّث مع جميلة أمام محلّها، ويبدو أنها رسمت إشارة متّفقاً عليها لنهاد، تعني وجود زبون، لذلك نهض متعجّلاً، ومضى عابراً الشارع نحو السَّيَّارة. وفيما كان الشباب غريبو الأطوار يتجمّعون أمام محلّ سعد الحلاّق، خرج عادل من المقهى، وعبر إلى الجهة الثانية من الشارع، وهو يفكّر بما أخبره به نهاد عن تنظيم الدراويش، وحين حاذته سيَّارة كيا، أومأ للسائق بالوقوف، وصعد متّجهاً إلى منطقة جسر الميكانيك.

***

وذلك لأن الإكسير حضر في رأسه فور مغادرة نهاد، لم يجد من سبيل سوى التّوجّه إلى هناك، إلى تلك الواجهة الزجاجية المعتمة.

راح يتأمّل شارع الميكانيك والحياة التي تعدو فيه، غير عابئة بما يحيطها من أخطار. غير عابئة بمَنْ مات أو هاجر، بمَنْ خُطف أو اغتِيل. محلّ السيديهات، محلّ الخضرة، مُصلِّح المراوح الكهربائية والمُبرِّدات، المخبز، محلّ الموبايلات، سوبرماركت الفرقان إلى اليسار، مصنع النوافذ والأبواب إلى اليسار، مكوى النسور للملابس والسَّجَّاد الذي كانت إقبال ونور وجميلة عادة ما يجلبنَ السَّجَّاد والبطّانيّات إليه لتنظيفه. وهو يتطلّع في ما حوله لم يفارقه ذلك الإحساس الذي انتابه بعد خلاصه من الأسر: كما لو يجد روحه في هذه الحياة للمرَّة الأولى، مازال هناك رجال يلبسون

الدشاديش البيض، يسيرون متعجِّلين في الشارع أو يتوغّلون في الأزقّة دون هدف محدّد، وأطفال تقودهم أمّهاتهم مُمسِكات بأكفّهم الصغيرة، وشيوخ يجلسون أمام محلاتهم على كراسٍ من البلاستيك، يتطلّعون في المارّة باستغراب، ومُصلِّحو سيَّارات، تتلوّث بناطيلهم بالزيوت، يُعلّقون سجائرهم في أفواههم بكسل، وسائقو سيَّارات يتبادلون الشتائم فيما بينهم إثر تزاحم على اجتياز الطريق، أجل، مازال يلمح الذعر في وجوه الجميع، نساء ورجالاً، أبواب بيوت مُغلَقة، وواجهات حوانيت مفتوحة على الفراغ.

لم يُصدِّق عادل قصّة الدراويش، إن كانوا دراويش، ويضربون الدرباشة، والسيخ، ويُنشدون قصائد للرسول وآل بيته على الدّفّ، كيف يهدّدون رجلاً مسالماً بالقتل؟ لكن كلّ شيء جائز، في الأسر، الأشدّ عداوة لهم كانوا معمّمين، وفي الحقبة الأخيرة، دخلت العمامة في السياسة، وهذا ما يراه يومياً على شاشات التلفزيون.

كانت عيناه تبحثان عن الواجهة الزجاجية، المعتمة، حيث محلّ بيع المشروبات الكحولية الذي صار مالكه صديقه، وهو شخص من الموصل، كما قال له في اللقاء الأخير، ربمّا هو يزيدي أو مسيحي لم يعد يتذكّر، لكنْ، لا يهمّ، المُهمّ وجود ذلك السائل الإلهي الذي ينقله إلى جزر السعادة، والمتعة، والخيالات المجنّحة، ولا تلبث سنين عمره أن تندمج بعضها ببعض، تزيح المؤلم، وتلوِّن المبهج، تفكّ أسار خيالاته، كما لو كانت تنطلق من جزر نائية في روحه.

لمحها، القطعة الخشبية المكتوب فيها محلّ (النخلة)، واستغرب من اختيار هذا الاسم لمحلّ مشروبات، وكان المحلّ ينزوي خائفاً، بين محلات الشارع، أو هكذا أحسّ به عادل حين لمح الواجهة الزجاجية.

استهداف محلات بيع الخمور ليس بالأمر الجديد، رافقتْهُ موجة من تفجير بيوت العبادة وقَتْل الحلاّقين والمخنّثين، كما سمع في الآونة الأخيرة، ولا يمكن نسيان تفجير الجسور، وحَرْق محطّات الطاقة، وتفجير السكك الحديدية، واغتيال النساء المشتغلات في بيع الجسد، والصحافيّيْن والأطبّاء. صار الشاري للخمور مثل لصّ مُطارَد، يتسلّل خلسة إلى الباب، يشتري طلبه، يضعه في أكياس سوداء، ثمّ يبتعد عن المكان بأقصى ما يمتلك من سرعة وشجاعة.

صفعته الرائحة اللذيذة، رائحة المستكي، وحبّة الحلوة، المزيج الروحي المسكّن، والدواء، الإكسير الذي يلخّص له سنوات حياته، ويُلوّنها بتفاصيل من قوس قزح، النافذة التي تفتح له كوّة إلى الجنّة، السّلّم الذي يرتقيه نحو المطلق المصنوع من السكينة والخدر والرخاوة.

وجد بائعين هناك، واحد منهما يتناول وجبة من الكباب الساخن مع البصل، والطماطم المَشوية، وقربه كأس كبيرة مثلّجة من اللبن، والآخر منشغل بترتيب الرفوف المكتظّة بالمشروبات: قناني البيرة الزجاجية، والعلب، موضوعة في ثلاّجات أفقية، قناني العَرَق مركونة على الرفوف، وخانة الويسكي والجِنْ والفودكا تحتلّ الخزانة المواجهة للباب.

طلب قنّينة عَرَق عراقي من نوع العصرية، وعلبَتَيْن من بيرة الهاينكن، وكيساً من الفستق الحلبي. دفع النقود، ورزم المشتريات في كيسَيْن أسوَدَيْن من البلاستيك، وعاد سريعاً إلى البيت، هارباً من البشر.

***

ما قصّة هذا التنظيم الجديد؟ ولماذا يضعون رصاصة تهديد لجلال مَلَك، هو حتّى لا يختلط بالجيران، من دائرته إلى بيته، حين يقف معه أو

يجلس على المصطبة، يسمع أكثر ممّا يتكلّم، عادة ما كان يُنصت له وهو يتحدَّث عن معاناته حين كان أسيراً، لكنه لا يُعلّق على الأحداث، ونادراً ما يقع المرء على شخص، يمتلك موهبة الإصغاء مثله.

هنا الجميع يُثرثرون. وكأن الثرثرة إثبات لقُوَّة الشخصية ووجودها. أو ربّما لإثبات المرء لنفسه أنه مازال على قيد الحياة. لم يجد إقبال في البيت، أخذت الأولاد، وذهبت إلى أختها سعاد، وأمّهما العمياء، في بغداد الجديدة.

كان البيت فارغاً إلا منه، فراغ يُذكِّره بزنزانات الأسر، بتلك السنوات الخائبة التي انقضت من عمره، كأس من السائل الأبيض، قِطَع من الليمون، فخذ دجاج تركتْهُ له زوجته، رغم أنه كان يحلم بصحن تشريب، يتربّع عليه ذلك العَظْم الضخم، وعلبة دخان فايس روي، وجلسة على الأرض، وهواء بارد مع أنه مُشبَع بالرطوبة، تنثّه المُبرِّدة الموضوعة في الخارج، تحت ظلّ النخلة.

لا شيء في حياته يمتلك قيمة، بعد أن اجترّت الحروب، والسواتر الترابية، وزنازين الأسر، كلَّ ثانية من عمره، ومع أوّل رشفة من الكأس، ارتسم في خياله السؤال ذاته، السؤال الذي تكرّر لسنوات طويلة ماضية: لماذا حدث له ذلك؟ ومَنْ هو المسؤول عن تساقط أسنانه، وتشوّش عقله، وخوفه الباطن الذي يلازمه منذ الصباح وحتّى الليل، كما لو كان أسيراً لا يزال في أرض بعيدة، تفصله عنه جبال ووديان ومعارك؟ كم قملة قتل خلال تلك السنين، من رأسه وملابسه؟ وكم مرَّة حكّ، وحكّ، ساعدَيْه ورجلَيْه ورقبته وإبطَيْه من الجَرَب الذي تفشّى فيه؟ وتلك الذكريات العجيبة المنثالة على رأسه، كلّما أغلق عينَيْه استعداداً للسقوط في بهجة النوم، تلك السيول من ذكريات طفولته والمدارس التي درس فيها ووجوه

الأقرباء وقصص الحبّ الشاحبة الصبيانية، وقد عاشها ذات يوم في كنف أسرة ومجتمع لم يزل متماسكاً. رائحة البطّانيّات المقيتة، رائحة الأنفاس المحصورة طَوالَ ساعات وساعات بين أربعة جدران، وفوق ذلك اليأس من المستقبل، ومغازلة الموت اليومية، وذلك الطعام الرديء، المليء بالسوس والحشرات الدقيقة، وسوط المواعظ الذي لا ينقطع عن الأنين.

والجلسة ذاتها، متربّعاً على المفرش، عيناه تنظران إلى نقطة أبعد من التلفزيون المُطفَأ، والستائر ذات الأزهار الحائلة اللون، والمقاعد المهترئة التي تحيط به في ما يُدعى بصالون الجلوس، وهو يتساءل مع نفسه عن الجدوى من وراء ذلك؟ الجدوى من الاستمرار في هذه الحياة فاقدة اللون والطعم. إنه أسير. رشفة من السائل الأبيض الحادّ المذاق، والمُطعَّم بحبّة اليانسون، ومصَّة من قطعة الليمون، ودفقة من سيجارته التي لا تفارق شَفَتَيْه، كان يُصرّ على حَرْق ما تبقّى له من جسد ضامر.

جلال مَلَك لم يذقْ طَعْم الأسر، صحيح أنه عاش فترة الحصار، لكنه لم يُسجَن بين أربعة جدران، وبين لُغة لا يفهمها، لا يذكر سوى الآب كوشت والجلو كباب وسجائر البهمن والآزادي، والشعارات الدينية التي تعلن الحرب على الجميع. صور غامضة لتلال الثلوج في شتاءات بعيدة، ونساء يلتحفنَ الشادور الأسود، وغربان تنعب عالياً بين أغصان الحور والسرو، تنبت في ساحات محيطة بمعسكرات الأسر. حدث الكثير منذ أن غزاهم الأميركان، جلبوا معهم العجائب، الموديلات الغريبة في الحلاقة، حركات الشباب، الفياغرا، الأسماء، فتحوا لهم عالم الإنترنيت والفضائيات والألعاب والموبايلات، والأفلام الجنسية التي رآها تُباع علناً في أسواق الباب الشرقي.

تقول زوجته إقبال إن طه كان يشاهد أفلاماً جنسية في غرفته قبل أن

يسافر إلى تركيا، وكثيراً ما شَمّتْ رائحة المَني العطنة كثيفة في غرفته.

أين كان ذلك كلّه مختزناً؟

لكن نهاد يقول إن التنظيم هم دراويش حالهم حال الرفاعية والبدوية والكزنزانية!! لم تجلبهم أميركا، إذنْ، كما جلبت السماسرة والمرتزقة والإنترنيت وأفلام السيكس والقذائف المعبّأة بالموادّ المشعّة، في عاصفتها الصحراوية الشهيرة التي سبّبت الأزمة على هذه الأرض ذات يوم نيساني. لكنْ، لمَ يهدّدون هذا الرجل المسكين جلال؟ مَنْ هم جيش الطريقة؟ وماذا يعملون في الدَّوْرَة؟ هل يعرف أحداً منهم في شارع الدير؟ طبولهم تقرع في رأسه منذ عشرين سنة، راجمات ومدافع وطائرات ورصاص، وشبابه الذي تحوّل إلى ذرة غبار، ذرة في غبار المعارك.

رأى الأريكة صانتة، والتلفزيون يُسفر له عن ابتسامة مراوغة، وطاولات الشاي تلتصق خائفة بالأرائك، والحرارة في الخارج تتغلغل في ثمار النخيل، كي تصنع العسل مثل نحلات سماوية. هؤلاء لا يمزحون، وقد نظّموا أتباعهم في جيوش وعصائب وفصائل وعصابات، فكّر وهو يغور في سنوات من الدم والألم، هؤلاء الذين توارثوا القتل والدم جيلاً فجيلاً، وما على جلال مَلَك سوى الرحيل، نفذ السهم، وانطلق إلى الهدف، عليه أن يجد مكاناً آخر. لمَ لا يعود إلى بلدته؟ وسمع مروحية تحوم فوق البيت، تقترب، ثمّ تبتعد، صوتها يُذكّره بتلك السنوات الكئيبة، وهل هناك شيء في هذا الوجود لا يُذكّره بتلك السنوات الكئيبة؟ تساءل عادل وهو يُحدِّق في الهواء، وفي الذباب، وفي الرطوبة، ورائحة البيت العفنة، وبقايا الملابس العتيقة، والمجارير المختفية تحت الأُسُس، والصمت الناطق الذي يجول في أركان البيت، صعوداً نحو الطابق العلوي، حيث سكن ابنه طه ذات يوم، ونزولاً حيث كأس العَرَق، وهو يتراقص تحت بصره.

أطال التفكير بزوجته المتوفّاة، واقتنع مزيداً من القناعة أن حياته تتبخّر من بين يَدَيْه مثل قطعة ثلج في ظهيرة تمّوزية حارّة.

حين طرق الباب، كان عادل يجول بذاكرته في زنازين الأُسر الموجودة في معسكرات أراك، ومعسكر بروجند، ومعسكر الحشمتيه، وبرندك، ومعسكر تختي ودزبان مركز في طهران ومشهد. الزنازين التي سترافقه حتّى القبر.

فتح باب البيت، وصفعتْهُ حرارة النهار ووهج الشمس وسموم الفضاء المتساقطة من سَعَف النخيل وثمار النارنج الفجّ وبلاطات السياج وأسفلت الشارع. بمواجهته، وقف ثلاثة أفراد من الشرطة الاتّحادية على بُعْد أمتار من الباب، أحدهم شخص تبدو عليه مسحة من الدماثة، يحمل في يده عدداً من الأوراق، طلب منه ملء واحدة من الاستمارات، تخصّ السَّكَن، وهل هو مالك أم مستأجر، مع طلب عقد الإيجار أو سند التّملّك، ثمّ اسم القاطن الرباعي، والبطاقة التموينية، وصورة عن الجنسية، وشهادة الجنسية، وبطاقة السَّكَن أو تأييد السَّكَن من المجلس البلدي، ونوع السَّيَّارة إذا كان القاطن يمتلك سيَّارة، ورَقْمها، وعدد أفراد العائلة. هذه هي المرّة العاشرة تُوزَّع فيها مثل هذه الاستمارات، كما يتذكّر عادل، في شارع الدير.

قال له الشرطي غداً نمرّ على البيت، ونستلم الاستمارة مع المستمسكات، ودّعه، ثمّ مضى إلى البيت المجاور.

بيوت الجيران وحدائقهم ما تزال هناك، المارّة، والسماء المصفرّة وذبالات النخيل المتسامقة في الفضاء، كلّ شيء في مكانه، وكانت أبخرة العَرَق تتصاعد من رأسه مثل حمّامات بيت جميلة التي تسكن أعلى السطح، مثل غبار منطقة المعامرة الرعوية، مثل الأذان الذي عاد إلى السماء رغم الانفجار، ولمح جواد يجلس وسط عربته أمام بيت جلال مَلَك

تحت ظلّ شجرة الزيتون، وكان نائماً في الظّلّ، يحلم، كما تصوّر عادل، بلعب أطفال، ونقود، ومياه نظيفة، وهواء بارد، وربمّا بعدد من الدفاتر التي يستطيع رسم خيالاته فيها، بألوان مائية، كان يعثر عليها في مزابل شارع الدير ونفاياته.

سيخبر جلال مَلَك بما سمعه عن الجهة التي تقف خلف الرسالة، لكنْ، ليس الآن، كما فكّر. مساء ربمّا، أمّا اللحظة، فعليه أن يواصل كابوسه الطويل على مذاق السائل المشبَع برائحة اليانسون، وكان هناك سرب من النمل، يتسلّق الحائط بإصرار، وعظايا ركضت خائفة نحو شقّ بارز في واجهة السقف، لتتغلغل بين قضبان الحديد النافرة من ثنايا الخرسانة، وقطعة مستطيلة من السواد تلتصق بباب الدخول، وشاشة تلفزيون صغيرة، تتراقص عليها ظلال شجرة، تنمو في الجهة الغربية من البيت.

***

وليس بعيداً عن بيت عادل، رغم أن المساء الزاحف على البيوت مساء مشابه، كان جلال مَلَك يفكّر بالمشكلة ذاتها، حدَّق بفراغ الشارع، ومنحوتات الشجر الصانت، وتساءل مع نفسه: هل كان من الحكمة إخبار عادل بقصّة الرصاصة؟ وما عساه ينفع في تجاوز هذا الخطر؟ يعود إلى شبح الرصاصة، فهي هاجس دائم، اتّجه إلى الطابق الأعلى، نحو مكتبه، توقّف كالعادة أمام شبَّاك الدرج، ونظر إلى الشارع، وفكّر في كثافة الحزن المستولية على البشر في هذه الساعة، الحزن والخوف واليأس، والمصائر المرعبة التي تطال الجميع. كأن الفضاء يعكس بدقّة روح المدينة.

ضوء المصابيح الخارجية يميل إلى البرتقالي، ضوء يُحوِّل أغصان شجرة الزيتون قرب الباب إلى جسم منحوت صلد وثابت، البيوت المقابلة تنام

على الخوف مثله، وسط توقّعات وإشاعات وشكوك. الشارع مهجور، يُسمَع أصوات سيَّارات قرب الدير، لا نباح لكلاب، ولا صياح لديوك المعامرة الذين نُكبوا، ويتناهى إلى سمعه، من جهتهم، عويل متقطّع، صرخات الأحياء، نزيف العيون، وهي تتفقّد الغائبين إلى الأبد، الوحشة، وحشة الأسرة، الملابس، النظرات السابقة، الضحكات، ذلك كلّه يتحوّل في الليل إلى عويل.

وجد الغرفة ساخنة بعض الشيء حين دخلها، أشعل الضوء، فراشه على التخت مرتّب جيِّداً، كُتُبُهُ هناك في المكتبة الواطئة، هل ينفع العلم والمعرفة في هذا البلد بدرء الموت، والرعب، واليأس؟ مئات الأطنان من الكُتُب لا تعني شيئاً أمام الدم الذي لطّخ صفحات الشوارع والساحات، الدم الذي اختلط في تراب الأرض، فأصبح عنواناً لشعب، يُذبَح.

وكانت هناك ظلال لكائنات حَيّة، تختبئ في زوايا الغرفة، تساهم بتكثيف الوحشة، وتستدعي التّأمّل فيما يجري، وهناك ذلك المنظر الثابت لشبّاكه المفتوح المُطلّ على ذرى الأشجار في البيت المقابل، وشبح غير مَرئي لجواد، يدفع عربته من مكان ما متّجهاً نحو بناية الآلوسي، حيث تسكن أمّه وأخوه.

سحبتْهُ أفكاره قبل أن يدخل إلى فضاء الكومبيوتر نحو وجوده في شارع الدير، قبل شهر فقط، أكملوا سنة في هذا المشتمل، وسَنَتَيْن تقريباً في شارع الدير، لم يُذكّر نور بهذه المناسبة مع الفارق الكبير بين البيتَيْن، بيت الدَّوْرَة وبيت المشتل، بيت المشتل شهد أوّل الخطوات في تجميع الأثاث، الأساسيات كما تُسمّيها نور، حيث لا يمكن وصف بيت بالبيت حقَّاً من دونها. الثلاجة، المجلى، الطّبّاخ، المُبرِّدة، السرير، خزانة الملابس، خزانة المواعين، أواني الطبخ، ثمّ يوماً بعد يوم، تأتي الملحقات، المِروحة،

علاّقة الملابس، المكوى، خلاط العصير، سجّاد الشتاء، اللحف، الحشايا، المِخَادّ، المكتبة الخشبية، منقلة شوي اللحم، أسياخ الكباب والتّكّة، حتّى سنّارة صيد السمك جزء من حميمية البيت، ولكلٍّ قطعة من تلك الأثاث قصّة ذات تفاصيل وظلال وذيول.

المنقلة على سبيل المثال. كان جلال مَلَك يضعها في الحديقة، ويُشعل النار في فحمها، بعد أن يكون جهّز مع سامي ورامي أسياخ اللحم والبصل والطماطم. في الشتاء، تصبح تلك النار مثيرة للوَلَدَيْن، يرى ذلك في عيونهما العميقة السواد التي تنظر إلى الجمر بعجب، المنقلة بأسياخها وجمرها عالم خيالي، يتذكّرانه بين الحين والآخر، كما لو كان مغامرة متفرّدة، قاما فيها. هي أيضاً تتحوّل بعض الأيّام إلى بساط طائر، ودَبَّابَة أميركية، وزورق يقود الوَلَدَيْن إلى مغامرات بَحْرِيّة في القطب الشمالي وأنهار أفريقيا وشواطئ الهند، كما شاهدا ذلك في القناة الوثائقية.

المنقلة تلك لمحها مركونة تحت شجرة الزيتون، نظيفة، باردة، أرجلها مرفوعة إلى السماء، تحنّ إلى ليل الشتاء وسنى النار. ليس من السهل أن يكون الإنسان مهدَّداً، كما هو عليه الآن، غير واثق من الغد، ولم يعد يشعر بالقناعة في بيته.

المكتبة الحاملة للكُتُب جلبها من سوق الموادّ المستعملة القريب من جسر النهضة، ورغم أنها من الخشب، وذات لون بُنّيّ جارد، لكنه صرف نهاراً كاملاً لإيصالها إلى البيت. التلفزيون، لاقطة الإنترنيت، المُبرِّدة الإيرانية، سيَّارته البرنس البيضاء، لكلّ مفردة حكاية، تلك عيِّنة من تاريخ جلال مَلَك مع أثاث البيت.

كان ينظر إلى الكُتُب، ويبتسم، أوّل ابتسامة تظهر على وجهه بعد

مجزرة الجامع. إنه بحاجة إلى أطنان من الكُتُب، وفي مختلف المعارف والاختصاصات، لمعرفة ما يجري في هذا المكان.

فتح الكومبيوتر، وذهب مباشرة إلى قائمة أصدقائه في الفيسبوك، واستعرض ما كتبوه: بعضه تفاهات شخصية، وبعضه مناقب وإنجازات لصاحب الصفحة، وصور أُخذت في أماكن عامّة، لا في البلد فقط، بل في مُدُن بعيدة، يسمع بها، ولم يرها في حياته. شبّه الفيسبوك بالمقهى التي يجلس فيها عادل، مقهى الجماهير، والتي تضمّ الحَسَنَ والقبيح، رائحة الهيل ورائحة البصاق، التماعة الصيني المزخرف، وعفن خشب التخوت، اللّصّ مثل عبّود الكهربائي، والشريف مثل (أبو نغم) زوج جميلة، سعد الحلّاق الأنثوي، ونهاد الذي كان يعمل في الأجهزة الأمنية، وفكّر أن يكتب على صفحته سَرْداً لما جرى له في الشهر المنصرم. الأفكار والجمل كلّها التي استعرضها في رأسه، وجدها تافهة وشاحبة وعقيمة. لا يستطيع نقل المشهد بكلمات، كيف يمكن التعبير عن نظرة الرعب، ورأس العَظْم المتشظّي، والجِلْد المحروق، والقَدَم المقطوعة الراقدة جنب صبّة الكونكريت، والملابس الجديدة التي التصقت بجرح في الصدر أو البطن؟! وهل يأتي بجديد، إن فعل ذلك؟ البلد يمارس الاستمناء الدموي ذاته منذ عقد من السنين، والقصص ذاتها، وإن تبدّلت بعض التفاصيل.

قاطع أفكاره، وشتّتها، ضجيج باب الجار الأيمن، وقد عاد بسيَّارته في هذا الوقت المتأخّر من الليل. مَنْ أنتَ، أيّها المدعو (أبو هند)؟ صديق أنتَ أم عدوّ؟ طيِّب أم شرّير؟ قاتل أم ملاك، مُهمّته رفع الألغام، كي لا تتحوّل الأجساد إلى ذرّات لحم تتساقط مثل مطر تشرين على الأرض الخراب؟

الأناشيد ذاتها، الأناشيد الدينية مصحوبة بهدير أصوات واثقة، مُهدّدة،

مُنذرة، لم يستطع فَهْمها. كانت كما لو أنها خارجة من بئر مظلم. من قرون صفر من الزمن، والسكون الميّت، والجهل المحتفي بنفسه.

سمع خطوات نور وهي تُدخِل رامي إلى الحمّام للتبوّل، وأزيز المُبرِّدة بإيقاعه الرتيب، ونداء صرصار على أنثاه، وأناشيد الدّفّ من خلال حديقة الجار، ومواء قطّة يقظة، تكمن لفريستها وسط واحدة من بيوت شارع الدير، وأحاديث عالية النبرة قادمة من الحمايات العسكرية القريبة، سمع ذلك كلّه، قبل أن يدخل في قوقعته الأثيرة، قوقعة البرّاقة التي يشعر في داخلها بالأمان التّامّ.

كتب جلال مَلَك بوسته الذي سيمحوه بعد إنجازه، كما ظلّ يفعل ذلك طَوالَ الأشهر الأخيرة، وكان حول نور، وكيف تحسّ بخمود رغبته في الجنس، مقارنة بما تسمع من نساء الجيران، وكيف يتعامل أزواجهنّ في قضية الجنس. جميلة تقول إن (أبو نغم) لا يستطيع الصبر عنها أكثر من أسبوع. إقبال تُخبرها أن عادل له طقوس خاصّة في المضاجعة. يفرض عليها، ما إن ينام الأولاد، لبس النفنوف الخليع، والتّزيّن بكثافة، والرقص، ووضع العدسات الملوّنة، لكي تصبح شبيهة بهيفاء وهبي. يريد، كما قالت إقبال، أن يضاجعَ هيفاء المُغنِّية. تقولها وتبتسم بمكر واستهجان. مثل هذه الحكايات ترويها نور، وهي تدرك أن ثمّة سببا لخفوت رغبته في الجنس، تُفسّرها حسب ما أوحت له بانغماره بالأفلام (الثقافية) التي تقتل كلّ رغبة في المرأة. تجعل الرجل يقارن زوجته بنساء أخريات، ربّما يكنّ أجمل أو يُلبّينَ مواصفات مثالية عند الرجل. أولئك الممثّلات، تقول، يُنْتَقَيْنَ بدقّة لإرضاء الأذواق جميعها. ألا يهيم جارنا عادل بالمُغنِّية اللبنانية هيفاء وهبي؟ صديق في الدائرة يعشق الممثّلة الإيطالية الفاتنة صوفيا لورين، وغيره يعشق فاتن حمامة أو المُغنِّية صباح، أو حتّى سليمة مراد

في شبابها. لا تدرك نور أن السبب لا يكمن هنا، بل في هذا الواقع الذي يعيشه، كيف يمكن الإقبال على متع الحياة حين يرى الشخص مناظر الدم والقتل كلّ يوم؟

كلّما سمع انفجاراً في أثناء ما يكون في العمل، والانفجارات عادة ما تحدث في الصباح، يشيح بوجهه جانباً عن شاشة الكومبيوتر. يصفن دقائق. يتخيّل مكان الانفجار، وعدد القتلى، وتفاصيل الأعضاء والأحشاء والحرائق الناشبة. يتخيّل العائلات التي جاءها خبر النكبة منذ الصباح. رنين موبايل بساعة غير مألوفة. صار العراقيون يتطيّرون من الرنين غير المتوقّع. إذ عادة ما يحمل الأخبار السَّيِّئة. هل يحتاج الأمر بعد ذلك إلى شروح وتفسيرات وتخمينات؟

تَسودُّ الحياة أمام ناظرَيْه، ويسقط في ذلك الثقب الأسود، ثقب اليأس الذي يلتهم أيّامه كلّها، ومتعه كلّها.

نحن نمتلك ثقباً أسود في حيواتنا، يفكّر جلال، البعض لا يدرك ذلك، والقلّة تعيشه بدقّة. آخر برنامج عن الفضاء رآه على قناة ناشيونال جيوغرافي العربي يقول إن هناك فرضية، مفادها أن ثمّة ثقباً أسود في مجرّتنا، مجرّة درب التبّانة، لذلك تدور المجرّة حول نقطة مضيئة هائلة، لم تستطع علومنا الحديثة اكتشافها. وللعلم، فشمسنا ما هي إلا نجمة متوسّطة الحجم، تقع في ذراع صغير متطرّف من المجرَّة، ضمن كوكبة من النجوم والأسرار والعوالم، تُقدَّر بمليارات. لكنْ، مَنْ يتأمّل بهكذا حقائق؟ لا أحد. الحكيم والقاتل هما الوحيدان اللذان يدركان هذه الحقيقة المرعبة. القاتل لا يتورّع عن إرسال المئات، والآلاف من البشر ربمّا، إلى الموت بكبسة من زرّ موبايل مرتبط بسيَّارة مفخّخة أو عبوة ناسفة. الحياة على كرتنا الأرضية تافهة فعلاً، ولا تعني شيئاً. والحكيم يحترم الحياة مهما صغرت. حياة ذبابة

أو صرصور، لا يحقّ لأيّ كان إزهاقها، كونها تتشارك معنا سرّ هذا الوجود، وهذا الوجود مترابط، ومُهمّ، وثمين، حتّى أصغر ذرّة فيه. الحكيم يتسامى عن الجشع، والأحقاد، والوضاعات الأرضية. بالنهاية، نحن لسنا سوى نتاج جسد كوني لا متناه، ونمتلك فترة وجيزة جدّاً من الزمن، كي نعيش مباهج هذا الوجود. من الحماقة هدرها دون معنى. لقد أصبحت تعاليم الأديان ضيِّقة على جسد البشرية بعد هذه الاكتشافات المذهلة للعلم، لكنْ، مَنْ يستطيع المجاهرة بآرائه؟ مَنْ يستطيع المجاهرة بأفكاره؟ النحلة التي تطير بين الزهور، عرائش العنب وهي تدفق العناقيد، لون اليشب بين التراب، زهور النفل ذات الرائحة، وهي تنمو في منخفضات الحقول، أغصان الصفصاف المتدلّية حزناً على ماضٍ تولىّ. الأفعى الباحثة عن طعامها، الذبابة المحتفية بوجودها القصير على هذه الأرض، لكنْ، مَنْ يستطيع المجاهرة بآرائه؟ ومَنْ يمتلك الجرأة على تسفيه ما يعتقد به القطيع؟

أفكار جلال مَلَك توقّفت عند تلك الجملة، استنفد خزينه الذهني بهذه الأسطر التي تخيّلها، فقط لو يمتلك الشجاعة في إرسالها ذات يوم على الفيسبوك، كي يشي عمّا يعتصر قلبه وعقله، لكنْ، مثل كلّ مرَّة، لم يبقَ في رأسه سوى جثّة تلك الرصاصة، تمدّدت في أحلامه، في خطوط التصميم، وأشكالها في الدائرة، ونامت بينه وبين نور، كيف له أن يختبر مآل كوابيسه تلك؟ لم يعد أحد يعرف ما يحدث غداً، لأنهم في هذا البلد يعيشون الزمن دقيقة دقيقة دون تخطيط، وفي فوضى عارمة، لم يُدوِّن مثلها التاريخُ المكتوبُ قطّ.

© جميع الحقوق محفوظة

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

آب

أعددتُ مائدتي .. وهيّأتُ الكؤوسَ .. متى يجيءُ
الزائرُ المجهولُ؟
أوقدتُ القناديلَ الصغارْ
ببقيّة الزيت المضيءِ
فهل يطول الانتظارْ؟
أنا في انتظار سفينةِ الأشباح، تحدوها الرياحْ
في آخر الساعاتِ قبل توقّفِ الزمنِ الأخيرْ
في أعمق الساعاتِ صمتاً: حين ينكسرُ الصباحْ
كالنّصل فوق الماءِ حين يخافُ طيرٌ أنْ يطيرْ
في ظلمة الرؤيا
سأركب موجةَ الرعبِ الكبيرْ

محمود البريكان/ قصيدة حارس الفنار

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

صباحاً أطلقت العصافير النائمة بين الورق تغريدات خالدة متوارثة منذ ملايين السنين. أعقب ذلك خطوات حذرة لأشخاص، يبدؤون عملهم في وقت مبكّر، فيما راحت مزامير السَّيَّارات تنطلق بخجل في البداية، ثمّ عالية منشدة بكورال جماعي، كعادتها كلّ يوم، والشمس بدأت جولتها السماوية، على بيوت شارع الدير، ومحلاته، وناسه، ونسي جلال هواجس الليالي كلّها، واتّجه مثلما يحدث كلّ صباح نحو دائرته الراقدة تحت تجمّع كثيف للنخيل، على كتف نهر دجلة، وهو يفكّر أيضاً بالزيارة التي ينوي القيام بها إلى البلدة بعد الظهيرة.

***

وضعت نور الصوندة في الحديقة، حين خفّ وهج الشمس، وأخرجت مكنستها، وبدأت تشطف المنطقة التي تقف عليها، عادة، سيَّارة جلال، عاونها في ملاحقة المكنسة سامي ورامي بمتعة، وهما عاريان إلا من ملابسهما الداخلية، وظلّا (يطرطشان) بالمياه على شجرة الزيتون، وثيل الفسحة الصغيرة الملاصقة لسياج بيت جميلة، ويوجّهان المياه إلى بعضهما البعض بسعادة. تراشقا بالماء مثل قردَيْن بَرِّيَّيْن. المياه واحدة من متع الصيف هنا للأطفال، وكانت نور تشغل نفسها بكَنْس وغَسْل الممرّات والباب الخارجي، وجزء من الشارع المقابل المحاذي لباب الدار. ليس هناك أفضل من التنظيف لقضاء الوقت، خاصّة إذا كان وقت انتظار.

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

وأوقات نور كلّها انتظار، تنتظر الكهرباء الوطنية، وراتب أوّل الشهر، ومجيء جلال سالماً من الدائرة، وزيارة قريباتها من البلدة، وعودة الوَلَدَيْن من المدرسة، إن كان الفصل فصل الدراسة، تنتظر لحظات السعادة، وهي تستعصي على دخول قلبها. هذا الشعور تشترك فيه معظم النساء القاطنات في الشارع. انتظار الابن العائد من المدرسة أو العمل، انتظار الزوج، انتظار الكهرباء، انتظار رحيل الحَرّ بشهوره القاسية التي لا تنتهي، رموز واحدة متشابهة لأرواح ضالّة في هذا المكان.

ظلّت عيناها مصوَّبَتَيْن على الشمس، ترغب في رحيلها وانقضاء هذا اليوم.

كانت تريدها أن تختفي خلف برج الدير، بأسرع ما يمكن، وأن تطلّ النجوم، ويتقدّم الليل نحو بحر الضياء، ويُطلق المؤذّن صوته مُعلِناً انتهاء يوم آخر من عمر ساكني شارع الدير.

البيت كئيب دون جلال، وبوجوده في الغرفة مع كومبيوتره تشعر بالأمان، لا يضيرها حتّى أفلامه (الثقافية) التي تأخذه بعيداً عن ذراعَيْها، وقبل الغروب، أخبرت كلاً من جميلة وإقبال بأنها ستنام من دون جلال، فكلّ شيء يمكن أن يحدث، خاصّة بعد ذلك التهديد غير المفهوم. أنهت غسيل الحديقة، وأدخلت الوَلَدَيْن إلى البيت، وضعت التلفزيون على قناة للأطفال، ثمّ أعدّت العشاء، وهي تسابق الزمن. تريد أن تنتهي من هذا النهار المُوحِش، وستضع الوَلَدَيْن في السرير باكراً، هي أيضاً ترغب في دخول عالم النوم، للتّخلّص من الظلام، والمجهول، وغير المتوقَّع.

قبل أن تنام، اتّصلت بجلال، ووجدتْه جالساً في حديقة بيت جمال ملك مع العائلة، طلب منها التّأكّد من قفل باب المطبخ، وزيادة في

الأمان، طلب منها وضع كرسي خلف الباب، ووعدها بإصلاح القفل، ووضع واحد إضافي، ما إن يعود من البلدة. أوصاها أن تضع تلفونها جنبها للطوارئ، وأن تنام باكراً، وتنتبه للوَلَدَيْن.

أسلمت نفسها إلى الفراش، بعد أن وضعت رامي إلى اليمين، وسامي إلى اليسار، وأطفأت التلفزيون.

ذلك كلّه حدث. وهي تتذكّره بدقّة. لكنها لا تدرك لحدّ الآن لمَ فزّت من نومها العميق ذاك. لم يكن كابوساً بالتأكيد. كلا، إنه ذلك الشيء الذي يتحرّك في الخارج، لا تفصلها عنه سوى جدران المطبخ، وسوى قفل ضعيف، يرتّج الباب. يمكن بسهولة متناهية كسره واجتياح البيت.

من عادة نور أن تُسدل الستائر على النافذة المطلّة على الحديقة، وتتأكّد من رتاجات البيت ونوافذه قبل النوم حتّى بوجود جلال، الدنيا ليست بأمان، تردّ على لوم جلال حول إفراطها في التّطيّر، والقلق، والخوف، وكانوا هناك، في الحديقة، رأتهم من فرجة الستارة، جاؤوا، ليُكملوا مشوارهم مع جلال. ليس هناك من سبب آخر. أشباح تقف تحت شجرة الزيتون، وعند جدار جميلة، وتحت نخلة جارهم، لا ملامح لهم، مُسلّحون، صامتون، يتهامسون بين آن وآخر، تضطرب بهم شتلات الورد، وأوراق الثّيل، وعساليج العنب غير المَرئي الذي حلمت به نور ذات يوم، كي تُظلّل أيّامها في هذا البيت. تعثّروا بالمنقلة، دعسوا على الثّيل، تنفّسوا هواء المُبرِّدة الحارّ، أيقظوا عصافير شجرة الزيتون من سباتها، جاؤوا إذنْ ليُكملوا ما وعدوا به، في ساعة، تحوّل فيها شارع الدير إلى مقبرة. كلّ نفس، كلّ نأمة، كلّ رفّة عين، يمكن أن تدلّهم عليها، على الوَلَدَيْن النائمَيْن اللّذَيْن يحلمان ببالونات عملاقة، تطير بهما إلى المجرّات البعيدة، وغابات من التّفّاح والتوت مثل التي رأوها في البلدة، وبنادق

نسخة مرخصة © جميع الحقوق محفوظة

رَشَّاشَة، تعزف الموسيقى، ودرّاجات هوائية، تقطع شارع الدير بلمح البصر، وأسماك وفيرة، تصطادها السّنّارة دون عناء، وبلذّة.

ليس ثمّة ما يمكن عمله، فهم في قبضة القَتَلَة، الذين وضعوا تلك الرصاصة في سيَّارة البرنس. ليس أمام نور سوى الرجوع إلى الفراش، والتّحوّل إلى صخرة، إلى بعوضة ملتصقة بجدار، إلى صرصار في غار لا ينفذ، إلى بزّاقة، تلتفّ خائفة داخل قوقعتها، إلى جثّة. لا نفس، لا حركة، لا صوت يدلّ على أنها موجودة في الداخل. هذه هي الطريقة الوحيدة لتجنّب القتل، كما فكّرت بغريزة الحيوان القديمة حين يقف بمواجهة الموت.

ألقت الشرشف الخفيف على جسدها، أمسكت بالموبايل، بحثت عن رَقْم جلال، ذلك كلّه بيد مرتجفة، وأصابع قلقة، وذهنها فلتَ خارج الزمن، فلا ساعات هناك، ولا دقائق، فقط ذلك الرُّهَاب المطلق المدوم خفية في أرجاء المكان، وكأن ذلك الضوء الخفيف المنبعث من الجهاز الصغير تحوّل إلى مجرّة مشعّة، ستدلّهم عليها.

لا، لم تفكّر بالساعة، ضغطت فقط على الزّرّ، فجاءها صوت جلال من وسط متاهة النوم، وقالت له بنبرات يائسة:

- لقد جاؤوا.

- مَنْ هم؟ سأل جلال بخوف وغضب وتذمّر، مَن الذي جاء؟ الساعة الآن تجاوزت الثانية صباحاً.

- القَتَلَة، العصابات، الميليشيات، المُسلّحون، الإرهابيون، الدراويش، لا أعرف. إنهم يقفون في الحديقة، ببنادقهم وأجهزتهم، يتسلّقون السياج

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

إلى بيت جارنا. يصنعون ضوضاء خافتة، كأنما جاؤوا للقتل. أنا خائفة على سامي ورامي، لستُ خائفة على نفسي.

- هل طرقوا الباب؟ سأل.

- كلا. اهتمامهم مركّز على بيت جارنا.

- حاولي أن تصعدي إلى السطح، ابقي هناك، اتّصلي بجميلة، بإقبال، ببيت (أبو رياض)، لا تتركيهم يستفردون بكِ. أيقظي شارع الدير كلّه. أيقظي بغداد النائمة.

كانت نور ممتلئة رعباً، الرعب الأخرس حين يُغيِّر الملامح، ويُشوِّه أيّة سمات جميلة.

- سأتّصل بكَ لاحقاً، لا تتصلْ أنتَ، ربمّا يسمعون الرنين.

أقفلت الخطّ، ووضعت الشرشف على رأسها، وأمسكت بالجهاز، تفتّش عن أرقام بيوت شارع الدير، الأرقام التي طالما تكلّمت معها في نهارات ماضية، والتلفون يرنّ، لكنْ، لا أحد يجيب. هل هم نائمون؟ هل هم خائفون؟ هل يتجاهلونها؟ كما دأب الجميع على ذلك في هذه الأيّام الرديئة؟ جلال غدر بها، في أيّام عصيبة مثل هذه ما كان عليه النوم خارج البيت، ستخترق الرصاصة جبين سامي مثل سكّين في زبدة. شَعْر رامي يسبح في لزوجة الدم، ستتحوّل إلى غراب وحيد، ينعب بين سَعَفَات النخيل، أو سنونو هارب من مجزرة. هل تحتمل البقاء في هذه الحياة، إذا ما قضوا على الوَلَدَيْن انتقاماً من جلال؟ سامي يبتسم، وشَعْرات رامي تتطاير مع مُويجات هواء المُبرِّدة التي لم تتوقّف عن الدوران.

***

قبل سفره إلى البلدة، ظلّ جلال يخاطب سيَّارته البرنس بحزن كلّما غادر البيت: الوداع، يا صغيرتي، قريباً ستجدين مالكاً غيري، سيُنظّف أبوابَكِ ودواليبَكِ وأحشاءَكِ الداخلية أفضل ممّا أفعل أنا جلال مَلَك، سيُعطّر فضاءَكِ بالكولونيا، ويزيل عن مخابئِكِ عفونة الدهون العتيقة، لقد أصبحتِ عبئاً على وجودي، وينبغي اختصار بقعة الخطر، والزمن كما استنتج في تأمّلاته عادة ما يُؤسّس للبشاعة، مرور الثواني والساعات والشهور والسنين يتغلغل في البشر والحجر، يقشِّر الواجهة الجميلة، ويُبرز ما خلف تلك الطبقة اللامعة، وهذا ما دار في ذهن جلال، وهو يتّجه عصراً في الطريق السريع نحو البلدة.

مرَّات يعتقد أن وَلَعَهُ بالفضاء، والأزمان العملاقة التي تلفّ الكواكب والشموس والمجرّات، هو ما جعل إحساسه بالزمن يتّخذ هذا المسار الحسّاس، والدقيق، والمُقلِق، أو هو، ربّما، محاولة يائسة للهروب من الأرض، من التفاصيل الوجودية القاسية. هل هذا ما لَفَتَ إليه الرصاصة، كي تتّجه نحوه؟ لاحظ بغرابة، ومنذ أكثر من عشر سنوات، أن مَنْ يموت هم الأكثر حساسية ورهافة.

مرور الزمن، يتقرّاه في واجهات البيوت، على جانبَي الطريق السريع، وعلى الحقول العتيقة التي حوّلها التّصحّر إلى غابات مُقزّمة من الشوك، والعاقول، والطرفاء، والرطريط، بعد أن تهالكت الكهرباء، ولم تعد تكفي حتّى لتجاوُز صيف ثقيل مثل صيف هذه السنة. أسلاك الكهرباء تحوّلت إلى كائنات أفعوانية سوداء ميّتة، لا حياة فيها، تنتصب إلى يمينه على أبراج لم تعد عملاقة، كما في سابق السنين، والزمن يُقزِّم الأشياء، كما كان يستنتج دائماً، وأشجار الأثل التي كانت مفخرة المفازة إلى البلدة، لم يبقَ منها في الأفق سوى أشباح مغبرّة، بعد أن فارقها الماء والأيادي التي

ترعاها، ومثل ذلك ينطبق على أشجار اليوكالبتوس، والغرب، والطرفاء، والنخيل الجافّ المنتصب بشموخ، رغم يباسه من الأعلى.

تتصاعد الغبرة من معامل الجصّ، وقد تحوّلت إلى براكين صغيرة، تنثّ أعمدة صفراء ورمادية إلى أفق رصاصي، يشبه بحراً من السراب، وما وراء ذلك الصحاري المترامية المحترقة تحت لهيب الشمس يوماً بعد يوم، وكانت مهجورة من الجمال وبيوت البدو والرعاة الذين كان، وعلى امتداد سنوات طفولته وشبابه، يراهم هناك صيفاً وشتاء. كان ذلك عالماً، رغب في الافتراق عنه ونسيانه حين انتقل إلى العاصمة. لكنه لم ينتهِ. يلاحقه. كأن الحياة فيه تنسحب قليلاً قليلاً نحو قبور لا مَرئية، تتناسل في ربوع الوطن كلّها. في الدائرة، وما إن يُنهي الواجب المطلوب منه حتّى يلتصق بشاشة كومبيوتره، يقضي فيها ساعات متجوّلاً في ثنايا الإنترنيت، يقرأ الصحف ووكالات الأنباء الإلكترونية والعواجل التي تظهر عادة باللون الأحمر على الواجهات، ويشدّه أكثر من أيّما موضوع آخر، أخبار المحلِّيَّات التي تفرد لها الصحف مساحات واسعة. عبر تلك الأخبار والتقارير والتحقيقات، اكتسب معلومات عميقة، ودقيقة، عمّا وصل إليه البلد من تصحّر، وركود زراعي، وانهيار صناعي، وسرقات للمال العامّ، وجرائم لا تُصدَّق، ولم يسمع بمثيل لها طَوالَ عمره المديد، تلك الصفحات كلّها كانت تقول له بلسان فصيح إن البلد يسير نحو الهاوية.

الطريق إلى البلدة لم يعد ممتعاً، كما كان في السابق، رائحة الموت وأطيافه في كلّ مكان، هو يريد الوصول إلى بيت أخيه، ليزيل الدبق والعَرَق والغبار من جسده. أطلق مؤشّر السرعة إلى الحدّ الأقصى رغم ارتفاع الحرارة، وانعطف عند محطّة البنزين إلى الطريق الترابي، متّجهاً نحو الحقول والبيوت والنهر وأشجاره. في الماضي، كان يستمتع بمَرأى

الطبيعة والفضاءات البعيدة. كان ذلك قبل أن يتحوّل إلى برّاقة، تعيش في قوقعتها الصلدة. ارتقى السّدّة العالية، لينكشف له النهر مثل عشيقة يانعة. مياه، هادئة ساكنة مغرية للسباحة، وطيور القُبَّر والنوارس والحمام تجول في الأفق على يساره. بقايا القمح المحصود يتوهّج بلون الذهب، وخطّ الضّفّة المقابلة كان داكناً. كانت عيناه تتوقان إلى الوصول إلى تجمّع آل مَلَك، بيت جمال مَلَك وبيت كمال مَلَك، عند تلك الغيضة التي فارقها قبل سنوات، من أجل لقمة العيش، كما قيل، ليصبح من (البغادة)، كما وصفه أخوته وأخواته في أكثر من مناسبة.

ظلّ، خلال الطريق كلّه، مُوقِناً أن مَنْ أسقط الرصاصة في سيَّارته هو ذلك الجندي الذي استوقفه في تلك الظهيرة الحزيرانية الحارقة، حين نزل من جسر الطابقَيْن متّجهاً إلى بيته. كلّما تأمّل بوجود تلك الرصاصة، ينعطف عقله إلى تلك الحقيقة. ولم يعد ذلك شكّاً، بل هو أشبه بالقناعة. أي تحليل منطقي لكيفية مجيء المظروف لا يتواءم إلا مع نقطة السيطرة تلك، ونظرة ذلك الجندي المعتكرة بالكراهية، حين دقّق في وجهه. لم يضعها جاره الغامض أبو هند، بل ذلك الجندي، وجلال لا يعرفه، ولا يتذكّر أنه رآه قبلئذ، فضلاً عن أنه من جيل أصغر منه بكثير. جيل ما بعد السقوط، كما أطلق عليه. هذا النمط من النظرات الكارهة، التي تطلق شرارات غيظ دونما سبب، انتشرت كثيراً في الأعوام الماضية. الكراهية تنزّ من الأجساد، تتجمّع فوق الرؤوس، تُشكِّل غيمة شاسعة، تُظلِّل الجميع، وعدَّها جلال طبيعية بعد القتل الجماعي، وتبادل الاتّهامات، والوشايات، والتنابز المنطلق من اختلافات دينية وقومية وطائفية ومناطقية وعشائرية، وإلى ما لا يُحصى من الاختلافات. حتّى الاختلاف بالمَلبَس يمكن أن يكون سبباً للكراهية. نظرات الكراهية تلك لم تعد غريبة على جلال مَلَك. ليس الوحيد بين ممّنْ يعرفهم يشكو من هذه الظاهرة، ويتكلّم بها. حين

تكره شخصاً لا تعرفه، ولم تلتقِ به سابقاً، يُعدّ ذروة الانحطاط الأخلاقي والاجتماعي. وهذا ليس بمُستغرَب بعد فيض الحروب والموت والخراب والتّشظّي الذي طال الجميع.

***

مساء، قبل أن يصله هاتف نور في تلك الساعة العجيبة، زار جلال وأخوه الأصغر كمال معرض الزهور للسَّيَّارات، الكائن وسط غابة نخيل عتيقة، وتحرّيا عن أسعار السَّيَّارات وإمكانية البيع، وأخبره صديقه صاحب المعرض أن ثمّة خللاً في مستمسكات السَّيَّارة، وإذا ما أراد بيعها، عليه أن يعمل توكيلاً مباشراً من صاحبها الأصلي. كانت مفاجأة له. صاحب السَّيَّارة يعيش في ناحية صغيرة، سمع بها قبل ذلك، لكنه لا يعرف مكانها بالضبط. ناحية الرّمّانة. تقع على الخطّ الفاصل بين الحدود السورية والعراقية، ممّا أفشل مشروع بيع السَّيَّارة مؤقّتاً. قال له صديقه صاحب المعرض: ما إن تنجز التوكيل حتّى أجد وبسهولة مشترياً للسَّيَّارة. هي قوية البدن، وموديلها أكثر من ألفَيْن، ولونها الأبيض مُغرٍ للزبائن. برنس بيضاء مرغوبة. وإذا ما تعذّرت عملية البيع، يمكنني أنا شراؤها ووضعها في المعرض. ليس أمامكَ سوى الذهاب إلى الرّمّانة، والبحث عن صاحب السَّيَّارة. هذه مُهمّة صعبة، قال له كمال خلال عودتهم إلى البيت، لا تعرف سوى عنوان عامّ، ولا تملك رَقْم تلفون الشخص، فكيف يمكن الوصول إليه؟ بقي جلال ساكتاً، وكان يجلس جنب كمال الذي يتولّى القياد. بعد لحظات من الصمت، اقترح عليه كمال اقتراحاً، وجده غريباً، وكأنه استشفّ ما يجول في خاطره: لمَ لا تبيع السَّيَّارة وأثاث البيت، وتترك المدينة. صارت خطرة. لدينا الغرفتان في الطابق الثاني، يمكنكم العيش فيها. وكيف أعيش؟ هل أترك وظيفتي في الدائرة؟ ردّ عليه جلال متسائلاً. إمّا أن تترك عملكَ

وتجد لكَ عملاً هنا في البلدة أو تجد لكَ غرفة للإيجار في بغداد. على الأقلّ، تحافظ على أرواح العائلة. نسمع يومياً ما يجري فيها من أحداث. هو خيار يضعه جلال مع خيارات أخرى. وصلت إلى خياله تلك الرصاصة المخبّأة في غرفته، وتجسّم له وجه عادل وهو يخبره عن الجهة التي يُحتمَل أن تقف وراء التهديد غير المفهوم له حتّى اللحظة.

حديقة جمال مَلَك طالما جلبت السعادة لجلال، ولنور وسامي ورامي، تصبح ميداناً لِلَّعب، كلّما جاؤوا إلى هنا. حديقة جمال مَلَك: أشجار الرّمّان والتين والنخيل والتّفّاح تتوزّع على امتداد السياج المشاد من البلوك. مساحة الحديقة الواسعة زُرعت بالثِّيل الأميركي الناعم، الذي تقصّه نجاة بآلة القَصّ الميكانيكية كلّ شهر. حين يُرشّ بالماء، عصراً، يتحوّل في الليل إلى سجّادة خضراء من الرطوبة النَّاتَّة لبرودة لذيذة، تخفِّف حرارة الجوّ. هذا ما يفتقدونه في بيتهم البغدادي الضَّيِّق رغم حديقته. هناك في مشتمل جميلة، لا تهبّ عليهم نسمات قادمة من النهر وحقول الذّرة والبرسيم المحيطة بالبلدة، ولا تخفِّف السواقي الرطبة وسَعَف النخيل وورق اليوكالبتوس من وَقْع السموم. وكثيراً ما أعاده منظر الدخان المتصاعد من تنّور جمال مَلَك، وهو من نار السَّعَف المقصوص من النخيل أو من عروق الأشجار وأغصانها كالتوت والصفصاف والطرفاء، إلى تلك الطفولة البعيدة التي عاشها في هذه الأنحاء.

تجتمع النسوة والرجال والأطفال على مفارش خفيفة، مُدَّت على الثِّيل، ليتكلّموا عن كلّ شيء، من شؤون البلدة اليومية، أوضاع البلد، وبغداد، والزيجات، والخطوبات، والوفيات، وأحوال مَنْ هاجروا أو ظلّوا مقيمين رغم تغيّر الزمن، والنجوم ترقب الأحياء والأموات، لاهثة في سماء قريبة، تختلف كُلّيّة في عينَي جلال، عن سماء بغداد. في طفولته كانت البلدة شيئاً آخر:

اللعب مع الفتيات الصغيرات بين حقول القمح، مطاردة الثعالب عند حافّات الصحراء، تناول التين من بين أشدّ البساتين حراسة، قضاء الليالي المقمرة في سماع حكايات خرافية عن فرط الرّمّان، ونصّ نصيص، والغول، وجنّ المقبرة التي ينام فيها جَدّه وأبوه وكثير من الأشخاص الذين عرفهم، حكايات تقصّها أمّه أو جَدّته قبل النوم، والبحث عن أعشاش الطيور في تيجان النخيل، وحضور الأذكار التي يحييها الدراويش، كلّما توفيّ شخص من البلدة. السباحة صيفاً في السواقي، من ثمّ، في مياه النهر الزرقاء الصافية بعد تناول الرقي من حقول، تفتقر للحراسة، وفي المراهقة، التّلصّص على الفتيات، وهنّ يقطفنَ العنب والرّمّان والتوت، الاستمتاع بامتطاء الحمير في الدروب الضَّيِّقة، حضور الأعراس والفواتح، من أجل تناول اللحم، السير ليلاً مع أصدقاء الطفولة في ليالي مقمرة، وسط عواء الثعالب وضوضاء الغريريات المختبئة خلف نباتات الحلفاء والطرفاء. ذلك كلّه تلاشى ومات. لم يبقَ له من وجود سوى في ذاكرة قلقة، أعطبتْها الحروب.

تهالكت البلدة مثلما تهالكت أشياء كثيرة في الخارطة. قفزت بَغْتَة إلى منصّة الموت، وتوسّعت مقبرتها، وكثر مهاجروها وغائبوها. قال له عادل احذرْ من رجال التنظيم، هم وراء التهديد. غريب. دراويش ويهدّدون الناس بأرواحهم! يتذكّرهم جلال حين كانوا يأتون إلى البلدة قبل عشرات السنين، لإحياء الذِّكْر، سواء في اليوم السابع لموت شخص أو اليوم الأربعين لوفاته. يتذكّرهم بدفوفهم ومسابحهم ودرابيشهم وبخورهم الذي كانوا يبثّونه بين الجالسين. القصائد الدينية التي دأبوا على إنشادها، وتهاليلهم في الليالي الصيفية المقمِرة. كيف حوّلهم الزمن إلى قَتَلَة؟ لماذا يتحوّل ناس هذا البلد إلى قَتَلَة بهذه البساطة؟ كان جلال يسأل روحه، ولا يجد الجواب. لقد مرَّت عقود طويلة، جرت أحداث لا تُصدَّق، لكنه لا يتذكّرهم إلا على تلك الهيئة الروحانية التي أحبّها ذات يوم. قصص وحكايات.

وفيما كان جلال يتأمّل في حياة البلدة التي أنهكها الزمن، وأتلفت روحها النكبات، في الوقت ذاته الذي استسلم فيه إلى سلطان النوم تحت سجّادة من النجوم والذكريات والوجوه التي غابت في مقبرة القرية، ولم تترك سوى حكاياتها، أيقظه تلفون نور ذاك، وأخبرتْه أن القَتَلَة دخلوا حديقة البيت، وهي لا تملك سوى أن تلتفّ على نفسها مع الوَلَدَيْن، وشارع الدير لا يستجيب إلى استغاثاتها الهاتفية.

***

نور المستوفزة، المرعوبة، تحوّلت تحت شرشفها الخفيف إلى جثّة، لكنها تتنفّس ذلك الهواء الرطب المشبَع بالرعب.

خارج جدران البيت، على مسافة أمتار منها، تحوّل الحذر إلى حالة مُعلَنة، فمن هناك، بدأت الأصوات تُسفر عن نفسها، مع قرقعة السلاح وأصوات الخطى التي تصعد أو تنزل، مع انفتاح باب، وانغلاق آخر، ونداءات آمرة أو ناقلة لرسالة ما، وكانت عصافير الليل النائمة قد راحت تستيقظ، كما لو كانت تشارك نور رعبها. اسم جميلة على الشاشة الصغيرة. فتحت زرّ الاتّصال، وجاءها صوت جميلة مثل ريح باردة وسط شمس آب: لا تخافي، يا نور، هؤلاء من الجيش، جاؤوا للقبض على جاركم (أبو هند). ظلّت نور ساكتة، لا تعرف كيف تردّ، أحسّت كما لو أن جميلة أخرجتْها من بئر مظلمة، مليئة بالأفاعي، لكي تجد روحها في فضاء مشرق وناعم.

أحسّت بعمق أنها وُلدت من جديد، وأنها تمشي في زمن آخر بعيداً عن شارع الدير. رحل رُسُل الموت، وتمّ إنقاذ سامي ورامي بمعجزة. أزاحت الغطاء عن رأسها، ونهضت ماشية إلى النافذة، حدَّقت من خلال الستارة. لم يكن هناك أحد، الحديقة فارغة. لا جند ولا أشباح، الهدوء العميق

يسيطر على أسلاك الكهرباء، وبومات التوت وعيون الجيران المتلصّصة من خلف الشبابيك وثغرات البلوك وأغصان النارنج.

بيت الجار مظلم، يستولي عليه غموض الحدث، لا تبدو عليه نأمة من حياة، وحدها عصافير النخلة المثقلة بالتمور، تتمايل وسط السَّعَف، والنور لمّا يزل في مكان ما وراء الأفق الشرقي. وكانت هناك شباك عنكبوت تحت أغصان شجرة الزيتون، وتلك المنقلة المنكفئة على ظهرها مثل صرصار ميّت، وكانت هناك أنساغ تسري في ثِيل الحديقة، وآثار غير مَرئية لسيَّارة جلال، وقطط تنام خلف الأبواب المُغلَقة، وعيون على أسطح البيوت تُحدِّق في مصائر اليوم القادم.

لم يعد هناك شياطين في الحديقة، لم يعد هناك جنّ يتربّص بوَلَدَيْها وزوجها، مضى الشّرّ بلا رجعة.

قرأتْ سورة الفلق، والفاتحة، وتمتمتْ بآيات أخرى تتذكّرها.

الولدان نائمان، ويبتسمان، تنمّ الابتسامة عن مشهد بري مليء بالزهور، بالشجر الضاحك، بالأسماك الطائرة، بالمعكرونة الماشية وسط الغيوم، بالفئران التي تلاحق القطط تلهو وتمرح. التلفون يقعي على بطنه ميّتاً، لقد أنجز واجبه بنُبل. التلفزيون رمادي، الثلاجة تقف بزهو، تُطلق أزيزها الناعم، كما لو أنها كائن متفرّد في هذا الوجود. صوت المؤذّن ينطلق ناعساً، رافعاً رسالته إلى السماء.

اتّصلتْ بجلال مرَّة ثانية، وهبط رنين الجهاز عليه من نجمة بازغة متلألئة، من نسيم صيفيّ، مرّ بأشجار صفصاف وسواق وحقول نفل، هبط من زهرة أمل صغيرة، ما زالت معلّقة في فسحة من روحه، لتُخبره نور بحقيقة ما جرى: مجموعة من قوى الأمن باغتت جارهم (أبوهند)

وتمّ اعتقاله، وهو ما أخبرتها به جميلة التي صادف أنها كانت تطلّ على المشهد من سطح البيت، وجميلة وزوجها أبو نغم عادة ما ينامان على السطح العالي في ليالي الصيف الحارّة.

حدسه لم يكذب إذنْ،، وتعزّزت لديه القناعة بأن أيّامه الأخيرة تقترب من نفادها.

قال لها إنه يتمشّى في حديقة بيت جمال مَلَك، يرى بياض الفجر يهلّ من خلف غابات النخيل، وهو كتلة من الأعصاب، ساعة وهو مستوفز، وعقله يدور مثل طاحونة القمح. وراح يستفسر منها عمّا جرى. أخبرتْه بكلّ شيء تفصيلاً. ظنّت أن هؤلاء الأشخاص لم يفدوا بهذا الوقت من الليل إلا لقَتْلها، هي والوَلَدَيْن. ليس هناك أيّ تفسير آخر، وقد أيقظ هذا التفسير تلك الحكاية فجأة عن قَتْل عائلة كاملة في منطقة الطعمة من قِبَل مجموعة مُسلّحة دون معرفة السبب، تلك الحكاية التي رواها له سعد الحلّاق في بداية الصيف، ممّا أسقط جلال في دوّامة من الندم، أحسّ أنه ارتكب خطأ فظيعاً، بتَرْك نور وحيدة مع الوَلَدَيْن.

وكان جلال يتقلّى تحت نجوم ثاقبة وظلمة ليل مُوحِش، إذ تركه الحدث متدلّياً في فراغ روحي مرعب، يشبه فراغ تلك السماء البعيدة، القاحلة رغم نجومها.

قال لها السماء قريبة هنا، النجوم المتبقّية تكاد تمسك بالأصابع، وكان مطمئنّاً أن لا شيء سيحدث لهم، لأنه لا يمتلك أعداء. لم يؤذِ أحداً في حياته. قال إن حدسه لم يخبْ، جارهم مريب، ولا بدّ أن يقَع في الفخّ، وها هو يقع في ليلة مظلمة.

نور بعد تلك المكالمة لم تستطع العودة إلى النوم.

هي الوحيدة مَنْ بدأ جسدها يستقبل أولى خطوات الصباح في هذا الشارع الكئيب.

***

كالعادة، وفي الصباح، يعود شارع الدير إلى الحياة مرَّة أخرى، لتنطلق إشاعاته وقصصه وحكاياته عمّا جرى في ليلة اعتقال (أبو هند). سيرتبط الشارع، من جديد، وبأصابع متربة، وشفاه هامسة، وأرجل معروقة من الحرارة، مع الشوارع المُؤدِّية إليه، وما تحتويه من دكاكين، ومحلات، وأماكن تجمّع كالمقهى، وحلاقة سعد، والفرن، ونوفوتيه جميلة، حيث تنطلق الإشاعات فجأة، ولا أحد يعرف مصدرها. هناك شيء ما يحدث دائماً في شارع الدير، وهذا ما تعرفه النساء خاصّة. فاعتقال الرجل الغامض، المتخفّي وراء جدران البيت، وتحت ظلال النخيل، جار جلال مَلَك، تمّ تفسيره بأكثر من تفسير. شهادة نور كونها رأت المفرزة التي اعتقلتْه لم يعد لها قيمة، أمام سيل التفاصيل، والقصص، المدعّمة بترديد الأصوات، والحركات، والحوارات التي اختُلقت حول الحادث.

أكّد البعض أن له صلة مع الإرهابيّيْن، وهم عادة بلا ملامح واضحة، هو عضو في جيش الطريقة، قال نهاد سائق التاكسي لجميلة، بينما أكّد البعض الآخر إنه يشترك مع عصابة لبيع الأعضاء البشرية، تقوم بخطف الأولاد ومركزها في منطقة البتاويّيْن، وهم يتبادلون الزيارات في الليالي المظلمة. بينما يجزم آخرون أن مركز العصابة في شارع (ستّين)، وهو من الشوارع المشهورة في منطقة الدَّوْرَة، شهد قبل سنوات مواجهات عاتية بين جماعات مُسلّحة لها علاقة بالصراعات الطائفية التي شاعت بعد سقوط النظام وانحلال الدولة.

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

أمّا جواد، فكان مثل النحلة التي تتشمّم الأخبار من البيوت، ومحلات بيع الخضراوات والفواكه، وفي أثناء نقله لأكياس التّسوّق أو عبوات المياه أو الأثاث المستعمَل، من مكان إلى آخر. هو المُهمَل الذي تتجمّع فيه نزوات البشر. الكائن الذي لا يستدعي أيّ حرج. حين يركن عربته الخشب في ظلال النخلة مقابل بيت عادل أو مقابل بيت جميلة، يسمع هو الآخر ما يتكلّم به الناس. يختزن أهمّ ما يقولونه، يفكّر به، يتساءل مع نفسه عن حقيقة ما يجري. فهو، على سبيل المثال، التقط من عادل حادثة تهديد جلال مَلَك برصاصة، يعتقد أن وراءها دراويش متعصّبين. الكلمة التي لا يعرف حتّى اليوم دلالاتها، وماذا تعني. هي كلمة خطرة، وهذا كلّ شيء. والتقط إشاعة أن الحلّاق سعد ينتمي إلى مجموعة الإيمو، الذين وُصفوا بعَبَدَة الشيطان، وشاربي دماء الأطفال، والمخنّثين، وهم مَنْ يلتقون في أماكن مُغلَقة، ويمارسون الجنس ذَكَراً مع ذَكَر. مكانهم في شارع ستّين المحاذي لشارع الميكانيك. وكانت كلمة إيمو جديدة على عقل جواد، وقد أراد التّأكّد من هذه الإشاعة، فوقف فترات أمام دكّان جميلة المجاور لحلاقة سعد. شاهد أصدقاءه يأتون ويذهبون بملابسهم الغريبة، وشُعُورهم الملوّنة والمقصوصة بطُرُق تلفت النظر. أعجبتْه بنطلوناتهم الضَّيِّقة، ومحابس أصابعهم، والأغاني التي يسمعونها، وعادة ما تنطلق من التلفزيون أو من المسجّل الضخم الموضوع تحت المغسلة. كما أعجبتْه الرسومات، والعلامات على قمصانهم وأحذيتهم، وفكّر لو أن أمّه تسمح له بالتّشبّه بهم، ومرافقتهم في أماكن تجمّعهم وسهرهم. أكيد هو عالم جميل، عالمهم الملوّن والخاصّ جدّاً.

وليس بعيداً عن رأس جواد، الفائر بالأحلام والتساؤلات، كانت جميلة وزبوناتها يتحدَّثنَ منذ الصباح عن أن ما صار يجري في المنطقة أكثر ممّا تحتمله حياتهنّ. بعد تفجير الجامع ومُصلّيه، استجدّت قصّة الرصاصة

المرسلة إلى جلال مَلَك، ثمّ اعتقال واحد من سكّان شارع الدير بتُهمة غير مؤكّدة. بدأت النسوة يتكلّمنَ أيضاً عن شباب الإيمو في بغداد، ومطاردتهم، وقتلهم، من قِبَل عناصر غير معروفة، عناصر تتجوّل بسيَّارات حديثة ذات طابع شبه حكومي، وأحياناً من دون أرقام، تتجوّل بحُرِّيَّة كاملة، وتحت سمع، ونظر، ومباركة نقاط التفتيش. أنهت واحدة من زبائن جميلة الحديث عن الإيمو بالقول: أتذكّر حين كنتُ طفلة، وكنّا نسكن في محلّة الذهب أن محافظ بغداد وقتها شنّ حملة على الشباب المائع، المتبرّج، إيمو ذلك الزمان، وكانوا يطيلون شُعُورهم مثل فتيان هذه الأيام، فلا يفرقهم أحد عن الفتيات، فكلّف مفارز من الشرطة لمطاردتهم في المحلّات والأزقّة والساحات، حيث يوضعون وسط الشارع، وتُحلق شُعُورهم بمقصّ ضخم، أمّا البنطلونات العريضة الشبيهة بالخيم والمسمّاة بالجارلستون، فتُشقّ من القَدَم حتّى الفخذ. وضع كذلك مفارز أخرى، تختصّ بالنساء، تحمل سطولاً من مادّة الصبغ البويه، كانت تعاقب النساء اللابسات ملابس قصيرة بطلي سيقانهنّ وفضحهنّ وسط المارّة. بعد مجيء الأميركان لم تعد لدينا دولة، كلّ شخص يتصرّف بما يرغب، وهذه علامة المجتمع الفاسد، وسبب الكوارث التي تنصبّ على رؤوسنا تقول واحدة من زبونات جميلة. سمع الجميع عبر التلفزيون، والقصص المتداولة، والإشاعات، عن قتلهم بالبلوك بعد توثيق أياديهم، وبطحهم وسط الشوارع على وجوههم، ثمّ تهشيم رؤوسهم. حكايات عن اختطاف الأطفال، وطلب فدية، أو رمي متفجّرات في الشوارع على هيئة أقلام وولاعات ومصابيح بلاستيكية وعلب دخان وقضبان زاهية غريبة الشكل، يدفع الفضول بالبشر إلى التقاطها، حيث تنفجر في اليَدَيْن بعد ثوان، ذلك كلّه وغيره فاقم موجة الخوف والقلق لدى الجميع.

***

وسط المحلّ، ولم يمرّ يومان على حادث اعتقال (أبو هند)، شرحت نور للنسوة الواقفات في المساحة الضَّيِّقة داخل الدّكّان تفاصيل الليلة الكابوسية التي عاشتْها في غياب جلال.

- جلال ينام تحت برودة السماء في بيت جمال مَلَك، وأنا كدتُ أموت رعباً، اعتقدتُ أن المُسلّحين في الحديقة جاؤوا لتصفية جلال، مِن شقّ الستارة، شاهدتُ الأقنعة المرعبة، والبنادق الموجّهة نحونا، وبدت لي تلك الشواخص المتحرّكة مثل أشباح، نبعت من الهواء. لم أتأكّد أنه ليس بكابوس إلا حين سمعتُ سعال واحد منهم بصوت مكبوت. عدتُ أُخبِّئ رأسي تحت الشرشف تفادياً لرنين التلفون، وما سوف يجلبه لي من نهاية سوداء. في تلك الليلة، كنتُ أحاول الاختباء في أيّ شقّ ضيِّق، تفادياً للإعلان عن وجودي. تمنّيتُ تلك الساعة لو خَلَقَني الله بعوضة أو ذبابة أو حتّى صرصاراً.

أفضل ما يفعله المرء، تقول جميلة، هو بقاؤه في بيته، لا أرى ولا أسمع ولا أتكلّم، لكنْ، ما باليد حيلة، فالحياة مصالح. نعم، مصالح تردّ عليها إقبال. الناس تحتاج التّسوّق والطبابة والكهرباء وتدبير شؤونها، وهذا يتطلّب الحركة. اللّحّام وبائع الخضراوات والمكوجي والصيدلي والحلاّق والفرّان وسائق التاكسي، والتعامل مع الشرطة والجيش في أثناء تفتيش البيوت، وتأكيد عقد السَّكَن، وتعريف السَّكَن من المجلس البلدي. الأطفال ومدارسهم، وزيارة الأهل، وشراء ملابس العيد، وغير ذلك الكثير. لا نتكلّم عن زيارة المطاعم وكافتيريات الكَرَّادَة والجادرية والمنصور وحدائق أبو نؤاس والزوراء، تلك نشاطات تحتاج إلى نقود، والنقود عند الحكومة، والحكومة نائمة. تُنهِي إقبال حديثها بزفرات عميقة.

تلك الإشاعات، والأقوال، والهواجس كلّها كانت نور تلتقطها مثل

مجسّة عملاقة، وتنقلها إلى جلال مَلَك بعد عودته مُنهَكاً، دبقاً، من الدائرة. وفي المقابل، نقل لها جلال مَلَك كلّ ما شاهده ورآه وسمعه في البلدة، حكى لها عن محاولته غير الموفّقة في بيع سيَّارة البرنس، والأهمّ من ذلك اقتراح أخيه الأصغر كمال ملك عليه للعودة إلى السَّكَن في الطابق الثاني من بيت العائلة. علّق جلال عَذْقَ التمر الذي جلبَهُ من نخيل الحديقة في بيت كمال مَلَك على مسمار، كان ناتئاً قرب الثلاجة، وقالت نور إنها ستبعث بصحن من تمره الناضج لجميلة، لإقبال وأمّ رياض.

الثمار الصفراء المائلة للون البُنّيّ، في العَذْق المثبت جنب الثلاجة شدّت انتباه سامي ورامي، فتناوبا على التهامها بمتعة، واحتساء الماء البارد بعدها، فيما حاولا، بتساؤلات ساذجة، فهم ما يدور حولهما، لكنهما لم يصلا إلى جواب مقنع.

الهاجس الأكبر لجلال مَلَك، والذي فكّر فيه أثناء تواجده في العمل، وخلال عودته عبر جسر الجادرية هو قصّة اعتقال جارهم بهذه الطريقة، ولمَ اعتُقل؟ ومَنْ هو حقيقة؟ وهل ستكون للقضية تبعات على حياته الأسرية، بِعَدِّه جاراً له؟ والشيء الآخر الذي شغل ذهنه هو: هل أن مَن اعتَقَلَ الجارَ هم فعلاً من الجيش أو الشرطة؟ أم أنهم مجموعة، عصابة، ميليشيا، من تلك المنتشرة في حياتهم كالفطر، نَمَتْ، وأزهرتْ، وأثمرتْ خارج القوانين، وخارج ما دأب عليه المجتمع من تقاليد وأعراف؟ ضاعت الحدود بين الجيش والميليشيات والعصابات والحركات الإرهابية، كأن هناك يداً خفية تُطلق العنان لبراكين الرعب، كي تفرش حممها على المُدُن، والقُرى، والشوارع، والبساتين، والبيوت. تُنكّل وتقتصّ وتنتقم وتبترّ وتُرهب الناس.

تلك الأناشيد المحرّضة على القتل والمواجهة، الحوارات الهامسة،

الزيارات الليلية، ذبذبة البيت التي تُغلّفه ليلاً بالشكوك، ويستشعرها جلال، تلك العلامات كلّها توكيد على أن جاره يخفي شيئاً، وهو ما عزّز لدى جلال أكثر فأكثر الشّكّ والتّوجّس من الجميع هذه المرّة، حتّى من أقرب الناس إليه.

لم يستطع إبعاد ما جرى في تلك الليلة عن ذهنه حتّى وهو يعود خائباً إلى عمله وحياته السابقة.

وخطورة ما نتج عن هذا الحدث، خروج إشاعة سامّة، لم يعرف مصدرها تقول إن جلال مَلَك هو مَنْ وشى بجاره إلى أجهزة الأمن، كون (أبو هند) متورّط مع مجموعات إرهابية، ويتاجر بالأعضاء البشرية، ويسهّل نقل المتفجّرات في مناطق بغداد، ومَنْ يدري بالحقيقة تقول الإشاعة في تفسير قضية اعتقال (أبو هند): ربمّا كان متورّطاً في تزوير العملة والمتاجرة بها.

هو، إذنْ، في قلب الحدث، تطارده أشباح غير مَرئية، يراها بعض المرَّات في وجوه أقرب الناس إليه في شارع الدير، وجه سائق التاكسي نهاد، جاره عادل، وجه جواد رغم البراءة المرتسمة فيه، وسعد الحلّاق المعتصم بعالمه الأنثوي وإكسسواراته المتشكِّلة من أساور جِلْدِيّة وأحذية أجنبية وعطور نفّاذة وحواجب مُعتنى بها، وهوس بأغاني مائعة، لا تتناسب على الإطلاق مع الكآبة المُوحِشة المهيمنة على شوارع المدينة. ذلك كلّه في مجتمع يضاعف، هو الآخر، ألسنة الشكوك والتّقوّلات ممّا يجعل من العلامات كلّها تُجمع على أنه مُطارَد من قوى خفية وغير مفهومة الدوافع، قوى تدفع زورق حياته نحو لجّة بحر، يتناءى به يوماً بعد آخر عن الساحل، فلا فنار ثمّة ولا ساحل.

حياتنا تُدار من قِبَل مجموعة من الأشباح، قال له عادل عصر أمس.

حياتنا تُدار من قِبَل مجموعة من الأشباح، عَدَّها فكرة فَذّة، لم تخطر على باله مطلقاً. الأشباح، يمكنهم أن يتواجدوا في أيّ مكان وزمان، ويمكنهم التّسلّل إلى أكثر الزوايا حصانة. إلى حدائق البيوت، والأزقّة الضَّيِّقة، ودروب القُرى، ومفترقات الشوارع، ومنعطفات الجسور، والمقاهي المنزوية في المناطق الخلفية، ودوائر الجيش ومراكز الشرطة والمطارات.

وتلك الموضة الجديدة، التي شغلت محطَّات التلفزيون، والجرائد، وروّاد المقاهي؟ موضة الإيمو.

***

أوّل ما قام به جلال، حين وجد نفسه في عرينه المريح، هو البحث عن كُنه هذه الموجة التي شغلت نساء شارع الدير، كما قالت له نور. الإيمو. وفكّر بذلك الاتّهام الخفي للحلاّق سعد من أنه واحد منهم. ومن الملفّات كلّها التي جلبها له غوغل عن هذه التسمية، استخلص أن الإيمو هم المخانيث، حسب التسمية القديمة لهم في المجتمع. تواجدوا في كلّ المُدُن، ميوعة، صوت ناعم، عيون ذابلة، تثنّ في المشي، وقد استوردت هذه الكلمة في السنوات الأخيرة، تشبُّهاً بالبانك الأوربي، والهوموسيكشويل، وصرعاتهم الشبابية في الملابس والغناء وأماكن اللقاء، وتذكّر أن محلّ سعد الحلاّق كان يفوح بالعطور الأنثوية. تذكّر ذلك جيِّداً، وبوضوح، في ذلك النهار القائظ من شهر حزيران، حين قصّ شَعْره الكَثّ الشبيه بعشّ الغراب في نخلة عادل.

جذب انتباه جلال مقطع فيديو صغير لواحد من الإيمو، كان يقدّم وصلة راقصة في فندق فخم في بغداد. الإيمو سيف، المكنّى بـ (سيف العروس). ظلّ للحظات يُحدِّق مشدوهاً، كانت هناك موسيقى ساحرة،

وأجساد مجنونة، وحركات تسعى إلى العبور نحو مرح الفرح والبهجة، المرج الذي تحوّل إلى رسمة خيالية في ذهن شعب، بلغ الذروة من فقدان التوازن.

هنا سيف العروس.

يتلوّى بجسد نحيف، راقصاً بين مجموعة كبيرة من فتيات بغداد، كنّ يرتدينَ التّنّورات الطويلة التي أظهرتهنّ مثل عروسات بحر. مثل فتيات الغجر اللواتي كنّ يلهبنَ خيال المراهقين في منطقة الكمالية، وحي الطرب، والفوّار، وحقول (أبو صيدا) الواقعة في ديالى. رآهنّ في طفولته البعيدة يقمنَ بالدور ذاته وسط ساحات البلدة أيّام الأعراس. كنّ يُحدِّقنَ بذهول إلى هذا الشّابّ اليافع، اللابس الجينز الأزرق على حذاء رياضي وقميص أبيض مرسوم على ظَهْره صورة كبيرة لوجه فتاة.

كان يُرجّف جسده، ويتحكّم فيه مثل حاوٍ هندي، يحتلّ المنصّة كملك متوَّج على رعيّته، وشَعْره المقصوص بطريقة الكاريه يُضفي عليه أُنوثة فريدة. يمتصّ الموسيقى الشعبية الراقصة، عبر خلاياه كلّها، يدوزن جسده على الإيقاع، فتنفصل المؤخّرة عن الساقَيْن، وتتراجف الكتفان، وتتحرّك اليدان، كما لو كانتا تعزفان على عود سماوي. لا ينتمي إلى هذا المكان، بل هو مُعلّق في أُفق غير مَرئي، لا يراه سواه. الوجه الأسمر يتألّق بأحاسيس ناعمة، كان مَزهوّاً ببراعته، ممتلئاً بخُيَلاء راقص محترف. السلسلة الذهبية تتواثب من الخلف، بين إليَتَيْه، وكأنها إشارة على رغبات الجسد. السلسلة نداء الجسد. الوَلَه الفائض من الخلايا. الالتباس في الرغبات بين الذكورة والأنوثة.

يُحلِّق جسده، ويشفّ مع الأُغنيّة الشعبية الراقصة مثل طائر التم، حزامه الأبيض العريض يفصل برزخَي الجسد، القلب والعجز، وكأنه يُدرك أنها

رقصته الأخيرة في هذا العالم المُتوحِّش، عالم بغداد المصنوع من صَبَّات كونكريتية، وتعابير رجال صارمة، وعمائم تُحلِّق، مَزهوَّة، في الماضي، وكواتم صوت، تخرج آخر الليل، تصطاد ضحاياها، ونفايات شوارع وأسلاك وبقايا ورق ومعادن متآكلة، تُذكّر بحروب سالفة. حروب نثرت خلفها قططاً سائبة وكلاباً جرباء ورجالاً مخمورين أو مكبسلين، ينامون في الأزقّة العتيقة، وروائح بارود، ومخلّفات يورانيوم غير مخصّب، ونوادٍ ليلية تتخفّى تحت يافطات فنِّيَّة، وأسماكاً تتجوّل في قاع النهر باحثة عن فريسة بشرية جديدة، ذلك كلّه هو بغداد سيف العروس، كما خطر لجلال وهو يتابع شريط الفيديو عن هذا الراقص في رقصته الأخيرة، كما يقول مانشيت الفيلم.

قُتل سيف الإيمو في اليوم الثاني، أو الثالث، أو الرابع بعد تلك الحفلة، المُهمّ، كما فكّر جلال بعينَيْن نديَّتَيْن، أنه قُتل. قُتل على رصيف في منطقة المنصور، قريباً من تقاطع شارع الأميرات، وهو يهمّ بدخول سوق للملابس. وضعوه على الرصيف، ثمّ هشّموا رأسه بـ (بلوكة) من الخرسانة، وكان دمه يسيل على الإسفلت متّجهاً نحو شارع الأميرات، الأمر الذي جعل من مخرج الفيلم يضع موسيقى حزينة، توحي بالموت، والدفن، والفراق، وخمود الذِّكْر. مَن الذي وضعه على الرصيف، وهشّم رأسه الصغير بالقصّة الكاريه والوجه الأسمر الناعم؟ لا أحد يعرف. مَنْ رصد دخوله إلى ذلك المحلّ الشهير؟ وفي أخبار صحفية عن الحادث الذي اشتهر في بغداد، خاصّة بين النخب الشبابية، قيل إن سيَّارَتَيْن رسميَّتَيْن قامتا بالمُهمّة المقدّسة.

قصَّ محرِّكُ غوغل الحدثَ هكذا: خرج من السَّيَّارَتَيْن المُظلَّلَتَيْن، غفلَتَي الرَّقْم، رجال قساة، عيونهم تقدح شرراً، انقضّوا عليه قبل أن يدخل الباب. كتَّفوه، وبطحوه على مَرأى الناس، ومضى أحدهم إلى الباب الخلفي لواحدة من السَّيَّارَتَيْن، وأخرج تلك الكتلة الصّمّاء المُسمّاة (بلوكة)،

ليُنهي حياة الإيمو سيف، ويُنهي ذكرياته عن بيوت الكَرَّادَة، والمنصور، والأعظمية، وليالي السهر والخمرة والرقص، والغناء بين خلان وأحباب تفرّقوا في المسارب السفلية خوفاً من الملاحقة والقتل بالبلوك.

مشكلة سيف هي أنه يريد أن يكون حُرَّاً في مجتمع من العبيد، فكّر جلال وهو يتأمّل بموته المأساوي. حُرّ في مجتمع خانع، دجّال، مُرائي، مريض نفسياً، المجتمع هو خيمة الأمان لا النبع الذي تنهمر منه كائنات الرعب، وقيل إن جثّته حملتْها سيَّارة بيك أب بعد أن بقيت مُلقاة وسط الدماء أكثر من ساعة، وكانت عيناه مفتوحَتَيْن على سماء بغداد، وكأنهما تردّدان السؤال الكبير: لماذا؟ عينان من جمشت، من سعد وعنبر، عينان وُلدتا تحت سَعَف النخيل، ونداءات غربان الزرع، وعصف الغبار القادم من صحراء الجزيرة وغياض بساتين جرف الصخر ونزيز الكاظمية وبحيرة الثرثار.

عينان تخيّلهما جلال وهما تُحدِّقان في أمواج دجلة من فوق جسر الجمهورية، في مساء رائق من مساءات الخريف، ترمقان بدهشة حمّامات الإمام الأعظم (أبو حنيفة) النعمان على مشارف الأعظمية، عينان غادرتا هذا العالم دون أن تُدركا ما هي الوجهة وأين المآل، وكأنهما تتشوّفان إلى حلّاج جديد، يرقص على جسر الشهداء.

رآهم جلال، ذات يوم، وربّما كان من بينهم سيف العروس ذاته، الشّابّ النحيف، في حدائق أبو نؤاس قبل أشهر في أثناء عطلة العيد، كانوا يسيرون حاملين مسجّلاً كبيراً، يضعونه بين حين وآخر على الأرض، ويعزفون واحدة من الأغاني الراقصة، ثمّ يبدؤون بالرقص، تحميهم عساليج التوت وتمرّ الملك وصفصاف الشوارع المغمورة بمياه دجلة، شباب صغار، قصّات شُعُورهم متمرّدة، بنطلوناتهم ضيِّقة، حواجبهم مُعتنى بها، كانوا يمنحون أنفسهم للرقص ساهين عمّا يجري في هذه البلاد. بعضهم يتحدّر من

مناطق فقيرة، تعجّب جلال وقتها كيف مضوا في هذا الطريق: الشعلة، الثورة، البياع، شارع الكفاح، باب الشيخ، الحيدرخانة، الفضل، والناس كانت تتفرّج مذهولة من هذه الشهية للحياة وسط أنهار الدم الجارية في البلد. لم يَلْمَح الحلّاق سعد هناك، فكيف لصقت به تلك التهمة؟ الحقيقة المؤكّدة في هذا الفيلم الفاجع، هي أن سيف العروس قد قُتل في منطقة المنصور، أمام محلّ لبيع الملابس الحديثة، وتحت زخّات مطر ربيعي نادرة، ووسط غابة من الصّبّات الكونكريتية والأسلاك الشائكة والمآذن المقشّرة الطلاء، لم تُطلَق عليه النار من كاتم للصوت، كما لم يُعلَّق رأسه بحبل مشنقة، ولا قُصَّ بمقصلة، تعود إلى العصور المظلمة. كلا. قُتل بواسطة ابتكار رافديني فذّ، أطلق عليه العراقيون اسم بلوكة.

- تبيّن أن سعد الحلّاق من الإيمو، قالت له نور ذات عصر، وتساءلت بعجب: مَنْ يُصدِّق ذلك؟

كان جلال يأخذ سامي ورامي إليه، لكي يقصّ لهما الشَّعْر، يجلس في الصالون، يستمتع بثرثرته حول جيل الشباب، ويتفرّج على الصور المزيّنة للجدران، وينظر إلى وجهه المُميّز، الناعم، بحاجبَيْه المحفوفَيْن، وشَعْره المتهدّل على جبهته، والسلاسل التي كان يضعها حول رقبته، وبنطلونه الجينز الذي زُيّن بحلقات حديدية وأحذية صغيرة وإكسسوارات وجدها في ذلك الوقت غريبة، وعَدّها نزوة شبابية لجيل، لم يرَ فرحاً في حياته. جيل وُلد في أتون الحرب العراقية الإيرانية، وبناتها من حروب لاحقات، وعاش تفاصيل ذلك التاريخ الشيطاني الذي مرّ بعدها. كما يتذكّر جلال كان سعد يضع على الحائط صوراً لشباب أوربيّيْن بشُعُور ملوّنة، وحلقات معدنية في شفاههم، وبنطلونات ممزّقة عند الساقَيْن، وعيون سارحة في المجهول، وحزن عميق يستولي على الوجوه، وفي صور أخرى أزياء مرسوم

عليها جماجم، وسيوف، وأشكال خرافية لحيوانات غير موجودة في هذا العالم. ومن تلك الصور، يصعب التمييز بين الذكور والإناث، ربّما لهذا السبب سمّوهم بالإيمو، أي أصحاب المشاعر الرقيقة. فعلاً، لم يكن سيف العروس، الشبيه بسعد الحلّاق، حين أدّى تلك الرقصة في فندق الميريديان في بغداد، وكما ظهر في الفيديو، ليعير أهمّيّة إلى كونه أنثى أم ذكراً. روح الرقص والنشوة دمجت فيه الذكورة بالأنوثة، وانساق هو لتلك التّجلّيات غير عابئ بعيون الحاضرين.

هل يرقص سعد الحلّاق مثل سيف العروس؟ ربّما، فللشَّابّ حياة سرّيّة، لا يعرفها.

اعتاد سعد أن يقول له عمّو، وهي كلمة أَحبَّها منه، وعَدَّها دلالة على الاحترام.

- عمّو: نحن وَرَثَة معارك وحروب متواصلة قبل أن أُولَدَ. نحن وَرَثَة الدم. نحن جيل لم يعش الحياة كما ينبغي أن يعيشها مليارات البشر في العالم، لم نعرف سوى التوابيت القادمة من الجبهة والحروب التي تلتْها، والحصار الخانق، ومن ثمّ القتل على الهوية، والسعار الديني والمذهبي، والتجييش للقتل باسم الدين. عمّو، حياتنا مثل مقبرة، انظر الدير المقابل لنا، لم يعد أحد يصلّي فيه أيّام الآحاد، لماذا؟ لم يبقَ أحد من مسيحيّي الدَّوْرَة، هدّدوهم، فرحلوا، واستولوا على بيوتهم، ومن بين رائحة عطره الأنثوية، وبصمات أصابعه السلسة على الرؤوس، يقول سعد بحزن: انظرْ، عمّو جلال، كيف يعيش شباب العالم، وكيف نعيش نحن، هل تُسمّي ما نعيشه حياة؟ كان سعد يردّد الجملة ذاتها بين فترة وأخرى. نريد أن نرقص، نشرب البيرة، ندخّن، نصادق الفتيات، نريد أن نسهر حتّى ساعة متأخّرة من الليل، أن نخطّط لحياتنا في المستقبل. نسافر، نتزوّج، نعمل، نسبح

في دجلة، نقيم سفرات مختلطة في حزام بغداد، نلبس كما نشاء، ونقصّ شَعْرنا كما نشاء. نحن لا نقتل، ولا نُفجّر أنفسنا، ولا نعتدي على البشر، لا نسرق، ولا نزوّر الشهادات مثلما يفعلون. محافظ البصرة صرّح البارحة أن قنّينة البيرة أخطر من عبوة ناسفة، هل تُصدِّق ذلك؟ هذا بلدنا، ونحن أحرار فيه، لكنهم لا يقبلون. مجاميع لا تعرف من أين أتت، ولا تعرف ما الذي يريدونه، هاجسها القتل لا غير.

***

سمع جلال وشوشة في الخارج، أصوات رجال، وأقداماً تتحرّك، همسات وحوارات متقطّعة، أشياء تُرفَع، وأخرى تُوضَع على الأرض، فقام من كرسيّه، وأطفأ الضوء، ووقف جنب الشّبّاك مُلقياً نظرات خائفة على ما يجري في الشارع، وامتلأ برعب أن يكون المُسلّحون عادوا إليه هذه المرّة، عرفوا بوجوده في البيت هذه الليلة. الأشباح ترصد كلّ نأمة، كلّ بيت وشارع ومحلّة. وكانت هناك رائحة ثقيلة لمجار فائضة، تهبّ من جهة بيت جواد، وساحة الدير، وكانت هناك رائحة عطنة لبارود، يصعب تحديد مصدره، ومن ثِيل الحديقة، شمّ عبق نبات السعد الجافّ.

رأى من وراء الستارة سيَّارة حمل ضخمة تقف أمام باب جارهم، وكان ثمّة أشخاص ينقلون أثاثاً من البيت إلى جوف السَّيَّارة. السَّجَّاد، المقاعد، الأَسِرَّة، التلفزيون، الثلاجة، الكراسي، البسط، الطّبّاخ، الملابس وقد حشرت في أكياس سود أو ألقيت دون نظام في تلك الهوّة السوداء التي راحت تبتلع كلّ شيء، كان بيت جاره يتهاوى في فراغ الليل. هم يهربون إلى مكان مجهول، بعد أن أُلقي القبض على ربّ الأسرة. جلال واقف بذهول، يتفكّر في ذلك كلّه، ويخالطه إحساسان متنافران، هو يفرح لرحيل جار مزعج، لا يعرف كنهه، ولا هويّته، وكيف يفكّر، وبمَنْ

يرتبط، وفي الوقت ذاته، يأسف لمصير غامض، طال أسرة طالما كانت جزءاً من شارع الدير.

نامت نور، ونام الولدان، والهدوء في المنزل عميق، ليس هناك سوى صوت المُبرِّدة يخضّ ذلك الهدوء، ووشوشة جهاز الكومبيوتر المنفتح على محرّك غوغل.

كان يقف خلف الستارة مثل لصّ، يتابع ما يجري في بيت الجيران، في الظلمة تحرّكت السَّيَّارة بعد أن أتمّ الرجال نقلَ كلّ شيء، تحرّكت باتّجاه الدير، في لحظة، وجدها جلال مَلَك حزينة، رغم أنها صارت مألوفة منذ سنوات طويلة. في أثناء رحلته إلى البلدة، شاهد عشرات السَّيَّارات محمّلة بحقائب على السطح لمهاجرين نحو سورية والأردن. تكتظّ بالنساء والأطفال، بالرجال والشيوخ، بالسافرات والمحجّبات، بالمرد والملتحين. ظلّ يراقبهم بأسف وهم يختفون في سراب الصحاري البعيدة.

هل كان الرجل واحداً منهم؟ أولئك الدراويش الذين يرومون قَتْلَه، كما أخبره عادل؟

من أُفق بعيد، من الذاكرة المُوغِلة في القِدَم رآهم بوضوح: يُنشدون في رأسه بصوت خافت، مجلسهم في الشتاء غيره مجلس الصيف، يسمعهم كما لو كانوا نغمة شبحية متلاشية في نهاية حلم صباحي. في الشتاء، كانوا يجلسون على بُسْط من الصوف، موضوعة على امتداد الجدران، وثمّة فانوس مُعلَّق قرب الباب الخارجي، يُحوِّلهم ضوؤه إلى مخلوقات شبحية، الشيخ ذو العمامة الخضراء والمريدون الذين يلبسون الكوفيات البيضاء، وهم يُسملون على خرز مسابحهم، هم محور العيون، تترصّد أبسط حركة لهم، تُجهَّز الدفوف في الخارج، وتُحمّى على نار،

كي ينبسط الجِلْد، ويعطي أفضل إيقاع له، إذا ما دقّت عليه الكَفّ، الدرابيش البيض الصغيرة والكبيرة تستلقي أمام الشيخ، الآلات التي ستشكّ ما إن ترتفع الصيحات ونقرات الدّفّ في بطون التابعين الذين يختارهم الشيخ، شيخ الطريقة، من بين الحضور، وجهه النوراني يكتنز أسراراً وكرامات، رغم تلك الابتسامة الغامضة التي لا تفارق وجهه العريض المؤطّر بلحية خفيفة. وفي أوّل نقرة على الدّفّ يرتفع صوت المنشد في قصيدة مديح للرسول، يسمعها الجالسون بخشوع، موّال طويل، ثمّ يأتي التوقيع الصاخب الذي يُشعل حواسّ الناس، ويُفجّر اللمعان في عيونهم، والوجد في قلوبهم، فيما تمتلئ أنوفهم برائحة البخور، وهو يتصاعد من منقلة الجمر، ثمّ يطوف في الفضاء المحصور بين أربعة جدران. قصائد عن المصطفى وآل بيته، تتصاعد من حناجر المنشدين، وهم يتعاقبون على الدّفّ، دراويش لم يكن يتذكّر كيف كانوا ينبثقون في البلدة، وكيف تنتشر أخبارهم بين البيوت، فيتوافد عبر الليل الفتيان والرجال إلى القاعة، كي يعيشوا ليلة مليئة بالوجد والإيمان. ليلة قد تتوّج بأكل الجمر أو حزّ رقبة أو ضرب درباشة في خاصرة شابّ في بداية الطريق. قادرية، رفاعية، نقشبندية، والحياة ثقب أسود ضخم، يستهلك كلّ شيء، بما في ذلك ذكريات البشر.

إنها نهاية الرحلة.

أضواء السَّيَّارة الخلفية ذات اللون الأحمر كانت توحي، حين انسربت في سيول الظلام، بتوديع ميّت، أو مغادرة حبيب، أو نهاية حكاية لكائن بشري ربّما حاول أن يستقرّ بين جدران، تكون له وحده. كانت تلك الأضواء تتلاشى قليلاً قليلاً في فضاء الشارع، تترك خلفها صمتاً، وفراغاً، وموتاً، تسرّب بحذر إلى وجدان جلال، وحين استدارت إلى الساحة الممتدّة أمام

باب الدير، كي تدخل شارع الميكانيك متّجهة إلى مكان مجهول، خالط جلال أسف غريب، وخوف، رغم أنه لا تربطه علاقة مع جاره الغامض.

- إنسان آخر يرحل إلى المجهول، فكّر مع نفسه، ومازال واقفاً في الشّبّاك.

أزاح الستارة، وشرع يُحدِّق في الفراغ، في الجذور المتوهّمة عند شجرة الزيتون، وفي الطيور المخاتلة، وهي تتجمّع بين ورق التوت أو بين سَعَفَات النخيل، وفي الظِّيل الموجود هناك تحت ركام الليل، فراغ، في حياة فارغة، لا مجد فيها، ولا بصيصاً من أمل. وكان فيه رغبة فائرة للهروب من هذا الوجود، من شارع الدير، من قصص البلدة، هروب إلى عالمه الافتراضي، خارج هذه الأرض.

***

يريد البشر تواصلاً مريحاً مع حضارة أخرى في الكون البعيد، يفترض أنها موجودة، فأرسلوا لها شيفرات كونية، بلغات كثيرة. أطلقوا تلك المركبة الحاملة لرسائلهم. منذ عقود، وهي تُبحر في المجهول الأعظم. لكنْ، أليس من المجدي لهذا الكائن المسكين الذي يعيش على الأرض، لو أنه ابتكر وسائل أفضل للتواصل مع بني جنسه على الأرض، بدل القتل، والكره، والصراع، والحروب من أجل مصالح تافهة؟

يفكّر بذلك وسط هدأة ليل حارّ، وهو يشاهد فيلمه المفضّل عن الشموس في مجرّة درب التّبّانة.

مليارات الشموس، في مجرّة واحدة، فما بالكَ بمليارات المجرّات في كون واحد؟ هذا إذا صدَّق أن هناك أكواناً متعدّدة في هذا الفضاء العَصي على الفَهْم؟ في عالمه الضَّيِّق والبائس تختصر رسائل التواصل

مسكة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

بطلقة، برصاصة، وكأنها علامة مُرسَلَة من كون آخر، تلبّست الكراهية، غير المفهومة أحياناً، نفوس الملايين المحيطين به، هم مَنْ قتلوا سيف العروس، وفجَّروا أجساد المُصلّين في جامع النور، أَصْحَرُوا الحقول، ورمَّموا الشوارع بالمزابل، وأشاعوا الرصاص والبنادق في الأزقّة والبيوت، ولكن الضمير (هم) هو ما يستعصي على ذهن جلال، حتّى انتهى، ليُوجّه أفكاره خارج الغرفة والبيت والشارع، كما لو يخاطب كائنات بشرية من لحم ودم. كائنات يراها وحده: كذبتُم، زنيتُم، زوَّرتُم، سرقتُم، وضعتُم الأقنعة فوق الأقنعة، لوَّثتُم الهواء بالدخان، جفَّفتُم الأنهار. ونحن: الأرانب، القواقع النهرية، البرّاقات الزاحفة بين الثِّيل وأغصان الشجر في الظلال، نُصفّق لكم، أو نسكت مذعورين. نختنق بلُعابنا اللزج. تتمتّعون بمَرأى الدم مثلما تتمتّعون ببحور القمامة، وهي تحاصر بيوتكم وحدائقكم ومدارسكم. تلفُّون رؤوس نسائكم بالقماش، تُقفلون الأبواب عليهنّ خوفاً على أفخاذهنّ السُّمر الممتلئة. تَنكحون مَثنى وثلاثاً ورُباعاً، وتُصدِّعون رؤوسنا بالحكمة والرحمة والعدل. تُقدّسون أمّهاتكم، وتقتلون بناتكم ونساءكم، تضعون البشر في خانات، وطبقات، ومراتب، وتطلبون منهم التّصرّف بحكمة. تَكرهون غيركم، وتتفرّجون على المذابح بلذّة. تتغنّون بالماضي، فيما تغضّون الطرف عن الدماء السائلة في شوارعكم. نحن القطيع أم أنتم؟

اقتنع أن هذه الجمل لا تعدو أن تكون أفكاراً ساذجة لشخص يجلس في غرفته، ويسبح في فضاء من الأوهام، مدّ جلال يده، ومحا. محا من سطح الشاشة كلّ ما كتبه. نعم، هي علامة. سقوطه في بحر من التفكير والتّأمّل هي إحدى علامات نفقه المظلم الذي أدخلتْه فيه نذر التهديد. علامة لانقلاب حياته رأساً على عقب.

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

أيلول

ورقو الأصفر شهر أيلول تحت الشبابيك
ذكّرني ورقو ذهب مشغول ذكّرني فيك
رجع أيلول وأنت بعيد بغيمي حزيني قمرها وحيد
بيصير يبكيني شتي أيلول ويفيقني عليك يا حبيبي
ليالي شتي أيلول بتشبه عينيك

كلمات جوزيف حرب وألحان فيلمون وهبي وغناء فيروز

نسخة تجريبية © جميع الحقوق محفوظة

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

الحدس هو ما جعل جلال مَلَك يعتقد أن هذا اليوم سيكون يوماً بغيضاً، وكان ذلك الحدس ينغزه في المنطقة الحسّاسة الفاصلة بين القلب والسّرّة، ثمّ يتواصل دقائق، وكالعادة يسقط عليه الخبر، أو الموقف، أو الحدث، ليُبلبل يومه كلّه. أن يصبح الانسان خلية استشعار غير مفهومة، مثلما يحدث معه، أمر مرهق، وعبء صعب الاحتمال، لاحظ ذلك منذ سنوات، حتّى إنه صار يُوقِن بعض اللحظات بأن الأمر راجع إلى قراءاته المتعاقبة بالكُتُب الباحثة في خوارق الشعور وغوامض البشر، وعشقه لأسرار الفضاء وغرائبه، وتَوَلُّهُه بأسرار الجسد البشري، ونزواته، وطبائع عمله.

هذا اليوم بالذات تلبّسه الشعور بعنف، إن أمراً ما سيقع له فجأة، ولن يستغرب وقوعه، على العكس، درّب نفسه على تقبُّله، والاستكانة لتواتره. هو، على أيّة حال، لا يشذّ عمّا يجري كلّ يوم.

الحرارة في الخارج تمتصّ يناعة الشجر وبشاشة الوجوه والابتسامات، كان يجلس متأمّلاً في تصميم بوستر، طلبتْه الدائرة لواحدة من ندواتها حول الاتّصالات وتلوّث البيئة. فكره لم يكن مع تلك الكلمات، والخطوط، والأشكال، التي صمّمها، وأجاد في تنفيذها. فكره يتقلّب مع تلك العلامات التي عدَّها خطيرة على حياته وحياة أسرته. كأن ما يجري ويدور من إشاعات، وقصص، وأحداث، هي تعبير مُصغّر عمّا يجري في البلد. البيئة مُلوّثة بما في ذلك الإنسان ذاته. جميع مَنْ يحيط به يتكلّم بذلك،

ملايين القنابل فُجِّرت، ملايين المُولِّدات والدَّبَّابَات والسَّيَّارات تنفثُ ثاني أوكسيد الكاربون على مدار الساعة. لكنْ، ماذا عن تلوّث الأرواح؟ التّلوّث المسكوت عن معالجته؟ الأشباح تُوجِّه الحياة حيثما تريد. نهر دجلة مليء بالأسماك التي سمنت من التّغذّي على الجثث. نحن نأكل بعضنا مثل العقارب. صحيح أن البيئة ملوّثة، لكن الأخطر من ذلك كلّه هو تلوّث البشر. تلوّث عقولهم. وصل التّلوّث إلى مديات خطرة، تُسبّب الوفاة لاحقاً. بدأ يشعر أنه مُحاصَر، دون أن يعرف السبب. مُحاصَر وسط حقول من النيران. هو سجين في حياة، لم يعد لها طعم، عمله أصبح روتينياً هو الآخر، فَقَدَ بهجته، البوسترات، الموقع الإلكتروني، التحايل على الصور، الألوان، رغم أنها كانت مبهجة ومسلّية في بداية عمله، ويشعر أنها تعطيه مساحة من الحُرِّيَّة في التعامل معها، لكن الحُرِّيَّة كما يُخبره عقله، لا تنتمي إلى الداخل فقط. الحُرِّيَّة لها علاقة بالخارج كذلك، بما يدور في الشارع، والشارع في السنوات الأخيرة لم يعد آمناً. صودر الشارع بجلافة التّخلّف والفوضى والتّمزّق الاجتماعي والروحي والقِيَمِي. حتّى الجوّ تحالف مع هذه الدائرة النارية، فصار الحَرّ لا يُطاق، والغبار يطغى على كلّ لون ومنظر. المياه تغور في الطبقات الأرضية حقبة بعد أخرى، والجفاف يتسرّب إلى هذه الخارطة.

مَرأى الطريق الواصل إلى بلدته، وما فيه من جفاف وبؤس واهتراء، حتّى في شجر الأَثْل والطرفاء البرّيّة، أكّد له هذه الحقيقة، حتّى زملاؤه في العمل يسقطون في بحر من التّقوّلات، والمنازعات، والنمائم، وكأنهم يعيشون في إسار العدمية ذاتها: الجفاف الشامل. يتنازعون لا على تولّي المسؤوليات والمناصب، وهي منخفضة ذات حجوم صغيرة، بل حتّى على الغرف، والطاولات، والكراسي. لم يعد عمله مثيراً. دخل في مرحلة العَدّ مثل أيّ موظّف، مضى عليه في الوظيفة ذاتها عشرات السنين، وينتظر التقاعد. بدأ يعدّ الساعات يومياً، من أجل الهروب إلى البيت.

وهذا اليوم بالذات كان ثقيلاً، حدس كريه يستولي عليه منذ أن دخل باب الدائرة المعتم. كان يُحدِّق، تائهاً، في التصميم الذي أمامه، ويفكّر بالعلامات المميتة التي تحيط به، وجاءه الاتّصال من نور، تطلب منه المجيء إلى البيت. نادراً ما تتّصل به نور إلى الدائرة، يحصل فقط في الأمور الطارئة. ما الأمر؟ سألها بوجل، ودقّات قلبه تتسارع منتظراً الإجابة. أخبرتْه كعادتها وباقتضاب، لقد وجدنا شيئاً في الحديقة، أعتقد أن له علاقة بنا كأسرة. قالت له بصوت بارد، لكنه مخيف: لا أريد الشرح أكثر، الأفضل أن تأتي بسرعة، ثمّ أغلقت التلفون، وتركت جلال حائراً.

***

هل هي رصاصة جديدة معنونة باسمه هذه المرّة؟

أبعد عن ذهنه فكرة حصول شيء خطير لسامي ورامي، ممّا دفعه للقيام عن طاولته وغلق الجهاز، ثمّ قدّم طلباً لإجازة زمنية حتّى نهاية الدوام. الحبال تُحكم طوقها حول الرقبة، والرعب يتمدّد، جملة وردت مباشرة إلى خياله، وانبعثت في رأسه مقولة عادل: حياتنا تُدار من قِبَل مجموعة من الأشباح، فنزل الدرج متعجّلاً، وجلس في سيَّارته المركونة أمام سياج الدائرة. وجدها مثل فرن ناري يتلظّى. كانت النوافذ مُغلَقة، وليس ثمّة رصاصة في مُغلَّف، غير أن ذهنه ممتلئ بالاحتمالات. أدار المحرّك، ومضى صوب شارع الدير.

عادة ما يأخذ طريق (السّدّة) في منطقة (العرصات)، ويعتقد أنه أجمل شارع في بغداد كلّها. هو يحاذي نهر دجلة، وتُظلّله أشجار اليوكالبتوس، مع نخيل سامقة مُعتنى بها، ولها تيجان، تشبه المراوح العملاقة، تسكنها أنواع من الفاختات وعصافير السَّعَف والبلابل البغدادية الملوّنة. وتهبّ من

جهة اليسار دائماً نسيمات خفيفة باردة عادة ما تُنعِش المزاج رغم قساوة الشمس. نسيمات قادمة من طين دجلة، ومائه، ونباتاته، وجزره، وقصبه. تأتي مُحمّلة برائحة زنخة نتيجة لما مات وتحلّل من أسماك، وسلطعونات، وقواقع، وضفادع، وسلاحف، وجذور نباتات وأشجار.

كان يعشق هذا الطريق خاصّة في الخريف والشتاء. ربمّا هو من الشوارع القليلة في بغداد التي ما زال جلال يحبّها، ويجد فيها راحة نفسية وروحية.

قِمَم اليُوكَالْبِتُوس تتلوّى وتندغم في سماء زرقاء، يكسر رتابتها بعض الأحيان سرب حمام داجن أو نورس يرسم قوساً فوق الكَرَّادَة، ليعود بعدها إلى الضفاف الكَثَّة القصب. ساحة الحُرِّيَّة ألفاها فارغة في هذه الساعة، وتمنّى لو يمتلك الوقت والمزاج، كي يجلب الأسرة للأكل في مطعم (الفقمة)، غير البعيد عن الساحة. لم يلتفت إلى ازدحام جسر الطابقَيْن، ولا حركة المرور أمام نقاط التفتيش، ولم يعرْ أهمّيّة للسماء وطيورها، كما كان يحصل سابقاً. الدَّوْرَة مازالت منحوتة من مياه النهر، كما تبدّت لعينَيْه من فوق الجسر، ولم يرَ ذلك الجندي الذي يعتقد أنه دسّ له الرصاصة في السَّيَّارة، ولا رأى نظراته الحاقدة دون سبب. عقله مربوط بحديقة البيت، وذلك الشيء الذي قالت نور إنها وجدتْه هناك، تحت حافّة الباب الخارجي.

ما لفت نظره حين مروره في شارع الطعمة، وقبل وصول جسر الميكانيك، انتشار واسع لرجال مُسلّحين، وسيَّارات بيك أب سوداء تحمل أنتيلات اتّصال طويلة ومتنوّعة الشكل، وكان هناك رجال يرتدون أقنعة، لا تكشف سوى عيونهم، أمّا السحنات، فخبيئة وراء تلك الأقنعة. هؤلاء هم الأشباح. هؤلاء أصابعهم ربمّا، بعد أن اختلطت الأوراق، وعمّ التّوجّس والشّكّ بتفاصيل الحياة أجمع. كانت بنادقهم جاهزة، ونظراتهم ترصد

الماشين والراكبين في سيَّاراتهم، ملابسهم سوداء شبحية، ماذا لو قرّر أحدهم إطلاق النار عليه؟ ماذا لو حدثت مواجهة بين هؤلاء ومُسلّحين آخرين؟ من أشباح الضّفّة الأخرى؟ ما سبب وجودهم اليوم بهذه الكثافة؟ هل لذلك علاقة بما وجدتْه نور تحت الباب؟

كانت هناك أقنعة، ونظرات موارِبة راقصة في عيون العابرين، وأسماء المحلّات تكاد تغيب من شدَّة الوهج، وكانت هناك أبخرة تتصاعد من الأسفلت بألسنة رفيعة من حرارة الأرض، وبدت الشوارع والأزقّة وكأنها مسارب ضيِّقة لكائنات خارجة من العالم السفلي.

رأى جلال قلق المارّة في شارع الطعمة واضحاً، ولاحظ حركاتهم العصبية، وهم يتنقّلون بين الأفران، ومحلات الخضرة، والمطاعم القليلة التي تبيع الدجاج مَشوياً. مرّ بدكّان بيع الفحم، وبالصيدلية، والجامع المنزوي في زقاق جانبي، وبمحلات الفلافل، ورأى أكوام الرقي أمام رجل يجلس على حصيرة من الخوص، يدخّن بذهول. رقي (النباعي)، كُتُب البائع على كوم الرقي. النباعي تقع شمال بغداد. لم يرَها في حياته. هناك مناطق كثيرة يسمع عنها، لكنه لم يزرْها مطلقاً. الظروف الجديدة لم تعدْ تُتيح للفرد معرفة بلده. في داخله توق كبير لقضاء أسبوع كامل في الأهوار التي شهدت ولادة السومريّيْن، أو السباحة في شطّ العرب أقصى الجنوب. وكانت أغصان شجر الليمون في البيوت القريبة من الشارع تتهاوى نحو الأرض ذابلة من الحرارة. بدت له المنطقة، وهو يتأمّلها بتركيز، وكأنها تجمّع عشوائي لبشر وبيوت وأشجار ومسارب للمشي، بدت مفتعَلة، كما لو قام شخص مختلّ العقل بلصقها عشوائياً، وترتيب أعضائها، لتصبح مكاناً غير منسجم، ولا يحمل أيّ سمة للأناقة أو الجمال. التّقلّص عند السّرّة ينغزه وهو يقترب

من البيت، وثمّة خوف من مجهول، يتلطّى وراء الواجهات وسقائف البيوت وغبار السَّيَّارات. يتذكّر أنه شعر به منذ جلوسه على طاولة العمل في الساعة الثامنة.

ما يقع عليه بصره ليست الدَّوْرَة التي سمع عن أناقة شوارعها وكنائسها وحدائق بيوتها منذ الطفولة، منذ حقبة الشباب التي قضاها في البلدة، وكان يحلم بالعيش في بغداد. ورغم الحرارة الخانقة، كان أولئك المُسلّحون يقفون في أطراف الشارع مثل تماثيل مرعبة. لاحظ التناقض الكبير بين السلام المنبعث من مَرأى عُذُوق النخيل وهي تتدلّى في فضاء حدائق البيوت وصورة المُسلّحين الماسكين ببنادقهم، واقفين في ظلال أشجار النخيل. ذلك كلّه جعله يُضاعِف من سرعته، ويُوجِّه بصره بعيداً عنهم، رغبة في الخروج من مستنقع السلاح والعدوانية ذاك.

تجاوز محلّ النخلة للمشروبات، وفرن الخبز، ولم يلتفت إلى دكّان جميلة ومحلّ سعد الحلاّق، لم ينظر إلى واجهة مقهى الجماهير المفتوحة على الغبار، وغاب جواد في ركن من أركان هذه المنطقة الهجين التي تحوّلت إلى خليط غير معروف من المهجَّرين، والهاربين، والنازحين من كلّ حَدَبٍ وصَوْبٍ.

وصل مُنهَكَاً، خائفاً، قلقاً، إلى البيت، وكان شارع الدير مُقفِراً، وجد رامي الصغير أمام الباب، والباب مفتوح، أعدَّتْهُ نور لاستقبال السَّيَّارة، ونور تقف تحت شجرة الزيتون، في بقعة صغيرة من الظّلّ، وجهها شاحب، ويدها تمسك بقرص مدمج، وتُحدِّق إلى جلال بذعر. خمّن أنها تقف هذه الوقفة ذاتها، مع السي دي، في يدها منذ اتّصالها به وحتّى الآن.

وجدت هذا تحت الباب، قالت له ما إن أطفأ المحرّك، ورفع الغطاء

الأمامي، وهو ما يفعله يومياً بعد وصوله، وراحت تُلوّح بقرص مدمَج في الهواء، كما لو تؤكّد دليلاً جديد على المعضلة التي يمرّ بها جلال.

***

اكتملت العلامات.

***

هكذا شعر مع نفسه، وهو يجلس ناظراً بذهول إلى ما يحتويه القرص.

هو مُوجَّه له هذه المرّة دون شكّ، ينبغي عليه أن لا يستخفّ بهذه الرسائل، وضعوا القرص داخل بيته، ولذلك دلالة لا يمكن الشّكّ بمعناها. بذل جهداً كبيراً، كي يبقى متماسكاً، وفي قرارة نفسه حدس أن هذا القرص يستهدفه، يعنيه هو بالذات، وهو رسالة أشدّ وقعاً من الرصاصة، كونه دُسّ من تحت الباب. لم يسقط من السماء، ولم يُرسَل سهواً. المرسل يعرف بابه الحديدي الأسود، وشجرة الزيتون المنتصبة جنبه، والنافذة الضَّيِّقة في الطابق الأوّل، ويعرف عدد العُذُوق حتّى في نخلة جارتهم جميلة، والأطيار التي تحطّ على أغصان شجرة الزيتون.

المحتوى معروف. التكنولوجيا الهابطة عليهم مسخّرة للقتل، عكس الأمم جميعها. شاهد عدداً كبيراً مثل هذه المقاطع قبل اليوم، شاعت في البلد بعد أن سقط النظام، ودخل مئات آلاف الجنود بدبَّاباتهم، وطائراتهم، وأشكالهم الغريبة، ولغاتهم، ونقودهم، وقصّات شُعُورهم، وأسلحتهم الخفيفة التي لا تشبه ما ألفه الناس هنا. انتشرت السيديهات في الأسواق والمُدُن والبلدات، تداولها الناس في البيوت، وشاهدوا مقاطع منها في نشرات الأخبار، وفي المواقع الإلكترونية، والصحف المحلّيّة. معظمها

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

خليط من أناشيد دينية، ورايات ذات مضامين متعدّدة، ووجوه مقنّعة، وسكاكين، وبنادق، ورقاب عارية ممطوطة جاهزة، وضحايا مُقيّدين، وصواريخ تُطلَق على عربات عسكرية، وثُلل من الجنود في المُدُن، وعند السواقي الريفية، وعلى تخوم الصحاري، وبين البيوت في المُدُن المكتظّة. مَنْ يظهر فيها يشبهون الممثّلين، صبيان ورجال وشيوخ ونساء بملابس تقليدية مثل الدشداشة أو حديثة كالبنطلون والبلوزات والتيشيرتات والأحذية الرياضية. شاعت مثل هذه السيديهات لمختلف الجماعات المُسلّحة التي نظّمت نفسها في ألوية، وفيالق، وحركات، وعصائب، والسِّمة الغالبة عليها هي الروح الدينية الواضحة عبر الأناشيد، والكلمات، والعبارات، والرسوم، والشعارات.

وكان عنوان هذا القرص المدمَج صريح وواضح: الرجال الرجال.

في مواجهة جدارية فائق حسن، عند الشارع الذي يقود إلى الشيخ عمر، رأى قبلئذ كثيراً من السيديهات المشابهة، يضعها شباب قلق التعابير على صناديق خشبية جوار الأفلام الثقافية. ألم يقلْ عادل إنهم صاروا ينتشرون في المنطقة، وهم يعملون تحت الأرض، ويتزيّون بأزياء لا تخطر على البال، بما في ذلك تقمّص شخصية متعاطي الخمرة أو مرتدي الأزياء الحديثة من الشباب؟ هل يُعقَل أن يكون سعد الحلّاق منهم؟ لكن سعد اتُّهم بانتمائه إلى حركة الإيمو البغدادية؟ أو نهاد سائق التاكسي؟ عادل؟ أبو نغم؟ جواد؟ مؤذّن جامع النور؟ هل اعتُقل جاره لهذا السبب؟

تلك الأفكار كلّها وردت على ذهن جلال، وهو ينغمر برؤية محتويات ذلك القرص. كان ينزل إلى المطبخ كلّ ساعة، يطمئنّ نور موضحاً ومبرّراً: سي دي عامّ غير موجّه لأحد، يقول لها، فتظلّ صامتة، هي عمليات يُسمّونها (مقاومة) ضدّ الاحتلال الأميركي.

الصور الموجودة على القرص لا يمكن احتمالها. كان جلال مَلَك يُحدِّق فيها بذهول. هل يمكن أن توجد بربرية في هذا الزمن تصل إلى ما صور في القرص؟ كانت هناك أصابع تتّهم المشاهد، وعيون غامقة السواد تكاد تلتهم المُحدِّقين بالشاشة، وجدران ملساء خلف الأشخاص لا تدلّ على هوية محدّدة، لا للمكان ولا للأشخاص، وكانت هناك خرائط وسيوف وآيات قرآنية تحثّ على الجهاد والمقارعة واستنهاض الهِمَم، هِمَم المسلمين بالذات.

واضح أن التصوير لم يكن يتّجه إلى غرض إعلامي فقط، هو يُهيِّئ المشاهد إلى حفلة من الرعب، إلى مخاطبة واعية لعقله مُستلّة من تاريخ طويل، مكتوب وغير مكتوب، من العنف. قَطْع رأس بسكّين، تقطيع أطراف لمناوئين وزنادقة ومُلحدين ومتصوّفة، خنق الضحايا بخيوط رفيعة قوية من القطن غيلة، سَقْي الضحية بكأس من الشراب ممزوجاً بالسّمّ، تجميع الشباب في قفص حديدي، ثمّ صَبّ النفط على القفص، وحَرْقه بمَنْ فيه، وهكذا. هذا الشريط يريد، بوعي، إرهاب المقابل. الغرض هو الإرهاب، ليس أكثر.

وفي الشريط، تصوير مرتبك لعمليات ضدّ القُوّات الأميركية في الفلوجة، وتكريت، والثرثار، والقائم، والرّمّانة، وأبو غريب، وأطراف الكوت، وهي عمليات مصوّرة بدقّة، عادة ما تُظهِر انفجار لُغم برَتْل عسكري أو وقوع دبّابة في فخّ ناري أو رَمْي على دورية أميركية راجلة تمشي في جوانب الطُّرُق بحثاً عن الألغام والمتفجّرات.

أغرب مشهد مصوّر في ذلك الشريط المدمَج، عملية طريق القائم، وفيها واحد من الأتباع كما يقول الشريط، يُفاجِئ رتلاً أميركياً متّجهاً إلى الحدود، يُفاجِئه من سطح سيَّارة حمل تمشي في الاتّجاه المعاكس.

والخلفية رمال مترامية، وأُفق مغبرّ، ومقالع لحجر يُستخدم في البناء، وتلال خفيضة عارية إلا من السراب، ويقف الشخص مُصوِّباً رَشَّاشَه البي كي سي نحو الرتل دون خوف، وقد فُجّر ذلك الشخص بقذيفة "أر بي جي سِفنْ" أميركية هو وسيَّارة الحمل، لكنه قَتَلَ كثيراً من المحتلّين، يقول الشريط، وهو يرفل بالسَّكِينة اليوم في جنّة عرضها السماوات والأرض، بين ولدان وجوار وأنهار من العسل واللبن والخمر.

في تلك اللحظة، تاق جلال مَلَك، بصِدْق، لو يسافر بعيداً عن هذا المكان، وعن هذه الكرة الزرقاء، لينطلق في سفينة فضائية نحو مجرّة، تبعد آلاف السنين الضوئية، لكنه لن ينسى، بالتأكيد، كما فكّر، نور وسامي ورامي، فالرحلة ستكون مُوحِشة من دونهم. مثل مَنْ يتقمّص تمثالاً من البرونز أو الحديد، أينما يميل يصطدم بحاجز سميك، وهي فكرة تخطر على ذهنه، كلّما حدَّق بتمثال الرصافي المنتصب وسط الساحة، أو الشخوص الملصقين بجدارية جواد سليم عند فم الجسر، جسر الجمهورية. لكنْ، ما علاقته بهذا كلّه؟ سأل جلال مَلَك نفسه وهو ينظر بتمعّن في محتويات هذا الشريط على شاشة الكومبيوتر الشخصي الموضوع على طاولة من البلاستيك، مُواجِهاً شبَّاك غرفته المُطلّ على شارع الدير وحديقته المزروعة بالثِّيل وشجرة الزيتون التي تلغط فيها العصافير.

ما علاقته هو جلال مَلَك بذلك النزيف كلّه من البربرية؟

هؤلاء هم الذين يشكّ فيهم عادل. جلال مَلَك المصمّم في دائرة مُهمَلة، تقع في نهاية شارع العرصات، أين موقعه من كلّ ما يجري في هذا البلد؟ لمَ وُضع القرص في بيته؟ كيف دُسَّ من تحت الباب؟ ومَنْ دسَّه؟ وتلك أسئلة لم تعد تنحصر بذهن جلال مَلَك وهواجسه المتشابكة، إذ سرعان ما عرف بها شارع الدير كلّه، عوائله، صغاره، باعته، واعتقد جواد،

كما قال في أكثر من مكان، أن في القضية خطأ ما، فَمَنْ يكره جلال مَلَك؟ هو لا يؤذي ذبابة، بالعكس يحبّ أن يساعد الناس، وكثيراً ما دسّ نقوداً في يده، لا تتناسب مع المُهمّات التي يُكلِّفه بها.

الأسرار في شارع الدير تنتشر مثل الرائحة القوية، ولا أحد يعرف المصدر.

***

القرص ومحتوياته كانا مثار جدل في محلّ سعد الحلاّق، وفي دكّان جميلة، وعلى مصطبة عادل حين كان يُحادث المارّة أو الذين يجلسون قليلاً معه، ثمّ يغادرون. مصطبة عادل تلمّ معظم الحوارات. جلال مُستهدَفٌ، قال له واحد من الجيران، والأفضل له مغادرة الشارع، يبيع منزله، ويبحث عن منزل آخر في منطقة نائية، الدَّوْرَة لم تعد آمنة له. نظر عادل لمُحدِّثه متعجّباً، وقال له بذهول، جلال مَلَك لا يملك البيت، هو مستأجر، هل تعتقد أن موظّفاً بسيطاً، يمكنه شراء بيت في بغداد هذه الأيّام؟ لا يمكن ذلك، اللصوص، والعصابات التي تختطف الأطفال والنساء، والسماسرة، وسياسيو هذا الوقت، الذين جلبتهم عاصفة الأميركان، هم وحدهم مَنْ يمتلك قدرة على شراء بيت في بغداد. انظرْ بيتي هذا، جمعتُ ما ورثتُهُ من أُمّي، مع بعض المدّخرات من رواتبي التقاعدية، وبعتُ بيتاً صغيراً في بغداد الجديدة، وشاركني أخي عمر، وبالكاد استطعْنا شراءه. قيمته لا تتجاوز مئة ألف دولار، وهو بيت مُهَلْهَل، كما ترى. قضبان الحديد بارزة في السقف، وأصبحتْ ملاذاً للزنابير السود والعظايا العاطلة عن العمل، والرطوبة منتشرة في جدرانه، حديقته سبخة، ولا أمتلك المال لتجديد ترابها أو زرعها بالثِّيل، لكنني سعيد رغم ذلك، لأنني لا أدفع إيجاراً. أمتلك، على الأقلّ، سقفاً لزوجتي وأطفالي.

قَطْع الرؤوس، وتفجير السَّيَّارات، ومهاجمة الدوريات الحكومية والأميركية، وساحات التدريب، وغير ذلك ممّا ظهر في القرص، كلّها كانت مُوجَّهة حصراً إلى جلال مَلَك، قالت بعض النسوة في دكّان جميلة. إنه تهديد صريح يقول: سنفعل بكَ بطريقة مشابهة لما موجود في اللقطات المعروضة.

نعم، الرسالة واضحة.

وكلّ ما كان يدور في شارع الدير يصل إلى جلال، لكن أخطر ما نُمي إلى سمعه لحدّ الآن تلك الإشاعة التي قطعت كلّ أمل لديه في البقاء، أو تجاهل العلامات التي كانت تُوجّه مصيره نحو المجهول. الإشاعة، وربمّا الحقيقة، أو الرسالة التي تؤكّد بشكل قطعي أن جلال مَلَك هو مَنْ وشى بجاره (أبو هند)، العامل في مُنظّمة رفع الألغام، إلى السلطات الأمنية على أنه إرهابي أو متعاون مع الإرهابيّيْن. يرفع تقارير يومية إلى جهة مجهولة حول حركة الأشخاص في شارع الدير والمناطق المجاورة، حول عملهم ونشاطاتهم وطوائفهم وما يملكون من أموال، وظلّت الشائعة تتمدّد أكثر من شهر في المجالس والغرف، وتقول مؤكّدة: عمل جلال في تلك الدائرة ما هو إلا غطاء لنشاطه، لهذا أرسل له الشريط دون غيره.

هل وُزِّع القرص على بيوت أخرى؟ أم على بيته فقط؟ ؟ أراد جلال مَلَك أن يعرف حقيقة ذلك القرص، أو يستشفّ شيئاً ممّا يدور في شارع الدير، ولا يصل إليه. ليس كلّ ما يعرف يُقال، هذا هو شعار الجميع. كانا، جلال مَلَك وجاره عادل، يجلسان معاً على المصطبة بعد أن خفّت حرارة الشمس، وبدأت نفحة خفيفة من البرودة تأتي من سَعَف النخيل فوقهما، ومن أغصان شجر الليمون المُثقَلَة بالثمار الصفر في حديقة بيت عادل. لم يعد يُفاجِئ جلال أيّ خبر يجبهه، وفي أيّة لحظة، هناك استسلام للواقع

يتمدّد في جسده، هناك مَيْل إلى المشي نحو مصيره المحتوم دون أيّة مقاومة، مثلما يحدث بعض اللحظات لأشخاص يتفرّجون على جريمة أمامهم دون أن يُحرّكوا ساكناً لمنعها. هذا الاستسلام سيطر على عقله، أجل، سي دي دُسَّ من تحت الباب، وهي الموضة القادمة مع العاصفة المهولة لتهديد المخالفين، لإرعاب العملاء للاحتلال، لثأر شخصي، يعود تاريخه إلى عقود الحروب الماضية، ولا يختلف ما موجود في هذه اللقية الجديدة عمّا يجري في الطُّرُق والأزقّة والمُدُن المتناثرة في تربة هذه البلاد، مشاهد لرؤوس مقطوعة، يقطر منها الدم، وجوه منتشية بالقضاء على الضحية، رايات سود أو ملوّنة، ديكورات عامّة في غرف مُغلَقة أو فضاءات مُوحِشة وأزقّة خلفية، مواجهات مع أميركان، مواجهات مع مجموعات أخرى، تختلف بالعقيدة، وفي غرفته المعتمة كثيراً ما أيقن أن الدراويش أرسلوا له الرسالة بنجاح، وما عليه سوى أن يستعدّ للموت بواحدة من الطُّرُق: الذَّبْح بالسّكّين أو التّهيّؤ لتفجير انتحاري أو عبوة لاصقة تُوضَع له تحت مقعده بالضبط، كي تجيء الإصابة قاتلة، وأيقن أنه مُوجَّه له وحده، عكس ما أخبر زوجته نور، كي يُطمئِن هواجسها، ويزيل رعبها، خاصّة وقد أكّد له عادل، عين الشارع الحسّاسة، أن لا أحد من القاطنين تلقّى شيئاً مثل هذا في الأسابيع الأخيرة:

- لم نجد شيئاً، ولم يُخبرني أيّ من جيراننا أنهم وجدوا قرصاً تحت الباب، هؤلاء غدّارون، ردّ عليه عادل، يمكنهم عمل كلّ ما لا يخطر على البال، وربّما تكون صدفة، مَنْ يمكنه الجزم بما يجري حولنا؟ منذ تلك الحرب المشؤومة ونحن مثل سكران، يترنّح في شارع مُظلِم. لا هو يرى ما يعترضه، ولا هو يدرك ما الذي يجري له. ما ذنبي أنا، وقد أمضيتُ عشر سنوات في الأسر، بين القمل والجرب والمذلّة واليأس؟! انظرْ حتّى أسناني تشلّعتْ، وأنا لم أصل الخمسين. كانوا يعاقبوننا أحياناً بالوقوف في الثلج،

ودرجة الحرارة تحت الصفر، أو يتركوننا بلا طعام. أمّا الإهانات اليومية، فكانت زاداً نزدرده على مهل. نُدخّنه مع سجائر البهمن والآزادي. حياتي التي تحطّمت، شبابي الذي ضاع، همومي التي أرتشفها مع كأس العَرَق، كلّ ثانية ودقيقة وساعة، مَنْ هو المسؤول عنها؟ الذين أسروني، ولم يطلقوا سراحي حتّى ذابت الروح منّي، أم أولئك الذين وضعوني على الساتر، وقالوا احمِ نفسكَ؟ انظرْ هنا، معظم المسيحيّيْن غادروا الدَّوْرَة، بيتي هذا كان لموظّف مسيحي، هرب قبل سَنَتَيْن، لأنهم هدّدوه بالقتل. باع بيته، وهاجر إلى السويد، يسكن في مدينة، تُسمَّى مالمو. نصف بيوت شارع الدير كانت لمسيحيّيْن. قبل عشرات السنين، كانت الدَّوْرَة مثل مدينة سياحية. الشوارع النظيفة، والموضات الحديثة، والمحلّات المشعشعة بالضوء والوجوه الجميلة، وباصات نقل الرّكّاب لا تنقطع ليلاً ونهاراً. نحن نعيش اليوم في خراب، وسط المزابل والطُّرُق المقطوعة والبنايات الساقطة والمتآكلة والنساء الملفوفات بالسواد مثل غربان النخيل والقتل اليومي والتهديدات. ولا أحد يعرف بالضبط ماذا يجري. الناس تتراكض مثل السّكارى وراء لقمة العيش والأمان. وليس هناك أيّ أمل في الأُفق. حسبنا أننا بعد التغيير سندخل إلى الأرض الموعودة، إلى الجنّة، لكننا كنّا واهمين. سقطْنا في حفرة أشدّ هولاً.

وكان جلال يسمع واجماً، فحديث عادل هو حديث الجميع، بل يعبّر عن أفكاره هو، جلال مَلَك. صار هَمّ البشر هو الحفاظ على حياتهم، ليس أكثر. ارحلْ، قال له بحزن، جدْ لكَ بيتاً آخر، في منطقة أخرى. هؤلاء لا يُؤتَمَنُون، ثمّ دعاه للعشاء، فرفض جلال، ورجع يمشي بتمهّل إلى البيت. مال نحو اليمين، ودخل سوق الحَيّ، ساهماً، والضجيج يُغلّف الخيوط المعتمة التي بدأت مصابيح الشارع والمحلّات تزيحها عن الأرصفة والواجهات والأشجار القليلة المنتصبة في حدائق البيوت السَّكَنية، اجتاز

محلّ الكَرَّادَة، ووجد فرن الصَّمُّون فاتحاً، فاشترى عشر صمُّونات ساخنة، ولم يجد أيّ رغبة في تبادُل الحديث مع أحد.

***

ما العمل، يا جلال؟ والقرص مُوجَّه لكَ وحدكَ، إذنْ، فكّر جلال بذهن مشوّش. وكانت هناك زنخة تسري في فضاء الشارع، زنخة سمك يُقلى على نار هادئة، ورائحة مجاري ثقيلة، تصدر من الأرض، وكانت هناك رائحة جفاف، تلفّ الجوّ المحيط، قادمة من الحقول البعيدة الواقعة على أطراف العاصمة.

صار على قناعة تامّة بضرورة الرحيل. لكنْ، أين يرحل؟ وكيف؟ وتذكّر قول أخيه كمال مَلَك حول رجوعه إلى البلدة، والسَّكَن في غرف الطابق الثاني من بيت العائلة. لو عاد للسَّكَن هناك، فماذا عن وظيفته؟ وكيف يُدبّر أموره المعاشية، خاصّة بعد اعتياده على حياة بغداد، وروتين الوظيفة، والأصدقاء والجيران؟ كيف يفارق بيت جميلة وبيت إقبال والحلّاق سعد وجواد ومحلّ الكوخ والكَرَّادَة؟ كيف يفارق ذلك الروتين اليومي الذي يجد فيه شيئاً من الاستقرار والهدوء؟

وقف ذلك المساء في غرفته ساهماً، راغباً في الهروب من كلّ ما يدور حوله، فيما بقيت نور ساكتة طَوالَ الوقت، ثمّة شيء يُقلق جلال، لا تعرفه بالضبط، تحسّه، باستشعارات الأنثى حتّى دون أن يتجسّد بكلمات ملموسة وواضحة. لا تعرف ماذا تقول، فمن خلال سنوات الزواج ومخالطة جلال مَلَك، أدركتْ أنه الأعلم في ما ينبغي اتّخاذه من قرارات. وجلال يدرك جيِّداً، هو الآخر، أنه القبطان في هذه السفينة الصغيرة، وهو الأقدر على اتّخاذ القرار الصائب.

تطلّع من خلال الستارة إلى بيت جاره، فألفاه مظلماً، مُوحِشاً، تتدلّى سَعَفَات نخيله إلى الأسفل، لا أحد يقصّ العُذُوق الناضجة، وحركة القطط تتردّد خلف السياج، قطط سائبة تدخل في عَتَمَة الحديقة، تفتّش عن طعام أو تبحث عن مكان للاختباء، الظلام يسود على الشبابيك، ويتكاثف أمام الباب الخارجي، والصمت يتلوّى على السطح وفوق الممرّات الإسمنتية. لم يعد هناك أغانٍ لمُنشدين، ولا ضربات دفوف، لقد رحلت عائلة من بيتها، كما رحل ملايين الأُسر، لهذا السبب أو ذاك. عائلة تركت حكاياتها وراءها، تعلكها الأفواه، وتتسامر بها العيون في الصالونات، وفي الغرف المُغلَقة للنساء. لكنْ، ما علاقته هو بهذا الرحيل الأليم؟ لقد ظُلم، والإشاعة لم تكن صائبة. فما علاقته هو، جلال مَلَك، بالأجهزة الأمنية؟ وهل يمكن له أن يشي بجاره؟ رغم أنه لا يمتلك أيّة دلائل على تورّطه بأمور خطرة كالتي تتكلّم بها بيوت شارع الدير. هو أيضاً لا يملك أيّة علاقة مع جهاز الشرطة. ولا يحبّهم أبداً. يرغب في أن يغيب عن ذلك كلّه، يعيش في عالم الخيال، العالم الافتراضي الذي يُنقِذه من السأم والوحدة والخوف.

***

بعد غيبة طويلة، استدار هذه المرّة إلى فضاء الجنس، حقل البورنو، الذي يُهيّئه له الإنترنيت، وكثيراً ما تعجّب من تردّده، أو تأرجُحه بالأصحّ بين هذَيْن العالَمَيْن المتناقضَيْن، المتضادَّيْن، البعيدَيْن البُعْد كلّه بعضهما عن البعض الآخر. عالم الفضاء والأكوان والمجرّات والثقوب السوداء والشموس البعيدة والسنوات الضوئية والانفجارات العملاقة والكواكب الضائعة في بحر من ملايين السنين الضوئية، وبين عالم النساء، والخيال المثير لعلاقة المرأة بالرجل، وفنون العشق والمضاجعة، العالم الذي يضعه بديلاً عن

الخوف الحياتي والعلاقات المتوتّرة والنمطية القاتلة في عشّ الزواج، والتزامات الأسرة والأُبوّة والموروث الاجتماعي.

في هذا العالم الجديد الذي أطلّ عليهم بعد سقوط النظام، وزوال الجدار الحديدي عن ثمار الحضارة الإلكترونية الوافدة، تعجّب من شساعة هذا الخيال الجنسي الذي يبثّ على آلاف، وملايين المواقع الجنسية. كأنه يضع البشرية أمام مرآة أشواقها، وشذوذها، وميولها، مهما كانت غريبة وغير مألوفة. كأن هذه الحضارة لا تريد هجر أصولها الحيوانية المتمثّلة بالوصال الجسدي بين الذَّكَر والأنثى، وغرائب ذلك التواصل، وأنواعه، وطُرُقه، وأساليبه، وعتماته المبثوثة في ظلام الأرواح، سواء كانت في قرية أو مدينة أو قارّة بعيدة نائية. ثمّة خيط، أجل، بين غرائب الكون التي اكتشفها البشر، وبين بحر الجنس وحفظ النوع على كوكب الأرض، كما تعرضه تلك المواقع، وإن جاء أحياناً بصيغة ميكانيكية مباشرة، تزيح الستار عمّا يفعله الذَّكَر والأنثى في غياهب الأرواح والغرف المعتمة.

ضاع جلال مَلَك ساعات في ذلك المحيط الغريب. وكانت هناك أَسِرّة مثيرة، وأعضاء جنسية من البلاستيك، ومَراهِم لتسهيل الممارسة، وأضواء خافتة، وكانت هناك أجساد وردية أو سوداء، طويلة أو قصيرة، ومناظر خارجية لغابات وحقول وبلاجات، ومناظر داخلية في قصور وغرف وزنازين وباصات نقل عامّ. شابّات، شباب، عجائز، متزوّجات، سود، بيض، طوال، قصار، غابات، شوارع، مُدُن، طائرات، باصات، عوّامات، صحاري، أكواخ نائية، مزارع، كلاب، حمير، أحصنة، خنازير، تعر، ثياب، والبشر، ذكوراً وإناثاً، يلتقون بمختلف الطُّرُق لتجسيد البانوراما الجنسية التي انبثقت على ظهر الأرض منذ ملايين السنين.

هذه حقيقة البشر، فكّر جلال مَلَك، يقفون على طبقة سميكة من

هذا العالم الحيواني، وفي الوقت ذاته، يتطلّعون إلى النجوم المشعّة النائية، التي تبعد عنهم ملايين السنين الضوئية. رحلتهم المكتظّة بملايين الوشايات ومشاعر الكراهية والطمع والغَيْرة والجشع والخوف والمؤامرات الصغيرة، تلك الرحلة بين الولادة والموت، لا تتجاوز المائة سنة. ينبغي لهم تقبّل هذا القدر. تشوّش ذهن جلال مَلَك وهو يصل إلى هذه النتيجة المرّة، وبادر إلى إغلاق جهازه، والتّأهّب للنوم في غرفته الصغيرة الواقعة في شارع الدير من منطقة الدَّوْرَة. المنطقة المنزوية بين ذراعَي نهر دجلة، في بلد اسمه العراق. البلد الذي يحتلّ بقعة صغيرة من قارّة آسيا، وهي القارّة الشاسعة بين عدد من القارّات المكوّنة مع المياه الزرقاء المليئة بالأشنات، والحيتان، والأسماك، كوكب الأرض المنفلت في مسار ثابت حول نجمة متوسّطة الحجم، نجمة اسمها الشمس، تدور حول مركز مجرّة درب التّبّانة. وتُعدّ المجرّة الوحيدة من بين ملايين المجرّات التي تحتوي على حضارة عاقلة، يقول العلماء في وكالة ناسا الأميركية.

يتأمّل بسطوة عالم فضاء على وجوده، يتوصّل إلى تبرير مقنع، هو أن الأمر لا يعدو أن يكون هروباً من شعور الفناء الذي يتهدّده، أو على الأقلّ، يجعل من الموت ظاهرة تافهة، مقارنة بهول الزمن اللانهائي وشساعة الأمكنة خارج الأرض، وهذا الشعور، وتلك القناعة، عتبة ناجعة وموفّقة، كي يستطيع دخول عالم النوم دون أرق، أو تسهيل آلية اتّخاذ قرارات جوهرية، تمسّ مصيره.

***

ارحلْ، يتوسّل به عادل بعينَيْن ثابتَتَيْن، أنتم السابقون ونحن اللاحقون، يمازحه لتخفيف وطأة النصيحة عليه، فالمصيبة إذا عمّت هانت، والمرء حين يقف أمام جدار لا يبقى أمامه سوى الهدم، هدم البيت، والفرار

من الشبكة الغامضة الزاحفة باتّجاهه، وثغرة الجدار تبدأ ببيع السَّيَّارة، والحصول على مبلغ مناسب للرحيل، للطيران خارج القفص. هذا القرار الجادّ، والنهائي، ظلّ يفكّر فيه أسبوعاً كاملاً: في الشارع، في العمل، في الليل والنهار. أصبح كابوساً. أصبح هدفاً، ينبغي الوصول إليه حتّى لو فَقَدَ رأسه.

كلّما جلب تلك البلدة الصغيرة عبر محرّك البحث المُسمَّى غوغل يُصاب بالرعب. البلدة الصغيرة التي يقطنها صاحب السَّيَّارة الأصلي، والمَدعوّة بالرّمّانة. شاهد مكانها النائي على الخارطة، وانتابته رعشة خوف في جوفه، تلك أماكن لم تطأها قَدَمَاه قطّ. في أثناء الحَيْرة التي استولت على جلال مَلَك وخوفه من المغامرة، قرّر ما إن هدأت العاصفة الترابية التي استمرّت ثلاثة أيّام، وضربت بغداد بشكل مُفاجِئ، ولوّنت واجهات البيوت وأغصان الشجر والأرصفة بلون أصفر، وشلّت الحياة رغم أنها خفَّفت من الحرارة قليلاً، السفر إلى هناك.

ينبغي إنجاز الخطوة المُهمّة في مشروعه، دون الإعلان عن هواجسه لأحد.

سيتنكّب الطريق الصعب من أجل بلوغ الهدف. والهدف هو الحصول على مبلغ من المال سيكون الأساس لمشروعه السّرّيّ الذي يشغل عقله. سيهرب مثل ملايين العراقيّيْن المبعثرين بين المُدُن والبلدان.

رحلة مثل حلم، لا بدّ من القيام بها.

لم يكن جلال يرغب في إخبار نور بحقيقة ما يحسّ به، ويفكّر فيه من أنه خائف. خائف وقلق ممّا سيحصل له مستقبلاً. نور وكما يعرفها من خلال معايشته التي امتدّت أكثر من عقد، تمتلك روحا تهويلية، تتوقّع الأسوأ دائماً، ربّما خوفها على الوَلَدَيْن، يدفعها إلى أن تتصرّف وتفكّر على هذا

النحو. تعلُّقها بسامي ورامي مبالغ فيه أحياناً، يتذكّر كيف كانت ترافق سامي إلى مدرسة ابن سعد يومياً، لا تتركه إلا بعد أن تطمئنّ إلى دخوله في الصّفّ، وتقف عند الساعة الواحدة أمام باب المدرسة مع عشرات من النساء اللواتي جئنَ لأخذ أبنائهنّ، وهنّ خائفات من الخطف أو التفجيرات. تقول لا أستطيع النوم دون أن أحسّ بأنفاس الصغير رامي وهي تتردّد على وجهها. ولا تتخيّل حياتها دون وجود الوَلَدَيْن، الزوج لا يكفي، ولم يتبقّ شيء يستحقّ العيش من أجله، فيما لو تمزّقت الأسرة، سواء بالفراق أو الموت. تلك الليلة، ليلة اعتقال جارهم ما زالت مهيمنة على عقلها حتّى هذه اللحظة، وتستعيد تفاصيلها برعب، كلّما تمّت الإشارة لها سواء في نوفوتيه جميلة أو داخل البيت.

تسأله دائماً حين تراه ساهماً، واجماً، بنظرات ثابتة على الأشياء التي أمامه، عمّا يفكّر فيه، وعن حكمه على ما يعيشونه في المدينة، فالرأي له في النهاية. يتهرّب من البوح، لا يريد مصارحتها بهواجسه، بواقع أنه صار متّهماً بالوشاية، ورفع تقارير إلى جهات سرّيّة، تتحكّم بالبلد، وتسهيل عملية القبض على جارهم (أبو هند)، وهو الأمر الذي قد يودي به، هو والعائلة، إلى القتل أو الاختطاف، أو حتّى تفجير البيت.

في الدائرة، كان يسمع من زملائه قصصاً، لا تُصدَّق بعض الأحيان عمّا يجري في المناطق الشعبية، إضافة إلى ما يقرؤه في الصحف أو تتحدَّث به الفضائيات. صديقه في الدائرة حدثت معه قصّة غريبة. ابنته الصغيرة يأخذها سائق تاكسي يومياً إلى الروضة في منطقة الكَرَّادَة، تعرّض إلى هجوم في منتصف الطريق، واختُطفت البنت، وطلبوا خمسين ألف دولار لإطلاق سراحها. تبيّن لاحقاً أن السائق كان مُتواطِئاً مع الخاطفين. ماتت البنت ذات الخمس سنوات بعد شهرَيْن من إطلاق سراحها. من الرعب

ربّما. ظنّ السائق والخاطفون أنهم وقعوا على كنز، كون صديقه يمتلك مسؤولية عالية في الدائرة. اختطاف سامي أو رامي سيناريو يستبعده دائماً من رأسه، كما يستبعد كرة من اللهب تقترب من جسده. وأكثر من مرَّة فُجِّر بيت بمَنْ فيه نكاية بصاحب البيت أو بأخيه أو أبيه، كأن يكون شرطياً أو مسؤولاً أو قائد ميليشيا أو عصابة أو ضابطاً كبيراً في الجيش. ولن ينسى مقتل صديقه كامل على شارع محمّد القاسم، ولا تلك الليلة الحلمية حين وضعوا الشموع والورود على مكان مقتله.

قصص من هذا النمط يسمعها جلال كلّ يوم، كذلك تسمعها نور وجميلة وجواد وعادل وسعد الحلاّق وقاطنو شارع الدير كلّهم. مَنْ يدري ما الذي يفكّر به جماعة (أبو هند)، إن صحّت التّقوّلات في المنطقة. أغلب العصابات المُسلّحة على شكل جيوش، وعصائب، وكتائب، ومجاميع، وأحزاب، تتبنّى شعاراً أو اسماً، يحيلها إلى الدين والجهاد، وبالنهاية إلى الحرب، بمعنى القتل والتعذيب والتخوين والترويع. والفرد لا يساوي ثمن بطّيخة، أو بعوضة من بعوض المستنقعات ومزابل الطُّرُق.

قال له عادل أيضاً، بعد أن نصحه بالرحيل، وبروح مرحة لتخفيف هول تلك النصيحة، إن المُسلّحين حين سيطروا على المنطقة، لم يعجبهم اسم الدير، فهو يُوحي لهم بالكُفر والشرك، ولذلك غيّروه إلى شارع الزير. منعوا سوّاق سيَّارات النقل من التّلفّظ بالاسم القديم. كم ضحك في ذلك المساء حين أخبره عادل بالقصّة. فما الذي يفعله الزير سالم أبو ليلى المهلهل في بغداد؟ سواء كان اسم الشارع الدير أم الزير، فهو لم يعد ملائماً للسَّكَن حتّى لقطّة مشرّدة.

***

طَوالَ الرحلة ظلّ ممتلئاً بأحاسيس الغربة عن هذا البلد، الصحاري الفارغة، الوحشة الخطرة لمَرأى الشخوص المريبة المتحرّكة بين الكثبان البعيدة، الانقلاب المُفاجِئ للأماكن وهي تتحوّل إلى عيون معادية وفخاخ تتضامن في وضعها الشمس القاسية والسراب والسماء المستباحة من قِبَل طائرات مجهولة ومناطيد محلّقة وخطوط داكنة لقذائف تسافر في لمح البصر، وغرابة تلك الأمكنة جعلتْهُ يتذكّر مشاهد ذلك السي دي، المصوّرة دون ريب، في هذه المفازات المُوحِشة. لم يرَ سوى الحطام، سواء في الطُّرُق أو المُدُن الصغيرة التي مرّ بها، حطام تركتْهُ أحداث السنين الماضية، وقد حرثت حياتهم قالبةً التربة بطناً على قَفَا، فوقفوا عراة لأوّل مرَّة في تاريخهم القريب.

ورغم أن رحلته كانت ناجحة، واستطاع بَيْع السَّيَّارة بمبلغ مناسب إلا أن مركبه المنطلق في لجّة البحر لم يعد من اليسير إيقافه، بحر الظلمات يتّسع يوماً بعد يوم، مُترافِقاً مع عواصف، تضرب فجأة، وتهدأ فجأة. الراحة التي ظنّ أنه سيعود إليها باستعادة روتين حياته كانت خادعة، فالمَشاهد التي عاشها لوقت قصير في تلك المُدُن النائية عن العاصمة دفعتْهُ إلى لجّة الاغتراب مع نفسه ومع مجتمعه، فما يراه على السطح سوى قشرة زائفة على دخولهم الموهوم في هذه الحضارة المُرفرفة عليهم من الآفاق البعيدة. هناك نمط آخر من البشر يعيش هو بينهم، أمّا هو، فيعيش في تلك القوقعة لا غير، في عالم القواقع الأرضية الزاحفة بحذر في الزوايا والجذور: البرّاقات الربيعية، الجراد السارح بين أوراق الذرة، النمل الدّابّ في ثِيل الحديقة، والبشر المُستوحِدون الخائفون على حياتهم. وتستعصي على جلال الحلول، وتتعدّد الخيارات، خيارات الوَهْم في الخلاص.

ابتدأت الرحلة من البلدة بيوم أيلولي رائق.

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

تأمّل جلال خلالها سماء البلدة التي يُضيئها لون حليبيّ، يُنبئ عن قرب بزوغ الشمس من الشرق، من فوق بساتين النخيل البعيدة وأشجار الأثل الصحراوية وأعمدة الكهرباء العملاقة التي تملأ الأفق، وتمتدّ حتّى تخوم سجن (أبو غريب). البلدة من هذه المسافة بدت له كما لو أنها كتلة من الشجر، تُخبِّئ وسطها البيوت، وثمّة هدوء عميق يلتمّ هناك، هدوء مُنذِر غير مسالم البتّة، وبدأت طيور القُبَّر واليمام والغربان تستيقظ من سبات صيفي قصير، وتنطلق نحو حقول الذرة، واللوبياء، والطماطم، والرقي، باحثة عن طعام الصباح.

كان هناك سيل من السَّيَّارات يتّجه إلى بغداد، أو العكس، سيَّارات منطلقة بسرعة نحو سوريا والأردن، الحياة لم تزل بخير، إذنْ!. رغم أنها ليست بخير. حياته هو على الأقلّ. ثمّة خلل عقلي وعاطفي يستولي على البشر، فوضى شاملة تقذف بالمستقرّ نحو المجهول، نزوح وفرار وتشرّد، تغيير أمكنة وهجرات ورحيل، ثارات وقَتْل وتسلّط. وفوق ذلك الخوف من الأحداث التي لم تحصل بعد، الجميع يعرف أنها ستحصل، وأنها ستكون سيِّئة. نعم، الأفق يُنذر بأحداث ستحصل، وهي غير سارّة له. لم يعد العمل يُشكِّل استقراراً، ولا البيت، ولا الأصدقاء، ولا الأقرباء، يمكن لذلك كلّه أن يُنسَف بلحظة خاطفة، كما كان جلال يفكّر وهو يتملّى بأشعّة الشمس المنسكبة على حصى الصحراء، وذيول القُبَّر، ومناقير طيور الماء المرفرفة فوق مبازل المياه.

كان الطريق مُوحِشاً، غبار ينتشر في الصحراء المحيطة، وفي الأفق دوّامات صغيرة من الهواء تنبر من الأرض فجأة، تفتل دقائق، حاملة خيوطاً من الرمال الناعمة، لتموتَ بَغْتَة في مكان بعيد، والسراب لم يتشكَّل بعد، وكلّما توغّلت السَّيَّارة إلى الغرب، تلاشت البساتين والبيوت من الأُفق.

الابتعاد عن الحضارة له ثمن هو الآخر، إذ ينفتح أمام المرء ذلك المجهول المدمّر، العزلة. لا يوجد بدو في المسافات الممتدّة على مَدّ النظر، هجر البدوُ الصحاري منذ عقد من السنين، لا أحد يعرف أين ذهبوا، ربمّا التجأ بعض منهم إلى القُرى القريبة من النهر، أو استقرّوا في المُدُن العامرة، كهيت، وعنه، وحديثة، والبغدادي، والقائم، أو تسلّلوا إلى سورية، مروراً بالبوكمال ودير الزور، وانتهاء ببيداء حمص. بعد أن تحوّلت الصحاري إلى ساحات معارك، الجميع ضدّ الجميع، واختفى شارع الدير، واختفت معه منطقة الدَّوْرَة وبغداد كلّها، وفي مكان ما في الصحاري البعيدة، خيالات لشخوص غامضة، وسيَّارات، وطلقات رصاص. في مكان ما، قد يجد المرء معسكرات في المنخفضات، يتدرّب فيها رجال، لا أحد يعرف بالضبط مَنْ هم، أو كيف دخلوا إلى الصحراء، تنتشر حولهم إشاعات وقصص وأحداث تُدخِل الرعبَ في القلوب. هكذا تخيّلهم جلال، مُلتحون مثل الذين رآهم في أشرطة الفيديو المبثوثة على اليوتيوب. لا يمكن الجزم بذلك. لكن روائحهم يمتلئ بها المكان. آثارهم أيضاً.

عليهما وصول القائم قبل الظهيرة، كلاهما يأتيان إلى هذه المدينة للمرَّة الأولى، وأخبرهما صاحب مطعم صغير مُنزو بين أشجار الأثل أن هذا الجزء من الطريق هو الأوحش نحو القائم، وحدّثهم عن سنوات سابقة، وكيف كانت العصابات، وقطّاعو الطُّرُق، والمُسلّحون، يصولون ويجولون في هذا المكان، ولا أحد يجرؤ على السفر منفرداً، وحينها كانت السَّيَّارات تسافر مجموعة من خمس أو عشر سيَّارات، تفادياً للوقوع في كمين.

ماذا لو توقّفت السَّيَّارة فجأة وسط هذه الرمال وقصصها وحكاياتها المرعبة؟ خاصّة وأن مرور السَّيَّارات بهم أصبح نادراً جدَّاً. حكى جلال مَلَك لمرافقه كمال ملك عن ذلك المشهد الذي عرضه القرص المُدمَج.

الشخص الذي خرج مثل جنّ من جوف سيَّارة الحمل ببندقيّته البي كي سي كي يواجه الدورية الأميركية. هل حدثت الواقعة هنا في هذه الأصقاع؟ أم في مكان قريب من القائم؟ مشاهد ذلك القرص المُدمَج توحي وكأنها صُوِّرت في هذه التلال، في هذه الرمال الممتدّة بين الدول. تلال تتلوها تلال، وآفاق من رمل وطائرات بعيدة وأصوات قصف، تُرجِّع الرمال صداه.

أحسّ جلال مَلَك وأخوه أنهما يتوغّلان في أرض كوكب بعيد يجهلانه، حتّى إشارات الموبايل توقّفت عن العمل. ماتت الذبذبات. امتصّتْها الرمال بين أحشائها. غيَّبتْها أفواه السحالي والثعابين والعقارب الصحراوية. فكّر جلال مَلَك بالثقوب السوداء المنتشرة في الفضاء، وسأل نفسه بسخرية: ماذا لو اكتشفا أنهما في هاوية ثقب أسود، سيقذفهما ربمّا إلى مجرَّة مجهولة؟ لا طيور في الأُفق، مجسّات الشمس تتواثب فوق تلال بعيدة من الرمال، ووسط سراب مُراوغ، ومرّ حينٌ من الزمن كانا فيه الحَيّان الوحيدان على إسفلت الشارع. وبسبب رتابة الطريق، وثبات المشاهد التي يتجاوزانها بسرعة هائلة، تضاءل الحوار بينهما، وراح الصمت يترسّخ داخل السَّيَّارة، وبدأ كمال مَلَك يُطلق شخيراً خفيفاً يدلّ على أن استرخاءه الثابت أودى به إلى عالم النوم.

هناك، كما فكّر جلال، أكثر من احتمال يواجه هذه السفرة المُتعِبَة، وقد يتوقّف مصير البيع على واحد منها. الأوّل أن لا يجدا المالك على الإطلاق، وهذا ليس بالأمر النادر بعد أن شاع اختفاء البعض فجأة، دون ترك أيّ أثر، سواء بالهجرة أو السجن أو الاختفاء تحت الأرض، في حال ارتباط الشخص بعصابة أو مُنظّمة سرّيّة أو حركة مُسلّحة. والاحتمال الثاني أن يكون الرجل توفيّ منذ وقت طويل، ولا يعود للوَرَثَة حقّ التنازل، والثالث أن يقعا على شخص جشع، سيستغلّ حاجتهما للتنازل عن المِلْكِيّة، فيطلب مبالغ من

المال، لا يمكن لجلال توفيرها، عندئذ ستكون رحلته خائبة بوضوح. كان جلال يفكّر بتلك الاحتمالات السَّيِّئة كلّها، لكنه، في نهاية المطاف، لم ينسَ بصيصَ الأمل الخافت في أن يجدا الرجل، وسيتمخّض عن شخص طيّب، يُنجِز لهما عملية التنازل بسلاسة. هذا البصيص الخافت هو الذي تمسّك فيه جلال حتّى نهاية الرحلة. عليه أن يغادر هذه الصحاري القاحلة، وقعقعة الرصاص اليومية، والانفجارات وهي تعجن حياته اليومية بالدم والغبار، يغادر مستنقع الرعب، وهو يختزن الجثث منزوعة الأسماء، لقد أتاح الانفتاح الإعلامي له أبواباً، يطلّ منها على مُدُن العالم، وبحاره، وغرائبه، ولغاته، وموضوعاته، أتاح له السفر في الخيال إلى خارج الحدود الشبيهة بالزنازين، قرار الهروب إلى تلك المُدُن الهادئة استقرّ في قلبه، وعقله، ولا ينتظر سوى تنفيذه الفعلي.

لاحت لهما أخيراً بعض البيوت، فشعرا بالراحة. سيَّارة البرنس لم تخذلهما.

هما يقتربان من المدينة، وكانت درجة الحرارة بدأت ترتفع في مؤشّر السَّيَّارة، وجلال يضخّ لها البنزين بعصبية، وكأنه يرغب في اجتياز هذا الكابوس بأقصر فترة ممكنة.

***

هل تختلف واجهة هذه المدينة عن أيّ مدينة أخرى؟ كلا، فالمناظر مألوفة، والتآكل فاشٍ في كلّ منظر، يلوح للنظر. لا نساء في شوارعها. والكآبة تدرج في أفقها، والمقرّات الحكومية مُسوَّرة بالصّبّات المُسلّحة التي ابتكرها الأميركان في فترة احتلالهم للبلد، والغبار يتصاعد من تحت أرجل المارّة وإطارات السَّيَّارات. مدينة لا تختلف عن غيرها. مُدُن البلد متشابهة، والحافر على الحافر، جميعها مَطلِيّة بالكآبة وتوقُّع الكوارث. شوارع

المدينة في فوضى عارمة، يبعث الوحشة في القلوب، ولا يُنبئ بترحاب أو قبول للزائرين، وكانت الحرارة تنيخ بثقلها على صفائح الحديد وأبواب الدُّور وسقوف المظلات التي تستخدمها الشرطة في الشوارع، وكانا يُحسّان أنهما غريبان في هذه المدينة، يعرفان فقط اسم مالك السَّيَّارة المَدعوّ محمّد خلف، ويقطن في منطقة من القائم، اسمها الرّمّانة.

العبيدي، الرّمّانة، الكرابلة، مُدُن صغيرة كانت أسماؤها متداولة في بداية الاحتلال، والمواجهات بين المُسلّحين والجيش الأميركي، رغم جمال تلك الربوع التي يحتضنها الفرات ما إن يدخل من حدود سورية نحو بلاد الرافدَيْن. هذا كلّ ما يعرفانه، بعد هذه الرحلة الطويلة والمُملّة التي امتدّت أكثر من أربعمائة كيلومتر وسط الصحاري، وزفرات الموت التي تُردِّدها الرمال، منذ الصباح، وحتّى غياب الشمس.

تحدث الأشياء صدفة بعض الأحيان، تكون مواتية لشخص ما أو ربّما قاتلة، وهي مواتية هذه المرّة.

الصدفة هي التي قادت جلال مَلَك وأخاه كمال مَلَك لإمساك رأس الخيط.

رَكَنَا السَّيَّارة في فسحة جانبية، ونزلا إلى الرصيف، لكي يرتشفا شاياً في مقهى صغير، يضع كراسي واطئة من الخشب أمام بابه الظليل، وأخبرهما صاحب المقهى أن أفضل مكان يمكن البحث فيه عن الرجل هو مبنى المحكمة، وأشار بكفّه إلى بناء، ينتصب خلف الصّبّات الكونكريتية بمواجهة المقهى. كان ذلك رأس الخيط. وكان جلال مَلَك يُمسك بملفّ السَّيَّارة في مُغلَّف ورقي أخضر، متأمّلاً بالاسم وعنوان الرجل.

فعلاً، ما إن سألا الحارس الواقف في باب المحكمة عن اسم الشخص

وعنوانه حتّى أرشدهما بمصادفة عجيبة إلى كاتب عدل، يمتّ بالقرابة إلى محمّد خلف. شرح كمال مَلَك للحارس المُهمّة التي جاءا من أجلها، وكيف تحمّلا خطورة الطريق وقساوة الحَرّ. لمحا نظرات التعاطف في عينَي الحارس، فقادهما إلى غرفة الكاتب العدل. قادهما وسط ضوضاء واكتظاظ المراجعين والحرارة الخانقة داخل المبنى، بسبب انقطاع التَّيَّار الكهربائي.

في ممرّات المحكمة، تكوّمت نسوة عجائز موشومات الوجوه، ورجال ملتحون، يلبسون الدشاديش القروية، وكان دخان السجائر يتلوّى في الممرّات المعتمة التي تكاد تشبه منزلاً لأشباح، ظهروا فجأة من غياهب التاريخ. الفوضى المستحكمة في المكان تبعث على النفور، تسبح على طبق من روائح الأجساد والعفن المتغلغل في الهواء. الجميع يحمل أوراقاً، وملفّات، لاستخراج جنسية أو شهادة جنسية أو جواز سفر للحج، والبعض يمسك إبهامه الملوّث بالحبر منتظراً أن يجفّ. البعض يُحدِّق في الفراغ منتظراً معجزة لحلّ مشكلته. هذه الصورة لم تتغيّر منذ عشرات السنين، رغم تعاقب الحروب والجيوش ورجالات الحُكْم، هي صورة المواطن التائه في أروقة الدولة ومتاهتها.

لَفَتَ جلالُ نظر أخيه كمال إلى العفونة الخانقة المنبعثة من الأجساد، ومن قذارة المكان، وكانت هناك مطهّرات نفّاذة الرائحة، أُريد منها التغطية على الإهمال الملاحَظ قرب الحمّامات، وعند الأبواب الداخلية، ورغم الجوّ الخانق، وزنخة الجدران المتهرّئة، بسبب الرطوبة واحتكاك الأثاث المتنقّل على امتداد سنوات بين الغرف والممرّات، إلا أن البشر المحشورين هنا لا يُلاحَظ عليهم التّقزّز أو الاحتجاج، كما لو أن خيوط الاعتياد والمألوفية تغلغلت عميقاً في أرواحهم. يُجبرون معظم الأحيان على افتعال الضحك والراحة، ما إن يتحدَّثوا مع واحد من الموظّفين.

قال لهما الكاتب العدل نعم، هو موجود في الرّمّانة، ويعمل ضابطاً برتبة ملازم أوّل في الشرطة المحلّيّة، يخدم في المركز الواقع على النهر، لكنْ، لا أستطيع الذهاب معكما الآن، فدوامنا ينتهي الساعة الثالثة، والساعة الآن لا تتجاوز الحادية عشرة. هل تعرفان الطريق إلى الرّمّانة؟ سألهما الكاتب العدل، فأجابه جلال بالنفي، وأخبره أنها المرّة الأولى التي يزوران فيها القائم. فجأة تكلّم شخص، يقف بجانب الطاولة، ويمسك ملفّاً بيده، وقال بنبرة اغتباط:

- أنا أعرف محمّد خلف، هو جاري، هل معكما سيَّارة؟

- أجل، قال له جلال.

- لقد أنجزتُ معاملتي، وأنا ذاهب إلى البيت، سنذهب معاً، ثمّ واصل كلامه ما إن اتّخذ مكانه جنب جلال في المقعد الأمامي متّجهين نحو الرّمّانة.

- اليوم أكملتُ ملفّي للتقاعد، قال الرجل، فقد أُصبتُ في بطني وساقي بمواجهات بيننا والإرهابيّيْن، ولكن عجزي حسب الطبيب أقلّ من ثمانين بالمائة، هذا في التقرير الأوّل. اعترضتُ، وأعدتُ الفحص. منحني الطبيب الجديد النسبة المطلوبة للتقاعد. أنا شرطيّ، أمّا محمّد خلف، فهو ملازم، لأنه خرّيج كُلّيّة زراعة، لذلك منحوه هذه الرتبة. الرّمّانة، هي حقًّاً رمّانة، وضحك الرجل مواصلاً كلامه، والسَّيَّارة تخرج من المدينة بخفّة، لكنْ، ليست الرّمّانة التي تحتوي على حَبّ أحمر حلو أو حامض، إنما القنبلة التي يمكن أن تنفجر في أيّ وقت. منذ سقوط النظام ودخول الأميركان، لم نشهد يوماً واحداً من الهدوء. لذلك أُشبّهها بالرّمّانة اليدوية. البلد كلّه تحوّل إلى رُمّانة يدوية، إن أردتُما الحقيقة. انظروا كيف نتوغّل

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

نحن في جنّة، البساتين، والنخيل، والحقول، ومياه النهر الكريمة التي تسقي كلّ حَيّ، لكننا صرنا مكشوفين أمام الجميع. وجودنا على الحدود بين العراق وسوريا جعلنا معبراً لكلّ شيء: السلاح، المواشي، الصابون، السَّيَّارات، المقاتلين، الأموال، كلّ شيء يهرب من هنا، يدخل أو يخرج، بعد أن تلاشت الدولة وحلت بيننا الفوضى. ذات يوم اكتشفنا أن مجموعة من المجاهدين الأجانب هرّبوا دَبَّابَة، وأدخلوها إلى البلد، اعبرِ الجسر، قال لجلال قبل أن ينعطف إلى اليمين، قرَّبْنا نصل، لكنْ، هنا على الجسر هناك نقطة تفتيش، تُدقِّق في الأشخاص الذين يعبرون إلى هذا الجانب. أنا من أهل المنطقة، ويعرفونني، لذلك لا تهتمّ للأمر. أحمد خلف، أخو محمّد خلف كان خطيب جامع المنطقة التي يسكنون فيها، وحين دخل التنظيم إلى الرّمّانة، طلبوا منه أن يُعلن لهم الولاء في خطب الجمعة، فرفض. قتلوه. دفنوه في رمل النهر، ولم نكتشف جثّته إلا بعد مرور أسبوع، فَصَلُوا رأسه عن جسده. وحزنت عليه المنطقة كلّها، لأنه كان رجلاً طيّباً، ومسالماً، وهذا ما دفع بمحمّد إلى الانتماء إلى الشرطة فور تشكيلها. شارك في المعارك كلّها التي خاضوها حتّى طردوا التنظيم من الرّمّانة والكرابلة والعبيدي، ومن ثمّ القائم كلّها، ولاحقاً صحراء الجزيرة. أنتم في بغداد بعيدون عن هذه التفاصيل. كانوا مجرمين، لم يحترموا شيخ عشيرة ولا خطيب جامع ولا أيّ شخص، إن لم يكن موالياً لهم. وجدنا في النهر عشرات الجثث الطافية، والبعض منها مقطوع الرؤوس، وحِرْنا كيف نتعرّف عليهم. جاءنا أشخاص، لا نعرف إلى أيّ ملّة ينتمون، سود وشقر وسمر، البعض يتكلّم العربية بصعوبة، حرّموا حتّى الدخان. تخيّل الدخان الذي هو غذاء لي صار محرّماً! كيف نعيش في هذه المنطقة من الأرض دون دخان؟ أغلقوا المدارس، وقَطَعُوا الطُّرُق، ونسفُوا المستشفيات، وقَتَلُوا المُعلِّمين، وحاربوا الناس بلُقمة عيشها. فكل مَنْ كان مُوظّفاً في الدولة

عَدُّوه مُرتدَّاً، كيف لا؟ ونحن نخضع للاحتلال، كانوا يقولون. إذا الشخص لا يعمل كي يجلب الخبز لعائلته، كيف يعيش؟ كانوا يقولون تعالوا معنا ونحن نتكفّل بمعيشتكم. كانوا يملكون أموالاً طائلة، كلّها بالعملة الصعبة، الورق الأخضر، الدولار. لفّ على اليسار، كدْنا نصل. لكنهم لن يتوانوا عن تلغيم جسدكَ، ودفعه إلى الجنّة.

استمرّ الرجل (الشبح)، كما أطلق عليه كمال مَلَك همساً لأخيه جلال، بالحديث، والسَّيَّارة تتوغّل في طُرُق ضيِّقة، ومبان سَكَنية، يقف أمامها أطفال صغار بدشاديش قروية، يلعبون الكرة أو يُحدِّقون بالمارّة. وكان جلال وكمال مستسلمَيْن لتوجيهات الرجل وكلامه. ولولا الصِّدْق الراشح من كلام الرجل، لكانت الرحلة تقترب من فخّ مُحكَم، يقودهما إلى الموت دون أن يعرف بهما أحد، وسط هذه البقعة من العالم الممتدّة على طول الحدود. لكنْ، بالتأكيد أن الرجل لا يُشكِّل خطراً عليهما، فكّر جلال مَلَك، حرارة كلامه لا تُظهر أنه ينصب لهما فخّاً، حتّى لو كان منهم، فهو لم يسمع بالإشاعات التي اتّهمتْهُ بالتواطؤ مع القوى الأمنية، وشارع الدير يبعد مئات الكيلومترات عن الرّمّانة.

انقطع الطريق في ساحة صغيرة، تحيطها البيوت الواطئة، ذات الطابع الريفي، وبعد الساحة، كان هناك حقول شاسعة، تمتدّ في الأفق، ونخيل مبعثر في الحقول الخضراء. عند الساحة، قال الرجل وصلنا، وأشار إلى بيت يقع على اليمين، أمامه شجرتا نخيل وشجرة توت ضخمة. هذا بيت محمّد.

أوّل مَنْ ترجّل من السَّيَّارة هو الدليل.

أشار إلى فتى بعمر العاشرة، وسأله عن أبيه، قال الفتى هو في مركز الشرطة. طلب منه الذهاب إلى هناك سريعاً، وإخباره بوجود ضيوف

نسخة تجريبية © جميع الحقوق محفوظة

في بيته. تقدّم الدليل، وطرق الباب، وتكلّم مع امرأة في الداخل، ثمّ أشار لجلال وأخيه بالنزول، والدخول إلى البيت. وجدا نفسَيْهما في صالة واسعة مفروشة بالطريقة العربية التقليدية. مُدَّت المفارش على الأرض على طوال الجدران، وكانت الشبابيك تنفتح على حقول وقِطَع أراضٍ مزروعة بالخضراوات. وثمّة أبقار في الخارج تقف متأمّلة في حرارة الشمس، وغربان تمرق بين الحين والآخر في السماء الزرقاء.

محمّد أيضاً اشتغل بالتهريب، بعد تخرّجه في الجامعة، الوظائف معدومة، ولديه أسرة يعيلها، لكنه رجل طيّب، وأعتقد أنه سيقضي حاجتكما بأسرع وقت، عليكما الرجوع إلى بغداد هذا اليوم، أليس كذلك؟

- سألهما وهو يمصّ سيجارته، ويجلس متأهِّباً على الفراش المقابل، ولم يفارِق الملفّ الأخضر يَدَيْه.

- الشغلة سهلة، مُجرَّد توكيل في المحكمة التي كنّا فيها، ثمّ تنتهي القضية.

وفي أثناء ما كان الرجل يحدّثهم عن مضيفهم محمّد خلف، وعن الرّمّانة، كان جلال مَلَك يُحدِّق إلى الأفق من خلال الشّبّاك المُغلَق، وبدا له كما لو أنه يسمع صدى معارك، ومواجهات مُسلّحة، دارت ذات يوم هنا، طَوالَ خمس سنوات، والبلد مشغول بتلك المعارك بين الجيش الأميركي والمُسلّحين في الرّمّانة والعبيدي والكرابلة، وكانت الفضائيات ترصد تلك المعارك على مدار الساعة. أنين جرحى، صوت انفجارات وقصف بالطائرات، نواح من البيوت يتصاعد مثل دوّامة هوائية في صحراء مرملة. لم يكن يتخيّل في ذلك الوقت، أنه سيجد نفسه ذات يوم جالساً في بيت من بيوت الرّمّانة، يحتسي الشاي الثقيل، ويستمع إلى واحد من شرطتها الذين عاشوا تلك الأحداث كلّها، بدءاً من سقوط النظام، ثمّ

دخول المقاتلين الأجانب والجيوش المتحالفة، وبعدها انتفاضة العشائر من أبناء هذه المناطق، ومحاربتها للمسلّحين.

وعقب لحظة من الصمت، دخل رجل في الأربعينيّات من عمره، أسمر الوجه، بأنف مكوّر وسط وجهه، وكرش صغير يندلق قليلاً من البدلة العسكرية، وكان يحمل رتبة ملازم أوّل على كتفه، وشرع يُحدِّق، متفرِّساً، بضيوفه الطارئين.

بعض الأشخاص يحمل النبل في تعابيره منذ النظرة الأولى، شعر جلال بذلك ما إن وقعت عيناه على الرجل. بعد أن عرف بالموضوع، طلب من جلال إمهاله ربع ساعة، لكي يستبدل ملابسه، ويمضي معهم إلى المحكمة لعمل التوكيل، وكان الرجل المعوق يعيد عليه بين لحظة وأخرى قصّة مجيء جلال وكمال من بغداد، وتحمّلهما عناء الطريق وخطورته لاستكمال أوراق السَّيَّارة.

شعر جلال أن حلم بيع السَّيَّارة قد تحقّق، وأنه خلال وجوده في البلدة سيبيعها بسعر مناسب، سيُشكِّل الأساس لتنفيذ ما يدور في رأسه.

***

ظلّت البلدة تتحدَّث عن غرابة الرحلة إلى الحدود أيّاما عديدة، ولم تُصدِّق أن القضية لها علاقة بتنازل في المحكمة، يُخوِّل جلال بيع سيَّارته، وقال بعض المقرّبين من كمال مَلَك ومعارفه إن جلال يريد بالتأكيد جَلْب سيَّارة حديثة عن طريق المهرّبين. وقيل أيضاً إنه أتمّ صفقة مع متنفّذي الرّمّانة لها علاقة بمخطّطات حكومة بغداد.

أمّا كمال مَلَك، فكان ينظر إلى محدّثيه، ويبتسم، ويزيد من شكوكهم حين يخبرهم ضاحكاً أن جلال يبحث عن وظيفة في معبر القائم الحدودي.

أدرك جلال مَلَك ما إن وطئت رجلاه أرضَ العاصمة بأن شيئاً ما قد تغيّر في حياته، لم يبقَ شارع الدير هو نفسه، ثمّة اختلال ما في إيقاعه المألوف، وثمّة توتّر غير مُدرَك يعيشه الناس في السوبرماركتات وفي الجوامع والمخابز، وحتّى في مقهى الجماهير.

كان يترجّل عصر كلّ يوم من سيَّارة النقل الجماعي قرب سوبرماركت الكوخ، ويمشي نحو سوق الميكانيك، يمشي مخدَّراً بالحرارة والأفكار والحَيْرة، ليشتري الفاكهة واللحم والصَّمُّون قبل أن يصل إلى البيت. لقد تحوّل إلى راكب عادي في أسطول سيَّارات النقل الصغيرة التي تربط المنطقة بمفاصل بغداد: الميدان، الباب المعظّم، علاوي الحلّة، السعدون، الشورجة، شارع المتنبّي، فلكلّ مفصل من هذه المفاصل سيَّاراته التي تنطلق من أماكن محدّدة ومعروفة للجميع. لكن الشيء الجديد الذي شعر به في تلك الأيّام أنه أصبح غريباً في المحلّة، كما لو أنه شخص يُهيِّئ روحه للنزوح إلى أُفق آخر، لم يعد ينتمي إلى شارع الدير. الشعور كان متبادَلاً مع قاطني الشارع.

أمّا حين يجلس في غرفته، فيترك كومبيوتره الشخصي، وملذّات الغور في المجرّات ودهشات الأجساد العارية المتمرّغة بغوايات الجنس، ويغوص في لجّة الماضي، العاصفة المدوخة للسنوات السابقة، منذ أن اقتلعت حياتهم بقنابلها الحارقة. شهد العاصفة ترحل، لكنها تركت المدينة متهالِكة الشوارع، خربة، متهدّمة البيوت، مُشبَعة بحكايات زمن بعيد، زمن عاصفة الأوراق والمضاربات، والعاهرات، والسمسرة، وشذاذ الآفاق من كلّ بلد وقارة. فتح عينَيْه أخيراً، وتلملمت خيوط الحكاية التي عاشها في السنوات الأخيرة من حياته. لم تعد المدينة سوى هياكل فارغة. ينبغي أن يكون الجميع محظوظين، فكّر ممتلئاً بالشّكّ والنفور، وجدوا أرواحهم في

لبّ التّطوّر التكنولوجي، وغزو الفضاء ومجرّاته، وفي بركات شرائع حقوق الإنسان، والوفرة، والحُرِّيَّات التي كفلتْها دساتير العالم الحديث.

جثّة متحرّكة فَقَدَتْ كرامتَها البشرية. هذه هي الحقيقة. مَنْ هو الجثّة، هو أم البلد؟

يسأل نفسه، ويصمت. ربع قاطنيها يعانون من اختلالات نفسية وروحية، فقد تخرّجت أجيال من مختبر الحروب التي دامت ثلاثين سنة، تفكّكت أُسر، وتشوّهت أرواح، وقست نفوس بعد أن عاشت تلك الحروب في بحر من العنف، والموت، والقمع، والاحتلال، والكذب، وسايكولوجيا الهروب من واقع مرّ وبائس. وها هو الزمن يمرّ منذ أن دخلت عاصفة الأوراق الجديدة إلى البلد، زمن هبوب العاصفة استغرق سبع سنوات تقريباً، وكان الناس، بمَنْ فيهم جلال، شهوداً على ما جاءت به، وشهوداً على ما تركتْهُ خلفها. جاءت بمئات آلاف الجنود، مع دَبَّابَاتهم، وطائراتهم، وأسلحتهم الشخصية، وأجهزتهم المتطوّرة تكنولوجيا، وهي ترصد ذبذبات التي أن تي، والصواريخ الموجّهة، والسي فور، وترصد السَّيَّارات المفخّخة، والبشر المسلّحين، مثلما ترصد حركة الأموال، والسجلات، والدوائر الرسمية وغير الرسمية، وأسهم البورصة، وسعر برميل النفط، ومؤشّر ناسداك، والعقول وكيف تفكّر وما هي رؤيتها حول العاصفة.

شهد زمن العاصفة مواجهات دموية وإبادات لمُدُن وحرق لأوابد تاريخية واغتيالات لشخصيّات فكْر وكفاءات عسكرية وعلمية. شهد الجميع دسائس سياسيّيْن وأحزاب وتواطؤات، ميليشيات تَقوم، وتَتسلّح، وتَتدرّب، وتَذبح بتوجيهات سرّيّة على الهوية الطائفية، والدينية، والقومية، وأحياناً تَذبح للتسلية، وإشاعة الرعب تحت تأثير الكبسلة وأنواع المخدّرات، وكان أشدّها الحقد الطائفي والهَوَس المذهبي. أُزيلت غابات، وتصحَّرت حقول،

وجفَّت أنهار، دون أن يسأل أحد عن ذلك. مداميك العاصفة لا تسأل إنما تأخذ فقط. تصدر قناعات، لكنها لا تناقش. وراح الغبار يتصاعد بين فترة وأخرى، كلّ صيف تقريباً، إلى عنان السماء، يتغلغل في البيوت، والشوارع، والشجر، والعيون، والآذان، والصدور، يتغلغل إلى بطون الحوامل، ليلدنَ أطفالاً مشوّهين. غبار يحمل الجراثيم، والسموم، والفايروسات، والأشعّة المتأيّنة، والفوسفور المشعّ، ليصبح ذلك كلّه هواء لرئات ملايين القاطنين، يتذكّر، وعاش ذلك بقسوة، كيف وفدت مع العاصفة شركات أمنية كانت تستقل سيَّارات رباعية الدفع، تسير في الشوارع، بسرعة فائقة. تضرب دون رحمة كلّ مَنْ يعترض طريقها، وكأن المارّة، في أعينهم، أشبه بكلاب سائبة، لا غضاضة في إبادتها. يستقلّ تلك السَّيَّارات رجال عجيبو الهيئة، خلاسيون من البرازيل، شقر من جنوب أفريقيا، ملوّنون من الهند، عتاة الوجوه ذوو صبغة أنغلوساكسونية من ولايات أميركا، أفارقة، وأوربيون، وآسيويون، وأستراليون، وأميركيون، ذوو مُهمّات غامضة، يحملون أجهزة لاقطة، وعلى سيَّاراتهم هوائيات، تبثّ إلى لا مكان. يحرسون شخصيات غامضة، ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاء، لا أحد يعرف لماذا جاؤوا؟ وما هي رواتبهم؟ ومَنْ يدفع لهم؟ ولماذا هم فوق قوانين السير، وفوق المساءلة؟

يتذكّر: قَتَلوا، روَّعوا، نظراتهم باردة، لكنها تختزن غضباً غير مبرّر على الجميع. يكرهون الشجر، والبيوت، والسَّيَّارات، والمارّة، والنساء، والفضاءات، والنخيل، والأنهار، وأسماك دجلة، فمن ذلك كلّه، يمكن أن يأتي موتهم، وهم لا يريدون أن يموتوا، فعقودهم لسنة واحدة، يجمعون خلالها ثروة لبقية العمر. قراصنة آخر زمان، مرتزقة الألفية الثالثة، الذين يتلقّون الفضاء الكوزموبولتي لهذه الألفية بروح ذرائعية، تبيح عمل كلّ شيء، بما في ذلك القتل. بزنز إز بزنز.

هل أسفرت له الأكذوبة ذاتها عن نفسها، في لحظة تأمّل عميق مع الروح، أكذوبة التغيير المفيد التي انطلت على جلال وأقرانه؟ وقتها، صدّق جلال، مثلما غيره من المواطنين، أن العاصفة ستحلّ مشاكلهم كافّة، تعالج كلّ ما خربتْهُ الحروب السابقة، وتنقل البلد إلى مصافّ الدول المتقدّمة، لكن المواطن ذاك ظلّ ينتظر المخلِّص سنين دون جدوى. سنين عجاف، وليس من سنابل. العاصفة بدوّاماتها وذيولها، تغادر دون عودة، وما زال المواطن ينتظر السِّحْر الذي يُغيِّر حياته. عاصفة الأوراق راحت تُدير ظَهْرها للبلاد. تحزم حقائبها، مثل قريبهم زهير، وتوضّب مجسّاتها، تاركة الشوارع القديمة وهي تمتلئ بالغبار، يتطاير فيها بقايا الورق والريش وشَعْر الجثث ورائحة المياه الآسنة في المجاري، شوارع مهدّمة الأرصفة، مبقورة الإسفلت، محفّرة عارية إلا من حصاها وغبارها وأسنها. لا تمتلك طاقة الكهرباء سوى سُويعات في نهارات الصيف التي تُقارِب نصف درجة الغليان. غادرت الشركات الوَهْمية بعد أن حصدت غلّتها من الدولارات، تضاءل نشاط المُنظّمات الإنسانية حتّى لم يعد يُذكَر، وأصبح المُقعَدُون والأطفال وضحايا السجون والأرامل، مليون حسب آخر إحصائية، وعوائل الشهداء وضبّاط الجيش القديم وعشّاق البيئة النظيفة صاروا ينظرون حولهم بألم، ويُتم، إذ غاب قادتهم فجأة في زوبعة العاصفة. كما غاب كثير من المحلّلين السياسيّيْن، والصحافيّيْن، والمفكّرين، والكُتّاب، والمستشارين العسكريّيْن، بعد أن وظّفتْهم الأحزاب المتبقّية على الساحة، لكي يكونوا واجهات إعلامية وفكرية وعسكرية لها، وبرواتب مغرية ربمّا أكثر إغراء من هبات الفضائيات والصحف.

وهكذا صار للجميع سوق للمُنظّرين في الطائفة، والمقاومة، والأقاليم، والسياسة الخارجية، والثقافة والإعلام المنفتح، والفساد، والمصالحة الوطنية، وبناء الدولة، والعروبة والكرودة والتركمة ورَصْد السياسة الأميركية

والإيرانية والتركية والاتّحاد الأوربي والفيفا والغات والشاورما والتّبّولة وهريسة محرم. منظّرون بضاعتهم الكلام فقط، ولكنْ، نمط الكلام الذي يبني لهم بيوتاً، ويخلّف سفرات سياحية وسيَّارات فخمة ووجاهات داخلية وخارجية. الفهلوي في الكلام صار بارعاً في حِرْفَة جَمْع الدولارات والدنانير والليرات والريالات والتومانات. أمّا العاصمة، بجسورها الخَرِبَة وشوارعها الملوَّثة بالغبار الصيفي وأزبال آخر النهار، ففمها يغصّ بالتراب المتصاعد من الصحراء، تنام في بيوت، لا تسكنها حتّى القطط والفئران، وتسكب عَرَقَها ودمَها كلّ ليل وكلّ صباح. عارية، خائفة، فيها ملايين الأطفال المشرّدين والمتسوّلين ومئات المُدُن التي لا تمتلك مسرحاً، ولا سينما، ولا فندقاً، ولا كافتيريا، ولا كشكاً لبيع الصحف، ولا مكتبة عمومية للقراءة. لا تمتلك سوى القصص الخرافية التي شاعت في أثناء الزمن الذي وفدت فيه العاصفة، وخلخلت بنية البلد، وقلبت موازينه، وهدرت دمه، وأضاعت ثرواته، وأذلّت مواطنيه، وشرَّدتهم إلى خارج الحدود.

***

لقد تغيّر كلّ شيء، حتّى نظرات الناس بين الدكاكين أصبحت غير مُريحة، ثمّة شكّ، تهديد، توجّس، ينصبّ عليه، يتوعّده، وهو يمارس عاداته اليومية في التجوال بين محلّ القصّاب ومقهى الجماهير، سوبرماركت الكَرَّادَة وبائع الفلافل الذي ركم عربته قرب المقهى. يمضي بعض الأيّام إلى محلّ النخلة لشراء قناني البيرة، ليضع ليلاً النقل على طاولة صغيرة أمام باب المطبخ، ويحتسي الكؤوس بلذَّة، ثمّ يسافر نحو دهاليز حياته، يسمع وصوصة العصافير بين أغصان الزيتون، وضحكات جميلة في أثناء غسل ممرّات بيتهم، وهي تتحدَّث مع ابنتها عن آخر صرعات الموضة في الجامعة، وأفضل الرجال الذين يصلحون للزواج، ويُمتِّع بصره بِتَقَهْقُرِ

الضجيج من شارع الميكانيك، ومن دوريات الحراسة المحيطة بمبنى الدير المجاور. يترك لسامي ورامي حُرِّيَّة اللعب في الحديقة، إذ يحاول جهد الإمكان أن لا يعكّر رأسه بالأفكار السوداء التي تقوده دائماً، إلى ما يجري له، وللبلد.

نعم، رحلت العاصفة، وتركتْهم لمصائرهم، يواجهونها بطاقة متلاشية مُنهَكَة.

***

كان جواد قد ركن عربته الخشبية جنب الصيدلية، ثمّ تربّع وسطها ناظراً إلى الشارع بعينَيْن مُتأمّلَتَيْن.

استيقظ باكراً، مُبلَّلاً بالعَرَق، ودون أن يتناول فطوره الصباحي ترك البيت، ومنح روحه لأحداث هذا اليوم. الكوابيس والأحلام الغريبة التي لم يعد يتذكّرها أحالت ذهنه إلى صندوق مشوّش، تختلط فيه الظلال، ظلال الأحلام الليلية المنبعثة من سنواته البعيدة.

فتح محلّ الكَرَّادَة أبوابه، وبدأ العامل بتنظيف المكان والرصيف مقابل الباب. الحياة راحت تدبّ قليلاً قليلاً في شارع الميكانيك. وفرن الصَّمُّون ما فتئ يُزوِّد الزبائن بالصَّمُّون الحارّ منذ الفجر. كان صوت المُقرئ عبد الباسط عبد الصمد ينبعث من أكثر من بيت ومحلّ، وظاهرة تلاوة القرآن سادت في الصباحات التي أعقبت الاحتلال، وطغت على تقليد سابق مضت عليه عقود، ألا وهو سماع صوت فيروز من الإذاعات، ما إن يشقّ الضوءُ عجينةَ الليل، تلاوة قرآن في سيَّارات الكيا، وفي المقاهي، وعند المحلّات التي ينشغل أصحابها صباحاً بغَسْل الواجهات والأرضيات قبل دخول الزبائن. قرأ البعض تلك الظاهرة على أنها دلالة على التَّديُّن المنتشر في المجتمع، بينما قرأها البعض الآخر على أنها نذير، يعكس فضاءات

الموت المتناثرة على المُدُن أجمع. سيَّارات الكيا تنتظر وقتاً، كي تعثر على زبائنها. الشمس لم تبدأ بِبَثِّ حرارتها الأيلولية، وكان سامي ورامي أفاقا باكراً، ما إن رحل جلال إلى العمل، وهما يلعبان في حديقة البيت لعبة العبوات الناسفة. عبوات ناسفة، لكنْ، دون صوت. يمسك واحد منهما بصحن صغير، يدفنه في الثِّيل، ثمّ يمسك الآخر بخشبة مربّعة، يطلقان عليها اسم الموبايل. يُخرِج سامي صوتاً مُفرقعاً من فمه، فيما يكون رامي يتمشّى جنب الصحن المدفون. تلك لحظات يخرج فيها النمل من مخابئه لِتصيُّد فتات الغذاء، وتُوقع الموت في الأماكن المكتظّة على أشدّه، ونور كعادتها تُزيل الغبار من أثاث بيتها، أو تكنس السطح من الأوراق والغَبَرَة ونوى التمر، يقع رامي نتيجة الانفجار في الثِّيل بحركة مباغِتة، يفتح فمه، ويُغمض عينَيْه، ويتقمّص هيئة القتيل، كأنه يخاطب من حوله دون وعي قائلاً: الجميع قَتْلى مع وَقْف التنفيذ، وهكذا يتعاقبان على تمثيل المشهد في الحديقة وسط سكون شارع الدير.

انتبه جواد، من بين غيوم النعاس العالقة بين جفنَيْه، وخدر جلوسه على الخشب انتظاراً للزبائن، إلى أن هذا الصباح يحمل طَعْمَهُ الخاصّ، صباح يانع، لكنه متوتّر مثل جارهم جلال مَلَك، مثل عادل السّكّير، أو جميلة الحائرة بين السفر إلى دمشق أو البقاء في هذا الشارع رغم أخطاره المحدقة.

وانتبه جواد إلى أن المقهى لم تفتح أبوابها بعد، وبائع الخضار القريب من محلّ الكَرَّادَة بدأ بالكاد يصفّ صناديقه وسلاله وكارتوناته، لعرض بضاعته، تهيّؤوا لنهار أقلّ حرارة.

الطماطم من الكوت، والرّمّان من ديالى، والعنب من بساتين المحمودية، والباذنجان والرقي والبطّيخ من مزارع النباعي. وصار الصيف يُنظّف غباره في بساتين الدَّوْرَة، ويعلن انسحابه المبكّر، إذ سبحت غيمتان شاحبتان

في السماء، تسيران ببطء نحو أطراف بغداد الشرقية. جميلة لم تأتِ إلى الدّكّان، فزوجها أبو نغم يعاني من رَشْح صيفي حادّ، أجبره على البقاء في البيت. تفجير جامع النور، في تلك الليلة الشيطانية، تلاشى من ذاكرة أهالي شارع الدير، وكذلك سجن عبّود الكهربائي، وطلقة التهديد التي دُسَّتْ في سيَّارة جلال مَلَك، واعتقال (أبو هند) في الليلة الكابوسية التي عاشتْها نور، ومرّ اختفاء سيَّارة جلال من حديقة البيت دون ملاحظة تُذكَر.

الأحداث تلك امتصّها نسيج الرعب الذي ينتشر على البيوت، وظلّت الحياة تمشي ثقيلة، بطيئة، تتغيّر، لكنها تحافظ على ديمومتها.

وما فتئ الجميع في مزاج التّرقّب لأمر جديد، وهو إحساس ضئيل، لا يشعر به جواد فقط، بل يشعر به القاطنون كلّهم، لكنهم لا يتكلّمون به، كما لو أن غضّ الطرف عن ذلك الإحساس سيُلغي وقوعه.

أمر جَلَل له علاقة بالحلّاق سعد هذه المرّة، الإيمو، رغم أنه كرّر مئات المرَّات لجلال مَلَك، وعادل، وجميلة، ونهاد السائق، أنه شخص طبيعي، لا ينتمي لأيّ جماعة: يحبّ الأغاني، والبنطلونات الضَّيِّقة، والعطور، والرقص، الغربي تحديداً، والسلاسل، والأحذية الثقيلة، وقصّات الشَّعْر الغريبة التي تعطي الشَّابَّ شخصية متفرِّدة، كما يقول، لكنه ليس مُخنّثاً.

كان طموح سعد أن يصبح ممثّلاً، يظهر في المسلسلات، وتتكلّم عنه الصحف والفضائيات، لكن صعوبة العيش، والأحداث التي مرَّت على بغداد، وحاجة أسرته إلى المال دفعه لترك الدراسة، وامتهان الحلاقة.

الحلاقة فنّ، كان يردّد على مسامع زبائنه دائماً، كأنه يُعوِّض بذلك فشل أحلامه المتلاشية، أحلام جيل، لم يعشْ من الحياة سوى عواصفها.

لم تكن عادة سعد فتح محلّه باكراً، أمّا لماذا حضر في هذا الوقت، فلا أحد عرف السبب، هل تلقّى اتّصالاً من شخص ما، صديق طلب منه اللقاء باكراً؟ أم أن مخالب الموت دفعتْهُ دفعاً، كي ينهض من فراشه، ويذهب إلى المحلّ؟ لا أحد عرف السبب الحقيقي. لكلّ شخص دوافعه في هذا العالم، والرؤوس التي تؤمن بالقَدَر، مثل جميلة، أرجعت كلّ ما حصل إلى أن ورقته في السماء جفَّتْ، وسقطتْ، وكُتب عليه الموت بهذه الدقيقة، وبمثل هذه الطريقة.

بيت سعد يقع في شارع ستّين، الموازي لشارع الميكانيك، حيث ينتصب محلّه. وشارع ستّين من الشوارع الحيوية في منطقة الدَّوْرَة، يتّخذه قاطنو شارع الدير، ممّنْ يملكون سيَّارات خاصّة، شارعاً بديلاً للوصول إلى البيت عند غَلْق شارع الميكانيك إثر تفجير أو عملية أمنية، وعادة ما يأتي سعد مَشياً، رغم أنه يمتلك سيَّارة خاصّة من نوع مازدا حديثة، لا يستخدمها في أثناء مجيئه إلى المحلّ إلا نادراً، يستخدمها عادة في أوقات الفراغ حين يلتقي بأصدقائه، ويذهبون إلى الكَرَّادَة، أو المنصور، أو شارع الربيعي في زيونة، القريبة من ملعب الشعب، وذلك في ليالي الصيف الرائقة، وحين لا يكون هناك تفجيرات، أو منع تجوّل مُفاجِئ في بغداد، أو قطع طُرُق. صحيح أنه تلقّى تهديدات، بسبب القصّات التي ينفّذها لزبائنه الشباب، أو استخدامه الخيط، لتنعيم الحواجب والوجنات، أو وقوفه أمام الباب لمغازلة الجميلات من طرف خفي، لكنه لم يأبه لها كثيراً، كونه، كما يقول، لم يرتكب جرماً بالقيام بذلك. يؤمن بقُوَّة في أن الحياة مُنحَت له مرَّة واحدة، وليس له من خيار سوى عيشها بدم الشباب وفورته، دون أن يعبأ بالإشاعات والتّقوّلات الدائرة حوله. لكنّ تجمّعات الشباب أمام محلّه قد تكون هي التي أثارت المتعصّبين ضدّه.

طيِّب، أنا أُهدَّد، لأنني أستخدم الخيط، وأقصّ الشَّعْر على الطريقة الأميركية، ومحلّي يجتمع فيه الشباب، لكنْ، ماذا فعل المُصلُّون في جامع النور، لكي يُفجَّروا بتلك الطريقة؟ وماذا فعل طلاب المدارس الذين فجّرهم واحد من الانتحاريّيْن في بغداد الجديدة؟ ومَن المسؤول عن موت كاظم موحان في تفجير وزارة الخارجية أو رجم السّكّان بقذائف الهاونات؟ والعمّ جلال مَلَك! مَنْ دسّ له الرصاصة؟ ومَنْ ألقى له بالقرص في حديقة البيت؟ وكيف اتّهموه بالعمالة للأجهزة الأمنية؟

تلك المحاججات لا تترك أيّ أثر بين الناس، فقد استمرّ سعد بعمله، واستمرّت الإشاعات حوله، حتّى صار يُسمَّى، همساً، سعد الإيمو. ويبدو أنه تقبّل هذا اللقب، وعَدّه جزءاً من تحدّيه الخاصّ لهذا المجتمع المتّجه إلى الهاوية. وكان واحداً من تفاصيل ذلك التّحدّي أنه دأب، هو وأصدقاؤه، على وضع رقصة سيف العروس على شاشة التلفزيون المعلّق في المحلّ. تلك الرقصة التي شاهدها جلال مَلَك ذات ليلة، وأشعرتْهُ بالحزن، كذلك حين قرأ عن مصير سيف العروس، وكيف قُتل بتلك الطريقة. كان سعد وأصدقاؤه لا يملّون من تكرار عرض الشريط، ورفع الصوت الشجي المرافق لسيف حتّى يسيل نحو الشارع، كما سال دمه في المنصور، ليصل، بعض الأحيان، إلى مقهى الجماهير، في الأُمسيّات الصيفية القائظة.

***

في ذلك الصباح الناعس، الساكن الهواء، وفيما كانت الحياة تدبّ في شارع الدير، وشارع الميكانيك، مثل سلحفاة بَحْرِيّة، وجواد يقلّب ناظرَيْه في فضاء الشارع بمَلَل ومرارة وتوجُّس، جاء سعد كعادته من الطريق الضَّيِّق المحاذي لدير السريان. جاء مَشياً، وكان يلبس قميصاً بلا أكمام، شَعْرُهُ الأسود مُسرَّح، ويلتمع بقليل من جِلّ التثبيت، يرتدي برمودا رجالية، لونها

بُنّيّ، وحذاء رياضياً، وكان يمسك بمفتاح المحلّ بيده، ويُحدِّق نحو شارع الميكانيك صعوداً حتّى محلّ الكَرَّادَة. كلّ مَنْ رآه في تلك اللحظة تحدّث عن هالة الرضا المُشعّة من وجهه، والابتسامة العريضة التي تُداعب الطيور ونظرات المارّة والبنات الجميلات، واهتزاز جسده المتناسق المندفع إلى الأمام، برغبة فائرة في عيش يومه بلذّة وعمق.

تحرّكتْ، في هذه الأثناء، من جوار المقهى المُغلَق، سيَّارة صغيرة من نوع سوزوكي، تحرّكت بهدوء، ووقفت أمام محلّ جميلة، وكان سعد يقترب من واجهة محلّه حين نزل ثلاثة رجال، فجأة، وطوّقوه بأيديهم. سارع واحد منهم، بلفتة مدرّبة، إلى وضع أنشوطة بلاستيكية في يَدَيْه الاثنَتَيْن بعد أن جمعهما خلف ظهره. غطّت يد خشنة فمه، كي لا يصيح، أو يطلب النجدة. حدث المشهد بسرعة خارقة، بسرعة أشخاص، تدرّبوا على مثل هكذا مُهمّات استثنائية.

بطحوا سعد تحت الرصيف، على ورق وقناني مياه فارغة وعلب عصائر مستهلكة وغبار تطاير حول رأسه. انهالت على جسده ثلاث عصي بلاستيكية ثقيلة، لم تكن تميّز الأمكنة الحسّاسة بعضها عن بعض، الرأس، السَّاقَيْن، اليَدَيْن، الظَّهْر، تسقط بِغِلٍّ عميق على الجسد. سعد شلّه الرعب، وأخرستْهُ المفاجأة لحظة خاطفة، ويبدو أنه انتبه لحراجة وضعه وخطورته وجدّيّته، فبدأ بَعْثَة بالصراخ: أنا أخوكم العراقي، أنا عراقي مثلكم، يصيح بصوت مبحوح من الخوف، دون أن يسمعَه أحد. نظراته تشي بأنه يعتقد أن ما يجري لا يعدو أن يكون مزحة فجّة، دبّرها له واحد من أصدقائه. وكان ذلك يجري وسط ضوضاء العصي التي تنهال بقسوة، ولُهاث المهاجمين، والدم المتفجّر من الجسد المتكوّم تحت حافّة الرصيف.

نزل رجلان آخران من السوزوكي بخفّة، وهما يمسكان مُسدَّسَيْن

ضخمَيْن، حديثَيْن، راحت عيونهما تمطران بغضب مُنذِر بعض المارّة الذين تجمّعوا في الجهة الأخرى من الرصيف. كانوا يُحدِّقون بعيون مستغربة، متسائلة، وبوجوه مُغلَقة، صامتة، حائرة ممتلئة بالرعب. صرخة أنا أخوكم العراقي بدأت تتلاشى قليلاً قليلاً حين خفتت مقاومة الأعضاء البشرية الملوّثة بالدم، إلى أن صمتت تماماً. كانت العصي تنهال على الجسد، كما لو أنها تنهال على كيس من الذّرة أو كتلة من البلاستيك، وحينها توقّف الضرب، ونظر الرجال حولهم، كما لو كانوا يستردّون وعياً، كان غائباً في الدقائق السابقة. بانت ملامحهم واضحة عارية. وجوه صخرية، ملتحية، ونظرات تحمل تعابير قاسية، بشكل لا يُقاوَم. جباهٌ صارت مع العَرَق الذي سال منها جباه وحوش بشرية، لا تعرف الرحمة، وثمّة فورة من الانتشاء النفسي لمَنْ أدّى واجباً ثقيل الوطأة.

***

فتح سعد عينَيْه، بمحاولة أخيرة للدفاع عن نفسه، وبدأ ينظر في الوجوه المحيطة به: يتعلّق بأشكال غيمة أيلولية صغيرة بيضاء، تسافر وحيدة في السماء البعيدة، تحجبها بين حين وآخر سحنة سوداء لوجه يقطر الكراهية على هيئة حُبيبات عَرَق مالح، ويتغيّر المشهد فجأة، ليجد أمامه أحصنة تُحمحم، وسيوفاً تتناوشه من كلّ حَدَبٍ وصَوْبٍ، ويتنفّس رائحة غبار متصاعد من أرض جافّة، وتنغرز في وجهه عينان محمرّتان، تنثّان أبخرة نارية، ثمّ تنزلق يداه من حافّة الغيمة، ويشعر بتهاويه في فضاء مضطرب، ويكاد يسمع، كما في غمرة حلم، صوت أُغنيّة راقصة، وثمّة جناجل تُخشخش، وصنج يدقّ، وطبلة تُوقِّع عليها يد بارعة، وشابّ نحيف يتلوّى من الرقص على تلك الإيقاعات المهيبة، تبادر له أنه سيف العروس ذاته، لكن سيفاً قد قُتل، وعلى حين غرّة، تدوّي في مسامعه انفجارات مهولة، يعقبها

مزامير لسيَّارات إسعاف، ورجال يلغطون بلُغات غير مفهومة، ويمتلئ الهواء بدخان طائرات ذوات سمات عجيبة، تُوجّه مقذوفاتها على أهداف أرضية، لا تراها العين المُجرَّدة، وثمّة صفائح من الكونكريت تضغط على صدره، فتمنعه من التّنفّس. يروم رفع يَدَيْه المنطويَتَيْن جنب جسده، فلا يُفلح، ليجدَ نفسه مُنغمِراً في سائلٍ لزج، ورائحة التراب تتغلغل في أنفه، وهمهمات تسيل، لا هي بالضحك، ولا هي بالبكاء، تُسبّبها مخلوقات من البشر، تحيط برَفيره المتلاشي.

فكّر أنه في برزخ الموت، أو هكذا أوحت له الرموز الواصلة إليه عن طريق حواسّه المعطّلة.

***

هاتها، قال أحد الرجال الواقفين فوق رأس سعد، موجّهاً كلامه إلى آخر يقف جنب السَّيَّارة شاهراً مُسدّسه بيده اليمين. هاتِ (ها). رمز معروف لهم، يفهمونه جيِّداً، فمشى الرجل إلى مؤخّرة السَّيَّارة، وفتح الصندوق، وأنزل بلوكة ثقيلة من الكونكريت، بلوكة عادية من ذلك البلوك الذي تُبنى به البيوت، وشاع لا في بغداد فقط، بل في مُدُن العراق كلّه منذ السّبعينيّات. بلوك رافديني من التربة ذاتها التي صُنعت منها زقورات سومر، ومعابد بابل، وتماثيل آشور، في حقب مرَّت عليها الدهور. حملها بين يَدَيْه بعد أن وضع المُسدّس في حزام البنطلون، ومشى نحو رفيقه، فناوله الكتلة الصّمّاء تلك.

بساعدَيْن قويَّيْن، رفع الرجل تلك الكتلة، وضربها بكلّ ما يملك من قُوَّة برأس الحلّاق. لصوت الارتطام صدى خفيف، تفجّر إثرها الدم، وتطايرت شظايا الرأس إلى الجانبَيْن، وتلوّث قميص الرجل بقطرات حمراء من الدم،

مختلطة بنخاع المخّ، وذرّات اللحم. ليس عنفاً ما يجري في الشارع، بل هو انخطاف طقوسي، يعود تاريخه إلى ملايين السنين حين كان الكائن البشري يتلذّذ بمَرأى الدم، ومرأى العذاب الفظيع المستولي على الضحية. حينها تتكثّف النوازع الحيوانية في الفرد، ويفقد صلته بالعقل أو المنطق، ولا يعود هاجسه سوى إزالة الضحية من الوجود. وجاءت، ربمّا، عادة أكل لحم الإنسان من ذلك الهاجس.

كان يكفي سعد طلقة واحدة من المُسدّس تُوجَّه إلى رأسه، مثلما دأب الناس على رؤية الاغتيالات وهي تجري كلّ يوم، لكن المهاجمين لا تستهويهم مشاهد فجّة، يمكن لأيٍّ صعلوك ارتكابها، ينبغي أن يكون المشهد أمثولة للكلاب السائرة التي سُمّيت بشراً. لأولئك المتجمهرين، أمثال جواد السمين، في هذا الصباح، فاغري الأفواه مثل أرانب مذعورة.

حملها ثانية، وأعاد الكرة، وجّه ضربة أخرى أعنف من السابقة، إلى ما تبقّى من الرأس، كما لو كان يجد متعة فائقة فيما يفعله. كالعادة، وفي حالات كثيرة مشابهة، وقف عدد من الأطفال وسوّاق السَّيَّارات يتفرّجون على المشهد أمامهم بصمت، سال الدم على الرصيف، وسال تحت الرصيف، وتلوّثت بقايا الصحف وقطع البلاستيك ونوى التمر وكسر الأقلام العتيقة بلون أحمر، لون الرّمّان، ورقي النباعي، وتوت بعقوبة، وطلاء الشفاه الذي تضعه النساء في شارع الدير، ولون الشفق الصيفي الذي طالما شاهده البغداديون في أثناء الغروب على أمواج دجلة، ولون العيون الصامتة التي كانت تُحدِّق ببلاهة. بلاهة، عجز، متعة داخلية غير مُعلَنة، لفرجة هزّت ركود الأيّام المتشابهة، الكريهة، تعابير خائفة، فارغة من مشاعر العطف أو الاحتجاج، كان ذلك أشبه بتكملة موفّقة لعشرات

السنين من التهميش، والعقل القطيعي، والروح المستسلمة إلى أقدارها الدينية، وعشرات السنين من ألفة مع الدم، والرعب، والنجاة بالنفس، لا غير، في حروب متعاقبة، وسجون يُمارَس فيها التعذيب، وإهانات مُوجَّهة ومدوزنة، تُلائِم الجميع.

كان الحشد يقف ببلاهة أمام جبروت القُوَّة، السلاح، العنف، وهي مقوّمات مجرّبة لردّة فعل الجرس الذي جرّبه العالم بافلوف ذات يوم على كلب مسكين. القُوَّة تستجلب الخنوع، والخنوع يدخل في خانة العجز، والعجز هو هاجس المشاهدين جميعاً.

بعض من الأولاد المذهولين راح يتحسّس شَعْر رأسه دون وعي، كما لو يتلمّس الآثار المتروكة على جِلْده من أصابع سعد التي حلقت له شَعْره ذات يوم، ورائحته اللذيذة التي طالما سالت على الرقاب والأنوف ومسامات الوجه، لم ينطقْ واحد منهم بكلمة، بصيحة، بطلب نجدة، فيما كانت لعبة الركل والضرب والتهشيم تتواتر على سعد الحلّاق.

- اذهبْ إلى جهنّم، وهناك اعبدِ الشيطان، قال واحد من الرجال وهو يفتح الباب، وينسلّ إلى داخل السَّيَّارة.

ثمّ بادر آخر إلى البصق على الجثّة بعد أن مسح قطرات من الدم لوّثت لحيته، واتّجه هو الآخر إلى السَّيَّارة. لحق بهما الباقون، وشغّلوا المحرّك، ثمّ استداروا وسط الشارع بحركة استعراضية، واتّجهوا صوب جسر الميكانيك، ثمّ فاحت من خلفهم رائحة حريق إطارات، وتصاعد دخان المحرّك في فضاء الشارع، ولم يفقِ الحشد، الذي كبر الآن حول الجثّة، إلا بعد أن اختفت السَّيَّارة عن الأنظار بسرعتها الهائجة.

حدث الأمر، والساعة لم تتجاوز التاسعة صباحاً، بتوقيت منطقة الدَّوْرَة، الرابضة على كتف النهر.

***

الواقعة جاءت مثل جرس إنذار هائل صار يدقّ ويدقّ حتّى أيقظ الجميع.

كيف انتشر الخبر بهذه السرعة، لا أحد يدري. خلال أقلّ من ساعة، عرفت الدَّوْرَة كلّها بخبر مقتل سعد الإيمو، حلّاق شارع الدير ومنطقة آسيا وشارع ستّين. الحلّاق البارع الذي مرَّت من تحت يَدَيْه رؤوس مئات الأطفال، وآلاف الشباب، ومئات الشيوخ، وظلّ يحلق في المحلّ طَوالَ ثلاث سنين وخمسة أشهر، كان خلالها محطّة تجمّع الشباب، وتقوّلات المنطقة، وكانت تفوح من محلّه عطور الحلاقة اللذيذة التي يشمّها المارّة من أمام الدكّان كلّ يوم، وتهرّ من فضائه أجمل أغاني الموضة على إسفلت الشارع وروّاده.

حين وصل الخبر إلى نور، عبر جارتها، لم تخرجْ من البيت، وراح جسدها يرتجف دون إرادة منها، وشعرتْ كما لو أن أُفق السماء يتحوّل إلى سكاكين لاصفة، تتّجه إلى قلبها. لا تستطيع احتمال المنظر، وخوفاً على الأولاد من مشاهد مروعة، اتّصلتْ مباشرة بجلال، وأخبرتْهُ بالحادث، وظلّ جلال مَلَك دقيقة كاملة صامتاً، لم يستوعب المفاجأة، وقد وقعت الجريمة بهذه الطريقة. ظنّتْ أنه أغلق الخطّ، إلى أن جاءها صوته من وسط دموع، أو قلق كثيف، ليقول لها: له الرحمة، وبعد هُنَيْهَة صمت أخرى، هُنَيْهَة كثّفت بين طيّاتها ليالي شارع الدير كلّها، ورحلة الغرب البعيد والرعب المستولي على خياله، بل وجوده أجمع، قال لها بنبرة جازمة، أحسّت أنها وُلدت من تفكير طويل وتأمُّل سابق: اعرضي أثاث البيت كلّه للبيع، الطّبّاخ، المجلى،

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

الثلاجة، المُبرِّدات، التلفزيون، السَّجَّاد، حتّى أواني الطبخ، كلّ ما هو قابل للبيع. بيعي حتّى الهواء الذي تتنفّسه، كي نغادر هذا الكهف. علينا أن نغادر الشارع، وبأسرع وقت. ولا تنسي خاتم الزواج أيضاً، والكومبيوتر القديم، والكُتُب، ولاقطة الإنترنيت، والكراسي البلاستيك، وتلك الكُتُب اللعينة. كلّ شيء، كلّ شيء، ثمّ أغلق الخطّ بحزم.

أيقنتْ أن جلال سيعود من العمل باكراً، فهكذا أحداث عادة ما تفاقم عنده الخوف على العائلة، ولا يريد أن يكون بعيداً عنها. وكان هناك نُواح يتناهى من أزقّة نائية وبيوت، وهديل حمامات لَطَتْ خلف أوراق ليمون أو بين سَعَف نخيل، وكانت هناك سيَّارات إسعاف، تُرسِل منبّهاتها للوصول سريعاً إلى جريمة أخرى.

أمّا عادل، فحين وقف على الجثّة بعد دقائق من مغادرة القَتَلَة، شرع يردّد بين فينة وأخرى، ليتَني متُّ في الأسر، كي لا أشاهد ما يحصل لنا، ليتَني قُتلت بقذيفة هاون إيراني على الجبهة، ليتَني لم آتِ إلى هذا الجحيم، وكانت عيناه تهلّان دموعاً صادقة، ثمّ بادر إلى المتحلّقين حوله، وقال لهم بصوت عالٍ: يجب إخبار أهله، هل يمتلك أحدكم تلفون أهله؟ وتبرّع واحد من الشباب الذين يعرفون الحلّاق جيِّداً، فاتّصل بأخيه الأصغر، وأخبره دون مواربة بما جرى لسعد، ولم تمرّ سوى دقائق حتّى هجمت عائلة سعد على الحشد، وسط الصراخ، والعويل، والندب، والرثاء، ذلك كلّه محمول على أصوات نسائية ورجالية، أبكت أغلب الواقفين، وكان من بينهم جميلة، وإقبال، وأمّ رياض، وبائع محلّ الكَرَّادَة، ونهاد سائق التاكسي، وجواد الذي وضع عربته تحت تصرّف الموجودين، فيما لو أرادوا نقل الجسد إلى البيت.

صِبْيَةٌ كُثُرٌ، بعضهم لم يتجاوز عمره السبع سنوات، كانوا أُرسلوا من

قِبَل ذويهم لجَلْب الصَّمُّون الساخن من المخبز، وجدوها ذريعة للوقوف، ومراقبة هذا المشهد الذي لا يقع كلّ يوم، وسيرثون ذِكْراه ما امتدّ بهم العمر، لقد تحوّل المكان إلى قطعة من قيامة صغيرة، لن تزول من الأذهان حتّى سنوات قادمة.

جاءت ثلّة من الشرطة وسيَّارة إسعاف، بعد اللحظة التي حملوا فيها جثّة الحلّاق سعد، في السَّيَّارة، برفقة أخيه وأمّه. لم يشأ أحد الانصراف من المكان، إلى أن بادر نهاد وعادل وجميلة وأمّ جواد إلى سحب صوندة الماء من المقهى، وجلبوا مكانس بلاستيكية، وراحوا مع جواد وبعض الصِّبْيَة يُنظِّفون المكان من الدم ونثار اللحم. أمّا البلوكة التي تُركت خلف الجثّة، فحملها جواد بعربته بعد غسلها من الدم، وتوجّه بها إلى أقرب مزبلة.

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

وَرَثَة الدم

هل حلم تشوانغ تشو أنه كان فراشة؟
أم أن الفراشة حلمت بأنها تشوانغ تشو؟
ما الذي كان حقيقياً، الفراشة أم الرجل؟

الشاعر الصيني لي بو / ٧٠١ ميلادية

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

هناك آلة ضخمة للقتل تتحرّك بسرّيّة تامّة، هذا ما اتّفقتْ عليه معظم الآراء وخلاصات الحكمة التي استنبطها الرجال والنساء، أولئك الذين يمتلكون خبرة حياتية بتسلسل الأحداث التي عاشوها بعمق في السنوات الأخيرة. تلك الآلة ذات أذرع مختلفة، وعقول مبثوثة في أمكنة عديدة، عناوين مراوغة، وأغراض واحدة، هي تتغلغل في الشوارع والمدارس والجوامع والجامعات ومراكز الشرطة ووحدات الجيش والمحلّات والدوائر الحكومية. لا تشبع من ضحاياها، فكيف جاء سعد إلى دكّانه في هذا الوقت المبكّر؟ مَن اتّصل به؟ ولماذا؟ هل هو واحد من أصدقائه؟ هل هي جهة حكومية، دائرة الرقابة الصّحّيّة على سبيل المثال، للكشف على محلّه؟ هل هو نداء الموت ما جلبه في ساعة الصباح الصيفية تلك؟ ورقته الساقطة من شجرة الحياة، كما أكّدت جميلة؟ هل يمتلك سعد الحلّاق حياة سرّيّة، لا يعرفونها؟ اتّصاله بحركات مُسلّحة مثلاً؟ له علاقة مع استخبارات الجيش؟ إحدى الميليشيات؟

قصّة قتله، بسبب تهمة الإيمو، وجدها البعض غير مقنعة.

معظم سكّان شارع الدير وما جاوره يقولون بغضب، الشباب لن يلبسوا مثل الشيوخ، وهذه بديهية، عاشها الجميع نساء ورجالاً حين كانوا مراهقين. القضية لا تستدعي قتلاً بهذه الوحشية. لكن القَتَلَة لا يمتلكون منطق عامّة الناس. ببساطة، لأنهم قَتَلَة. قَتْلُ سعد تَرَكَ بصماته الفظّة على الجميع، لا أحد يمكنه أن يكون محصّناً أمام آلة القَتْل متعدّدة

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

الرؤوس. حتّى جلال مَلَك ظلّ يسأل نور كلّما خطرت الواقعة في رأسه: كيف يبدون؟ أشكالهم، ملابسهم، سيَّارتهم؟ فتُخبره نور أنها لم تَرَهُم، وقيل لها إنهم ذوو وجوه غريبة، ملتحية، صلدة التعابير، تروم بَثَّ الرعب في مَنْ يتطلّع بهم، البعض نسبهم إلى المكفّرين، والدراويش، والبعض نسبهم إلى الميليشيات والمجاهدين الذين يرتدون زيّ الشرطة ورجال الأمن، وأكثر ما استوقف جلال في كلام نور هو كلمة الدراويش، حتّى كرّ في رأسه السيناريو الصيفي كلّه، الرصاصة في المُغلَّف، القرص المدمَج، اعتقال (أبو هند)، انفجار جامع النور، العيون المريبة التي تُحدِّق فيه حين يمضي ماشياً في شارع الميكانيك، أو حين يجلب البيرة من محلّ النخلة، ومنذ الجريمة، والبيوت كلّها تنام في شارع الدير وشارع الميكانيك على رعب أخرس، وعميق، يترسّب في القلوب، ولا يبين أحياناً حتّى في الكلام.

ومع أن جلال سمع حكاية الجريمة من زوجته نور ومن عادل، لكن جواد كاظم هو الوحيد الذي رواها بطريقة متماسكة، وكان في أثنائها يبكي بحرقة، وهو يقصّ عليه ما حدث. كانا واقفَيْن أمام الباب الأسود في مساء رائق بعض الشيء. وقد لمح في عينَي جواد السوداوَيْن خيالات غير محدّدة، من رعب ما رآه في ذلك الصباح، وكأن قَدَرُه حَكَمَ عليه أن يعيش اللحظات الأخيرة من مقتل الحلّاق. في هذا البلد، الجرائم تُعيد إنتاج نفسها، ومن خلال وصف جواد، شعر جلال أنه يشاهد الفيلم ذاته، فيلم سيف العروس المقتول في شوارع المنصور، وسال دمه على البلاطات العتيقة. كانوا يتفرّجون عليه حين استفرد به القَتَلَة، فكّر جلال، وتساءل عن السبب الذي منع هؤلاء من التّدخّل ومَنْع الجريمة.

أمن المعقول أن تكون هناك موافقة ضمنية على القَتْل في أعماقهم الدفينة؟

لكنْ، رغم ذلك الرعب، الأخرس، الملتصق بنظرات العيون، المصطبغة به نوافذ البيوت، المبثوث في الهواء مثل غبار الطَّلْع، إلا أن الحياة، برغباتها

ونزواتها، لم، ولن، تكفّ عن الجريان، يُخبَز الخبز في الأفران، تنمو الفسائل في الحدائق، يُولَد الأطفال، ويمضون إلى المدرسة، تطير الفاختات في السماء، تتطاول الظلال كلّ نهار منذ الصباح، وحتّى المغيب، يخرج جواد بعربته صباحاً، ليدور في الأزقّة والشوارع والساحات باحثاً عن الرزق، ويتصاعد الريش من ناصية الشوارع والساحات. البشر كلّهم يُدركون ذلك، مهما تعاظمت المآسي فوق رؤوسهم.

أصبحت نور أشدّ التصاقاً بوَلَدَيْها سامي ورامي، تفيق صباحاً، وتجلس في الفراش، تتأمّل وجهَيْهما المتشابهَيْن، وهما سابحان في سكينة النوم العميق، ويُبحر بها خيالها إلى هاجس الموت، وهو ينتظرهما ذات يوم بين هذه الأزقّة المُتوحِّشة، أو في ساحات اللعب، لكنها تطرد هذا الهاجس بإصرار.

وحين تستدير بأفكارها إلى زوجها جلال لا ترى سوى السيناريو ذاته، سيناريو مقتل سعد، فتشطح بها أفكارها إلى مفاضلة فيها من الرعب أكثر ممّا تحتمله روحها، بمَنْ تفرّط لو وُضعت في هذا الخيار المؤلم، بوَلَدَيْها أم بزوجها؟ وهي مفاضلة تجري كلّ يوم في ضمير النساء العراقيات أجمع، وهذا ما دفعها لقَصْر حركة الوَلَدَيْن داخل البيت فقط، حدود لعبهما الباب الأسود، أمّا جلال، فلا يمرّ عليها يوم واحد إلا وتعتقد حين تودّعه صباحاً أنها لن تراه مرَّة أخرى.

الحياة تتقدّم بخطى بطيئة، مرتبكة أحياناً، وتحت أقسى الظروف، لكنها لا تتوقّف أبداً.

***

وافق عادل على شراء المجلى والمُبرِّدة وأواني الطبخ من بيت جلال، المُبرِّدة لبيتهم، وسيتفاوض على الثلاجة البيكوك الشهيرة الماركة، مع المجلى وأواني الطبخ لبيت أمّ إقبال، وأختها سعاد، الساكنَتَيْن في بغداد

الجديدة، وفي غمرة الحديث عن مقتل سعد الحلّاق، والتفاصيل الخرافية المرافقة له، حيث ظلّت تُروى، ويُضاف لها أو يُحذَف، طَوالَ أسبوع كامل، عرف معظم سكّان شارع الدير سر جلال مَلَك.

سيبيع جلال أثاث البيت، وسينتقل إلى البلدة، سيرحل إلى أربيل، سيهاجر إلى بلاد الأجانب، وبلدانهم الباردة، وهو خبر انتشر إثر مقتل سعد الحلّاق مباشرة، تسلّل بين الجيران، وتداولت أمره النساء في محلّ جميلة، وفكّر فيه جواد طويلاً، ولم يعترضْ عليه عادل، فهذه هي النهاية المنطقية لأقدار هذا الرجل المَدعوّ جلال مَلَك، ورغم رحيل نور الوشيك، والمؤلم، عن الشارع، إلا أنها فرصة، والجميع يعرف أن بيع أثاث بيت في هكذا ظرف يعني أن الأسعار تكون مغرية، بل لحظة سانحة، قد تنزل، إلى نصف الثمن الحقيقي.

هذه هي الحقيقة: مَنْ يغادر بيته عادة ما يكون مضطرّاً، والمضطرّ يرضى بأيّ سعر لبضاعته. حقيقة مجرّبة في السنوات الأخيرة. السنوات التي هاجر فيها مئات الآلاف إلى مُدُن أخرى، أو حتّى بلدان مجاورة.

بعد الظهيرة، وكانت الريح قد توقّفت عن الهبوب، وجلال مَلَك ما زال في دائرته، والحياة تصخب في الشوارع، والقادم لم يأتِ بعد، والصيف يفتح باباً مواربا للخريف، طلب عادل من زوجته إيصال الأولاد إلى جَدَّتهم الضريرة في بغداد الجديدة، وذهب هو إلى جسر الميكانيك مَشياً، بدشداشته البيضاء، ونعاله البلاستيك، ولحيته البيضاء التي توحي بمتصوّف غارق في بحار أنواره الداخلية أكثر ممّا توحي بأنه يغذُّ الخطى لشراء إكسيره الأثير.

موجة قتل الحلّاقين تلاشت منذ سنوات، ولا يمكن إدراج مقتل سعد تحت هذا الباب، هناك أسباب غامضة، وسرّ يجهله عادل، ومن المرجّح أن القَتَلَة اطّلعوا على تمرّد روحه الشَّابَّة، وأحاديثه مع الزبائن، وحواراته

مع أصدقائه، ووجدوا فيه شخصاً خطراً على المجتمع، مجتمعهم هم الذي يتصوّرونه: الإذعان. أيّ فرد يقف في الواجهة مُهدَّد بالحذف، وجلال يكرّر دائماً هذه البديهية حين يجري الحديث على موجات القَتْل الشائعة في العاصمة. هل يتجاهل هؤلاء البشر الذين يكتظّ بهم الشارع ما يندلق على رؤوسهم من مآسٍ؟ مقهى الجماهير تغصّ بالزبائن، ونهاد يقف أمام نوفوتيه جميلة مُنتظِراً زبائنه، ومحلّ الخضرة ينسّق بضاعته لجولة العصر، وثمّة حمير ثلاثة سائبة تتّجه مغمضة العيون إلى جسر الميكانيك.

اليوم هو الخميس، وبيته خالٍ من المونة، كما يُسمّيها، وغدا جمعة، لا تُفتح فيها محلات الخمور، لذلك دخل محلّ النخلة للمشروبات الروحية بعجلة ولهفة، ثمّ اشترى قنّينة من عَرَق توما اللبناني، دون أن يمتلك رغبة في تبادل الحديث، وكما اعتاد دائماً، مع عمّال المحلّ، وكأن لا شيء في هذا الوجود يستحقّ الاهتمام. وهي حالة تتلبّسه بعض الأيّام، إثر مقتل سعد الحلّاق بتلك الطريقة الخارقة، فيرى خلالها البشر كائنات قميئة، لا يمتلك أيّ ميل للاحتكاك بها، أو تبادُل النظر معها. يكرههم بعمق، ما إن يستعيد وشاياتهم وقصصهم الناقصة، خنوعهم وصغارهم، ويُفترض أنه يشمّ روائحهم الكريهة وقذارة أجسادهم ونبرات ضحكهم المبتذَل، ويتمنّى لو يمتلك غازاً سامّاً، يبيدهم به مثل حشرات حديقته، مثل البقّ والصراصير وأربع وأربعين وقواقع الصيف.

في طريق العودة، اشترى الليمون، والطماطم، والخيار، والعنب، من بائع المخضرات قرب محلّ الكَرَّادَة، مع رأس خسّ كبير، وعرّج على بائع الثلج قرب القصّاب، واشترى ربع قالب، وعاد بذلك كلّه إلى البيت.

إنه نهار جديد في شارع الدير.

لكنه نهار ينبغي قَتْله، كما تردّد في تفكيره، وكرّ طَوالَ رحلة العودة على قلبه وعقله.

جلس وحيداً تحت هواء المُبرِّدة، مع كأس، سريع، من العَرَق، وضع جنبه حبّات من العنب، وثمرة طماطم مُملَّحة، وصحناً صغيراً من لبن أربيل الحامض. الليلة ستكون ليلة النسيان، ليلة الجنّ، كما وصفها لنفسه. وضع شريطاً قديماً للمطرب الشعبي سلمان المنكوب، الذي يعدّه عادل من أشهر مطربي الحزن في العراق، ودأب على سماعه منذ الشباب، وقبل أن يقع أسيراً لدى إيران، في المسجّل العتيق، وهو عادة ما يفعل ذلك حين يجلس لتأمُّل حياته، والهروب إلى عالمه الخاصّ، وقرّر أن يبتعد عن الأولاد، والزوجة، والموت، والقتال، والأسر، والعبوات الناسفة. يُحلِّق فقط في عالمه الافتراضي هو الآخر، حيث لا يبقى لديه سوى الذكريات، بدءاً من طفولته، وحتّى اللحظة التي شاهد جسد سعد الإيمو مهشّم الرأس تحت الرصيف.

لن يستطيع النوم دون تعبئة الرأس، دون أن يسكت ذلك الذئب العاوي في تلافيف دماغه، الذئب الجريح الهائم في صحراء جافّة، ومتاهات لا تُودي إلى طريق، وظلّت هذه الفكرة تعزف في روحه كأُغنيّة من أغاني سلمان المنكوب، ما إن فتح عينَيْه صباحاً، حين تذكّر دماء الحلّاق ورأسه المهشّم.

اليوم خمر، وغداً أمر، كما يقول المثقّفون.

والغد يوم آخر يمضي من حياته، حين تسقط الشمس خلف برج كنيسة السريان، ويهمد شارع الدير مديراً هواجسه إلى ما ينتظره في الغد من قصص وأحداث، لا تسرّ، وحين تدور تلك الآلة الجهنّميّة في رأسه، آلة الذكريات التي تقوده يوماً بعد آخر نحو قبره المُنتظَر. سنّ آخر يسقط،

ودرجة إضافية ترتفع في مقياس الضغط، وخصلة من الشَّعْر تزداد بياضاً، وقطعة جديدة تتهاوى من بيته العتيق، وكتلة من الزمن تمضي دون أن يرى طه، ابنه، القاطن مع عمّه عمر في اسطنبول.

***

كان عادل يجلس جلسة الأسير التي أدمنها طَوالَ سنواته القاسية في إيران، جلسة القطّ، رأسه بين يَدَيْه، أذناه على الأُغنيّة، عقله في الماضي البعيد، يداه تتلمّسان رأسه الحليق بين الحين والآخر، كما لو كان غير مُصدِّق بقاءه حتّى هذا اليوم فوق جسده المهدَّم. المنظر الذي شاهده لم يرَ مثله في سنوات الحرب، ولم يرَ مثله في سنوات الحصار وأمكنة الانفجارات التي قُيّض له أن يكون شاهداً عليها، وآخرها انفجار جامع النور. لم يرها حتّى في أشدّ كوابيسه عنفاً وغرابة.

لم يشأ فَتْح التلفزيون، ولكنه يُحدِّق إلى شاشته الرمادية بين فينة وأخرى، كما لو كان يتوقّع حدوث شيء مُفاجِئ، أو ثمّة صور ومشاهد شبحية ستتعاقب خلف لون الشاشة الرمادي. خلف شاشة الرماد تلك جثث لحروب سابقة، وبيانات انتصارات، وخطب رنّانة، وأفلام وثائقية، تبعث القشعريرة في مسامات الجِلْد، ورياح سامّة، لها طَعْم اليورانيوم والفسفور والسي فور، وبانوراما لا نهاية لها من الأجساد المتفحّمة، والبنايات المحترقة، والمشاهد المصبوغة بحمرة القصف والانفجارات.

الصمت في البيت مهيمن وثقيل، رغم صوت سلمان المنكوب ونواحه على الأحباب ومنازلهم الخالية.

في غرفة الاستقبال التي يجلس فيها على الأرض، تتوزّع الأرائك العتيقة إلى الجدران دون نسق واضح، وفي الزاوية، تنتصب الثلاجة القديمة التي بالكاد تُبرّد المياه نتيجة لانقطاع التَّيَّار الكهربائي، وفكّر بالثلاجة نوع البيكوك

التي سيشتريها من جلال، إذا ما ناسبه السعر، وصوت سلمان المنكوب يُلعلع في الصمت، يستجلب الحزن، وهو يرثي الأماكن الخالية، والأحبّاء الذين غيّبهم الموت، وتقلّبات الزمان وهي تضرب، مثل زلازل مُفاجِئة، بني البشر، لتُرسلهم إلى المجهول. فكّر أنه يغنّي لهذا الزمان، رغم أنَ الأُغنيّة قديمة، تعود إلى سبعينيات، وربّما ستّينيّات، القرن الماضي. هو غير مطمئنّ لحياته، حاله حال جلال مَلَك. حتّى أسابيع مضت، كان يعيش بينهم سعيداً، كما يظنّ الجميع، سعيداً بزوجته وطفلَيْه وحياته الرتيبة بين العمل والبيت، لكنْ، فجأة تغيّر كلّ شيء. في البداية، رسالة التهديد، ثمّ اعتقال جاره أبي هند، ثمّ القرص المدمَج الذي وجدتْه نور تحت حافّة الباب. ألا يمكن أن يكون صدفة؟ الحياة مليئة بالصدف. ثمّ اتّهامه بالتواطؤ مع الشرطة، وها هو يتّجه إلى المجهول. هل يمكن أن يُقتَل جلال مَلَك؟ قد يمرّ هو بالظروف ذاتها، مَنْ يدري؟ كثيراً ما فكّر باللحاق بأخيه عمر وابنه طه في مدينة اسطنبول. يبيع الأثاث، وحتّى البيت والمغادرة، لكنه كلّ مرَّة يفكّر بالأمر، تصيبه قشعريرة عميقة. لا يتخيّل أن يبدأ حياة جديدة مرَّة أخرى، وفي بلد غريب، وبجسد مُهدَّم. الحكمة تقول تجنّب البدء من الصفر، لكن الواقع يمشي باتّجاه آخر، ألم يكن رجوعه من الأسر ولادة ثانية له؟ ألم يبدأ من الصفر؟ كلّما تقدّم الإنسان بالعمر، يكتشف فعلاً أن الحياة قاسية أكثر ممّا يجب، وتختلف تماماً عن أحلام المراهقة والشباب. سنوات طويلة صرفها حالماً بتلك اللحظة، الرجوع إلى الوطن، وتأسيس أسرة، ثمّ قضاء بقية حياته في بغداد. كلّها أحلام وخيالات. مطحنة رأسه تدور، والأُغنيّة تدور.

منذ أن أُلقي في تلك الليلة المظلمة على الساتر، في قاطع العمارة، والمطحنة تدور في رأسه.

يُحدِّق بكأس العَرَق الموضوع على جريدة عتيقة مفروشة أمامه، ويهرب من جدران البيت مثل فاختة عمياء.

أخوه عمر يقطن راضياً في اسطنبول مع زوجته السورية، تعرّف عليها في جرمانا، أيّام ما كان سائق سيَّارة جيمسي حديثة، ينقل الرّكّاب بين بغداد ودمشق. إنه مشتاق أيضاً لطه، ابنه الذي أرسله إليه، ليقيم هناك تفادياً للمشاكل التي كان يخلقها في البيت، وحفاظاً على حياته. لا يستطيع ضربه أو القسوة عليه، إذ تحضر دائماً أمّه أمام عينَيْه، زوجته السابقة التي تُوفّيت بالسرطان. إقبال تشكو منه دائماً، فتُخبر عادل عن أفلام البورنو التي يشاهدها في غرفة الطابق الأعلى، ورائحة المَني المنتشرة في فراشه وغرفته. تقصّ عليه الكلمات النابية التي كان يخاطبها بها. هل يغار طه من زوجة أبيه؟ هل كره إقبال، لأنها حلّت محلّ أمّه؟ يتّصل به أحياناً بالموبايل، يقول له طه إنه لا يشتاق إلى الوطن، هو مرتاح جدَّاً في بيت عمّه عمر. رحل عمر، وترك زوجته الكردية هنا، مع ثلاث بنات، وهي تسكن اليوم في منطقة المعامرة الواقعة خلف جامع النور. يقول له عمر إنه يرسل لها نقوداً بين حين وآخر، لكنه لا يُصدِّق عمر، يعتقد أنه تركها هنا للخلاص منها، فهو يحبّ السورية أكثر منها. تركها، لتواجه حياتها بنفسها، وتعتمد على أخوتها في تدبير شؤون عيشها. أخوتها يعيشون في منطقة الكفاح وسط بغداد. عدْ إلى البيت، اسكنْ في الطابق الأعلى، يلحّ عليه، فيردّ بجفاء: لا، لن يعود ثانية، فهو يخاف على نفسه من الموت، أو الخطف، في أحسن الأحوال، حالي من حال الملايّيْن، يحاجّه بمنطق بارد، هناك آلاف العراقيّيْن اليوم في تركيا، ومثلهم في الأردن وسورية ومصر وروسيا وأوربا، وفي كلّ مكان. نحن مثل قنبلة تفجّرت، وتبعثرت شظايا، ولا يعرف أحد ما هو السبب بالضبط. هل يمكن لملمة أشلاء قنبلة مرَّة أخرى؟ ما الذي فعله هذا الشعب المسكين لكي يتبعثر بهذه الطريقة؟ يسأل عادل نفسه، ويسقط في صمت عميق، يواصل تركيزه بكأس العَرَق ساعة بعد ساعة.

***

لقد آن لإقبال أن تعود، لا بدّ أنها سلّمت الأولاد إلى أختها سعاد، والمسافة بين بغداد الجديدة والدَّوْرَة ليست طويلة، إلا إذا حدث ازدحام مُفاجِئ في الطريق السريع. راح يفكّر بالأمّ العمياء أمينة، وتمنّى موتها سريعاً، لكي يقتسموا البيت بينهم، فعدا سعاد، لديها أختان ثانيتان متزوّجتان، إحداهما تقطن في دمشق، والثانية في العامرية، ولم تبقَ مع العمياء بعد موت ابنها في واحد من الانفجارات سوى سعاد. لقد فَقَدَتْ بصرها حزناً على ابنها. رحل في انفجار من الانفجارات في سوق بغداد الجديدة قبل خمسة أعوام، ولم تمرّ سنة حتّى فَقَدَتْ بصرها. أمينة دائماً ما تشتكي من ابنتها سعاد، وكأنها هي مَنْ جلبت تلك المآسي كلّها إلى العائلة. تقول: إنها لا تُطعمني بشكل صحيح، لا تُحمِّمني كما ينبغي، وتتطاول عليّ بالكلام، وتدعو الله أن يأخذ روحي، وفي عالمها المحصور بين أربعة جدران، لم يبقَ لديها سوى التّشكيّ. ولأن سعاد الوحيدة التي تعيش معها، سلّطت لسانها عليها، بمتعة لا تكلّ. حصّة إقبال من البيت قد تُغيِّر قليلاً من نمط حياتهم، فكّر عادل باستبدال الأثاث، وترميم البيت، فثمّة بقع كبيرة من الرطوبة تنمو في السقف والجدران. وسيضع باباً جديداً لسياج البيت، بدل الباب المتهالك الذي لا يُغلَق إلا بسلسلة من الحديد، يضعانها كلّ ليلة عند النوم، ويزيلانها عند الصباح حين تستيقظ إقبال فجراً. هذا إن لم يبعْ كلّ شيء، ويسافر إلى تركيا.

في كثير من الأيّام، وطَوالَ سنوات، يفتح عينَيْه صباحاً، ويعتقد أنه موجود في أحد السجون الإيرانية، السجون الكثيرة التي مرّ بها خلال سنوات الأسر. لم يكن الفرار ممكناً، وعلم عادل أنه انتهى إلى وضع غير طبيعي، وها هو العدوّ يحاصره. تلك ليلة لا تُنسى. هجم الإيرانيون بأضويتهم الكاشفة، وأحالوا الجبهة إلى نهار. ليس هناك عاقل، يفقه بالعلوم العسكرية، ويقوم بهذه المناورة. لكنها كانت مناورة ناجحة، وحطّموا عبرها الخطوط الأمامية كلّها للعراقيّيْن. وضع عادل مع نحو خمسين شخصاً في خانة الإعدام دون

أن يعرف السبب، إلا أن رجلاً إيرانياً متقدّماً في السّنّ جاء من مكان ما، وتحدّث مع الجنود بالفارسية، لم يفهم عادل كلامه، ثمّ جاءت مُنظّمات دولية، فلم يُنفّذ بهم الإعدام. نُقلوا بعدها إلى معسكر مسيّج بأسلاك، يقع في منطقة صخرية. أمضوا الليل في ذلك المعسكر، وقُدِّم لهم خبز وتفّاح. بعضهم أكل، والغالبية لم تأكل، وعادل من هذه الفئة، إذ لم يضع في فمه حتّى الماء مدّة ثلاثة أيّام. بعد فراق الأهل، لا يبقى للحياة طَعْم. كان ذاك المعسكر كبيراً جدًّاً، ويتألّف من قاعات واسعة، وفيه مراحيض، حلّت لهم أكبر مشكلة، عانوها في اليومَيْن الماضيَيْن. وضع السّجّانون في تلك القاعة صناديق من التمر التالف. لم يأكلْ منه أحد في أوّل ليلة، وكانت ليلة عاصفة وماطرة، وكأن الرعد والبرق أشعلا جبهة جديدة. كان البرد قارساً، ولم يكن ما تبقّى عليهم من ملابس كافياً لرَدّه. التصقوا بعضهم ببعض، ونام كلّ واحد في حضن صاحبه، أو واضعاً رأسه على كتفه. بعد أسبوع، تضاعف العدد. وبسبب جوعهم، التفتوا إلى التمر، فأكلوه كلّه.

تلك التفاصيل تكرُّ في رأسه دائماً.

يستعيدها أحياناً أمام مُحدِّثيه بتفاصيل مغايرة، لم يعد يجزم بحدوثها فعلاً.

أحضر الإيرانيون، بعدما صنّفوا الأسرى في مجموعات، وأعطوهم أرقاماً، صحافيّيْن راحوا يلتقطون لهم صوراً، وتحدّثوا إلى بعضهم. في اليوم نفسه، بعد الحفلة الإعلامية، أحضروا لهم غداء من شوربة الخضار والرّزّ والخبز. وعند الساعة السادسة مساء، نُقل الأسرى بسيّارات عبر شوارع المدينة في مواكبة جنود كُثُر، إلى الأهواز، حيث وضعوا في قصر كبير من القصور التي كانت للضّبّاط الكبار في عهد الشاه. يتذكّر القصر رغم مرور السنين والأحداث. شكله وواجهته وحجمه. كان مُؤلّفاً من غرف كثيرة وقاعات، وكانت القاعات خالية من الأثاث، لكن الأرض كانت مفروشة.

وهنا نام الأسرى أوّل ليلة دافئة. وفي اليوم التالي، نُقلوا إلى معسكر آخر في الأهواز، وكان فيه كثير من الأسرى، حيث بقوا نحو أسبوع. وهناك أجرى مسؤول المكان تحقيقاً مع الأسرى. أن تعيش بين بشر، لا تفهم لغتهم، عذاب ما بعده عذاب. إنها الغربة في أقصى تجلّياتها. خالط الأكراد، والأرمن، والتركمان، لكنْ، جرى الأمر في البلد. أكثر ما كان الأسير محتاجاً إليه هو السيجارة، ومَن استطاع منهم أن يحافظ على شيء من مقتنياته، ولم يسلّمه لحظة الأسر، راح يُقايض به الدخان. وصل سعر السيجارة إلى خمسة وعشرين ديناراً عراقياً. جاء أمر نقلهم إلى طهران، فنُقلوا إلى محطّة القطارات. وهناك كان الموقف حرجاً وصعباً. وجدوا مئات الناس مجتمعين، وهجم بعضهم، مُسلّحاً بسكاكين، ليطعنوهم. وكال البعض للأسرى شتائم كثيرة، وراحوا ينعتونهم بـ "المزدور" بالفارسية. عرفوا في ما بعد معناها، "المرتزقة"، وبصقوا عليهم، ورشقوهم بالبيض والحجارة. لم يستطع الجنود في تلك اللحظة إنزال الأسرى، فأبقوهم في السَّيَّارات حتّى تمكّنوا من إبعاد المتجمّعين والفضوليّيْن والهائجين. للمرَّة الأولى، يرى عادل الثلجَ في حياته، تلال من الثلج تتجمّع على جانبَي الطريق. المديات بيضاء. وكانت تلك البلاد جميلة بحقّ.

الجبال، السهول الواسعة، أنفاق الطُّرُق، والشوارع الواسعة المُعتنى بها، ذلك كلّه كان لعينَيْه جميلاً، ومُمتِعاً، لكنه لم يتغافل عن حقيقة أنه أسير، يواجه مصيراً غامضاً، وتراءت له حياته في بغداد، العائلة، تفاصيل بيتهم في بغداد الجديدة، السينمات، التّسكّع في شارع النهر وعلاوي الحلّة والسعدون، الأصدقاء الذين يتذكّر أسماءهم واحداً واحداً، تراءت له تلك المشاهد حلماً بعيداً، ينثّه الثلج الأبيض، وتوحي به طيور السماء.

كانت أوقاتاً قاتمة، كئيبة، مَحشوَّة باليأس. سرّاً، نَذَرَ لنفسه أنه إذا ما تمّ رجوعه سالماً إلى أهله، فإنه لن يفيق يوماً من السُّكْر. تلك أيّام يعود

إليها كلّما جلس لنفسه، كما لو كان يشعر بمتعة خفية أنه عاش تلك المآسي كلّها، لكنه ظلّ حَيَّاً حتّى الآن.

شهد عادل، مثل غيره من العراقيّيْن، هبوب العاصفة، وفصولها، وقد قلبت مثل بركان كلّ ما كان قائماً، العاصفة التي وفدت محمولة على أجنحة الطائرات الشبحية، والدَّبَّابَات غريبة الشكل، والجنود الذين بدوا، كما لو كانوا هابطين من كوكب آخر، وكان حاضراً حين هجمت الحشود على تمثال الرئيس في ساحة الفردوس، وتنفّس دخان الحرائق في سماء بغداد، بعد أن استُبيحت ذاكرتهم وشوارعهم وأبنيتهم وجسورهم وأنهارهم وسماؤهم، وظنّ أن يوم القيامة على الأبواب، وأَنْسَتْهُ الحوادث المشتعلة في كلّ مدينة وزقاق وبيت حتّى سنوات الأسر. أصبحت حياته خلف ظهره، أصبحت ماضياً، لا يمكن استعادته. لم يعد يخشى الموت، إذ، وكما كان يردّد لنفسه، أو لمُحدِّثيه، حدَّق فيه عيناً لعين، وكان يُفترَض به أن يكون ميّتاً منذ تلك السنوات. الأيّام التالية عاشها في الوقت الضائع. أيّام مُنحَت له، ليشهد على الخراب المنتشر حوله. لا أمل، لا طموحات، لا مشاريع، لا شيء. أن تعيش الحياة، كما هي. هذا ما يؤمن به مع نفسه.

في مكان ناءٍ، بعيد كما لو كان ينتسب إلى كوكب آخر، وقع انفجار أصمّ، جاء من وراء دجلة، أو من خلف تخوم المدينة، وربمّا حدث وسط مُدُن الصفيح، ورغم بُعْده، اهتزّت جدران البيت، وسقطت عن التلفزيون مَزهريّة صغيرة، وضعتْها إقبال قبل أسابيع، وقد جلبتْها من سوق الدَّوْرَة المركزي، لكنها لم تتحطّم، وقفز عادل مثل شبح من مكانه، ليلطي على الأرض تحت الأريكة. حسب روحه هناك، في جبهة الحرب، في موضع مُشيّد من الخشب وأكياس التراب، تُمطره القنابل، وها هو يتوقّع القنبلة التالية التي ستُرسله إلى السماء. وجد نفسه في نفق رجراج، هو نفق الزمن. انفصل عن اللحظة الحاضرة، وانتظر أن تدوّي في الفضاء، دون شكّ،

صواريخ أرض أرض مُوجّهة إلى العدوّ، وستطير سَمْتِيَّات مرعبة، الطائرات المصفّحة التي تقذف صواريخها إلى الأُفق الشرقي البعيد، وستتأهّب مفارز الموت، لتُحكم انتشارها خلف خطوط الجبهة الخلفية، كي تقتصّ من أيّ جندي أو ضابط يحاول التراجع أو الهروب. إن تقدّمتَ إلى الأمام، سوف تُقتل، وإن تراجعتَ، تقتنصكَ مفارز الموت، وإن لبثتَ في ملجئكَ، عليكَ أن تنتظر الشظية التي ستطيح برأسكَ، أو تملأ بطنكَ بالجروح، بالدم والحديد وعجين التراب الأحمر اللون، اللزج مثلما الموت، ولا يبقى أمامكَ سوى الاستسلام، أُمنيّة أن تقع أسيراً، لتبتعدَ عن بحر هذه الأهوال كلّها.

- أنا أخوكم العراقي، قال لكم سعد، يا أبناء الكلب. أخوكم، كيف تسحقون رأسه بالبلوكة؟! كيف تجعلون من دمه خريطة، تسيل حتّى باب محلّ الكَرَّادَة؟ حلاّق، هو حلاّق، لا أكثر ولا أقلّ. هل تُصدِّقون أنكم ستفلتون من العقاب؟ مرّ على هذا الشعب المسكين الكثير من أمثالكم، لكنه داس على رقابهم في النهاية، وواصل العيش. أنتم أشباح لا أكثر، ولهذا تضعون الأقنعة على وجوهكم.

لا غرابة أن يراه مثل حلم، ممدّداً قرب نوفيته جميلة، كلّما عرّج على المكان، ليشتري الصَّمُّون من الفرن أو ليجلب اللحم من القصّاب. الشارع لم يعد آمناً، العاصمة لم تعد آمنة، الحياة خارج جدران البيت جثث وانفجارات وسيَّارات مفخّخة وجنود مُلثّمون وقطعان مُسلّحة، ترتدي الأقنعة، وفخاخ من كلّ شكل ولون. غريب، يا لتلك الصور التي تظلّ عالقة في رأس المرء حتّى حين يمضي زمن طويل على حدوثها. لم يكن هناك زمن في رأسه، لقد توقّف العدّاد مثل ساعة عتيقة. ما إن انتبه إلى جسده المُكوّم تحت الأريكة حتّى لاحظ أن جوّ الغرفة صار مُعتماً، والليل حلّ منذ فترة، وعاد ليزحف من الظلمة نحو فراشه، ثمّ يجلس مُنغمِراً في ماضيه مثل شبح.

***

كانت هناك شقوق ظلمة خلف البيت، وأشباح سنونو تشقّ طريقها في الهواء متّجهة نحو بيت جلال وأبراج دير السريان، وكان هناك أضواء حباحب تُومِض تحت أشجار السيسبان. في هذا المساء، وفي المساءات السابقة كلّها، لم يجد عادل أمامه سوى طريقَيْن: السقوط في فراغ روحه الرهيب، والغوص في دهاليز ذكرياته، ما إن يبدأ باحتساء الخمرة، وهذا ما أوصلتْهُ إليه سنوات عزلته حين كان أسيراً في إيران، وتوصّل إلى هذا الاكتشاف لنفسه بعد سنوات من رجوعه إلى الوطن، وكأنه يتبع ذلك القانون غير المكتوب بحذافيره، القانون القائل إن السجناء والأسرى لفترات طويلة لا يعود أمامهم سوى هذَيْن الطريقَيْن. تزوّج، وأنجب، وحاول الحفاظ على عائلة متماسكة، لكنه لم يستطع الهروب من قَدَره ذاك، وتقبّل تلك النتيجة باستسلام منقطع النظير. يضع كأس العَرَق أمامه، ويجلس مُحدِّقاً في نقطة وَهْمية أمامه، ثمّ تسرقه الذكريات شيئاً فشيئاً، ممّا يحيطه من حياة، ويتحوّل إلى سجين داخل جمجمته مثل تمثال من البرونز، حيث يبدأ الشريط يتحرّك في نقطة ما عميقة داخل روحه، وتتسابق المشاهد والصور والوجوه والأحداث في فوضى عارمة، فلا يستطيع إمساك أيٍّ منها سوى لهُنَيْهَات قليلة، ثمّ ينقله خياله إلى لغة أخرى، ووجه آخر، وحوار بعيد، قد يكون حدث قبل عشرات السنين، وما إن يحتسي المزيد، ويتعالى السور غير المَرئي بينه وبين الموجودات حوله حتّى يصفو عقله قليلاً قليلاً، وتتمركز عدسة الخيال في موضوع واحد، تلتقطه الذاكرة، لا على التعيين، فيجد روحه عالقة هناك، يفلّي التفاصيل بدقّة، يقلّب المشاهد يميناً ويساراً، يرى الألوان، ويسمع الأصوات، ويشمّ الروائح، ويتحرّك فيلمه الباطني ببطء، يتحكّم فيه بدراية أماماً وخلفاً أو يُوقِفه على أمر ما، تعتقد مُخيّلته أنه الأهمّ في ذلك الشريط. غير أن المرء لن يتمكّن من العيش سكران دائماً، وتحت وطأة الماضي، فتتجسّد معاناته القصوى في ساعات الصحو، حين ينفض ذكرياته عن الرأس، ويقف عارياً أمام الواقع.

وعندها يعود إلى ذلك الدَّرْس البليغ الذي تعلّمه في الأسر، أو أجبرتْهُ الأيّام على تعلّمه، إلى أن صار صفة مُتأصّلة فيه، تطبع عادة سجناء الفترات الطويلة في الزنازين والمعسكرات، الدرس البليغ هو تأثيث حَيِّزه الشخصي بفعل ما، فعل يتطلّب منه تحريك يَدَيْه ورجلَيْه، وفتح عينَيْه، وانجاز شيء ما يخصّه هو وحده.

لاحظت إقبال ذلك بعد أيّام من زواجهما.

كان يقعي على أريكة الصالون بيده إبرة وخيط، يُرمِّم بها شقّاً، رآه في طرف القماش، بصبر وأناة، وكأنه سيُنجز آخر عمل جدّيّ في حياته. يتلذّذ في طبخ الرّزّ للغداء، ما إن تحين الساعة الحادية عشرة، يُقدّر كمّيّة الملح والزيت والفترة الزمنية المطلوبة لنضج الرّزّ، وكان قلّما يُخطئ في صناعة وجبة شهية. يتتبّع الستائر الفالتة من أماكنها، يزيح البقع التي تُحدِثها الطيور على زجاج النوافذ، يُرتِّب الفرش في غرفة الضيوف، يجلس مقعياً على قميص، يُثبّت له زرّاً مقطوعاً، والسيجارة لا تفارق شَفَتَيْه، وترتسم على وجهه جدّيّة غير معهودة في الرجال، هذه الصفة وجدتْها إقبال غريبة في رجل، رغم أنها لم تصلْ إلى التفسير المُقنع، كونه عاش في ذلك الحَيِّز الضَّيِّق، حَيِّزه الشخصي لمدّة عشر سنوات.

فتّشتْ عنه ذات ظهيرة صحو في الغرف، ولم تجده، وظنّتْ في البداية أنه خرج للتّسوّق، أو لجَلْب إكسير حياته من محلّ النخلة، لكنها حين نظرت من الشّبّاك المطلّ على الحديقة، وجدتْهُ مرتدياً دشداشته البيضاء جالساً وسط الحديقة الضَّيِّقة وهو يمسك معولاً صغيراً، ينبش به التربة، التربة السبخة المعروفة بمواصفاتها تلك في معظم أراضي الدَّوْرَة، وأخبرها أنه سيزرع الحديقة بالفجل، وفعلاً أتمّ عمله كاملاً ذلك النهار، وانتظر أسبوعَيْن، لكنه لم يرَ حتّى ولا نبتة خضراء واحدة، كانت نسبة الملح في التراب أقوى من دافع الحياة لنبتة فجل غضّة.

الحَيِّز الشخصي الضَّيِّق ذاك هو الذي أفشل محاولاته كلّها للبقاء في عمل ثابت فترة طويلة، كما جرى له حين عمل في فرن الصَّمُّون قبل سَنَتَيْن، إذ هو يحسّ دائماً أنه يخدم الآخرين، عكس ما انتهت إليه عاداته الرتيبة خلال أيّام أسره المديدة. من ذلك كلّه، وبتعاقب الفشل في التواصل مع الواقع الفائر والمرتبك الذي رجع إليه، توالت الانتكاسات على عادل، واختصرت بوصلة حياته، فلم تعد تشير إلا إلى طريق واحد، أي معاقرة الكأس، كي يسبح به في بحر ذاكرته المتلاطم.

***

لو لم يفقْ على طَرقات الباب، لَلَبثَ في بحر ماضيه البعيد ذاك حتّى نهاية العالم.

لا يمكن أن يكون الطارق إقبال، هي تمتلك مفتاحاً لسلسلة الحديد، إلا إذا أضاعتْه.

قام واتّجه نحو الباب، وكانت طيور الليل منتشرة في الفضاء بكثافة، تتصيّد الحشرات الطائرة والبقّ وذبابات الضوء، وسمع هَسيسَها طاغياً بين شعانين الشجر والنخيل. ولم يشأ فتح الباب، فصاح من الممشى:

- مَنْ يطرق الباب؟

- أنا جواد عمّو عادل، هل تحتاجون إلى ماء أو نقل الزبالة أو أيّ شيء آخر؟ أنا أنهيتُ عملي، وقلتُ أسألكم إن كنتُم بحاجة لشيء.

- كلا، شكراً، حبيبي، لا نحتاج اليوم إلى شيء، تسلم، ورافقتكَ السلامة.

- عمّو جلال بدأ يبيع أثاث بيته، إذا كنتم ترغبون في شراء شيء منه.

- نعم، أعرف حبيبي، سنفكّر بالموضوع، هذا مصيرنا جميعاً. هل رأيتَ الأشباح في طريقكَ؟

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

- أيّة أشباح؟

- أشباح شارع الدير، عمّو جواد، أشباح بغداااااد.

وبعد هُنَيْهَة صمت يشي بتعابير وجه جواد المندهش من الصوت، سمع عادل دوران العجلات الحديدية، وهي تسحق الحصى الناعم على الإسفلت، فيما راح جواد يغنّي بايقاع رخيم أُغنيّة بغدادية مألوفة، وكان صوته يتّجه، كما قدَّر عادل، إلى نهاية شارع الدير، حيث يوجد البيت.

وتعجّب عادل من سرعة انتشار أخبار مثل هذه، لتصلَ إلى ما يشبه الفضيحة. كم عدد الأيتام في هذا البلد المسلخ، فكّر عادل وهو يسمع جواد وأُغنيّته الحزينة، ثمّ رجع إلى مكانه، مترنّحاً قليلاً من النشوة، والفراغ الكبير وقد جلبتْهُ إلى روحه سلسلة سنواته السابقة، وأوّل شيء عمله هو إضاءة الغرفة، فأعاده ذلك الضوء الشحيح إلى الواقع ثانية.

وجد نفسه محاطاً بستائر عتيقة، وثلاجة مُهدّمة، وشبابيك مغبرّة، وسقف ينثّ حرارة، وفراغ عميق يشبه فراغ الرتازين. تناول الموبايل الموضوع على طاولة التلفون، واتّصل بإقبال. قالت له إنها في بيت نور، وستصل بعد عشر دقائق.

أُغنيّة سلمان المنكوب توقّفتْ منذ زمن، لا يتذكّره.

رائحة الأثاث القديم وخمة، تتمطّى في الغرفة مع ذرّات الغبار المتسرّب من الخارج، وانتبه فجأة، كَمَنْ يستيقظ توّاً، إلى كثافة السكون المخيّم على الطابق الأعلى، والوحشة المُتأصِّلة في الزوايا، إضافة إلى الذكريات المُرّة المتراكمة عبر السنين.

***

- المجلى والمُبرِّدة وأواني الطبخ، نستفيد منها، رأيتُها اللحظة وهي مناسبة وبسعر جيِّد، ثلاثمائة ألف دينار لتلك الأغراض كلّها، قالت له إقبال أوّل دخولها الغرفة، كما يمكن التفاوض على الثلاجة، إمّا لأُمّي أو نستعيض بها عن ثلاجتنا العتيقة.

وافق عادل دون تردّد، ومضت إقبال إلى غرفة النوم وهي تمسك بكيس بلاستيكي منتفخ بالملابس.

تعرف جيِّداً دلالة إرسال الأولاد إلى خالتهم سعاد، وإعداد مائدة الشراب. عادل مقبل على ليلة من لياليه الساهرة، التي اعتادت عليها منذ سنوات. كلّما وقع في ضِيق، كلّما شعر بأن الحياة لم تعد تُطاق، يلتفت إلى متعة الجنس. اليوم يعيش، كما خمّنتْ، الوضع ذاته.

قبل ساعة تقريباً، عادت إلى شارع الدير. عرّجتْ على نور، واتّفقتْ معها على شراء المجلى والمُبرِّدة وأواني الطعام بثلاثمائة ألف دينار، بعد أن ألقت نظرة فاحصة على المجلى في المطبخ، وكان من البلاستيك الملبّس بالحديد، لونه الفستقي أعجبها. كما أن مغسلته واسعة ومريحة، قالت لها نور إنهم اشتروه قبل سَنَتَيْن من سوق المشتل بثلاثمائة ألف دينار، لكن ذلك حدث قبل سَنَتَيْن. أما المُبرِّدة، فهي إيرانية الصنع، وبحجم متوسّط، وتمتلك محرّكاً نشطاً لحدّ الآن. جسدها الحديدي لم يتآكل من الصدأ، كما أن الليف جيِّد، ليس بحاجة إلى تبديل، وما زال يمتصّ الماء بكفاءة. الأواني كثيرة، أرتْها نور الصحون البورسلان، والصواني الفافون بمختلف الأحجام، والكؤوس الزجاجية، ومصافي الرّزّ والخضرة، وعصّارة البرتقال والرّمّان، وخلاط الفواكه، والقدور الستانليس ستيل، مع عدد كبير من الشوك والملاعق بمختلف الأحجام، وعرضتْ عليها الستائر أيضاً. ووعدتْها بإعطائها شراشف للمائدة مطرّزة بالدانتيل، لذلك عَدَّتْها إقبال (لقطة)، وفرصة لشراء ذلك كلّه بثلاثمائة ألف دينار، ووعدت نور أنها ستحاول شراء

أشياء أخرى كالستائر والطاولات البلاستيك، وربمّا واحدة من السَّجَّادات، إمّا لبيتها أو لبيت سعاد وأمّها الضريرة. وقبل أن تودِّعها، تذكّرت أن عادل سيسهر معها، وعرفتْ مُسبَّقاً ما الذي يريد منها، لذلك طلبت من نور إعارتها بعض الملابس الداخلية المثيرة. ألبسة داخلية يطغى عليها اللون الأحمر، حمّالات صدر، أرواب نوم قصيرة بالكاد تصل الوركَيْن، روب نوم شفّاف يكشف أكثر ممّا يستر. ووعدت نور أنها ستُرجعها لها في اليوم الثاني. كما طلبت منها قنّينة عطر، تبعث رائحة مثيرة عادة ما تضعها بعض النساء في ليالي الغَزَل والمضاجعة.

ذلك كلّه بدأت إقبال بإخراجه من الكيس، وتجريبه على جسدها، ونور كانت أطول من إقبال، لكن الملابس الداخلية لا تعتمد على الطول، بل على السمنة والنحافة. إقبال أقصر من نور، لكنها أكثر امتلاء.

منذ أيّام وعادل مهووس بالمُغنِّية اللبنانية هيفاء. قال لها ذات مرَّة إن وجهكِ يحمل ملامح من وجهها خاصّة العينَيْن. الوجه المستدير قليلاً، والعينان السوداوان الثاقبتان، والفم بشَفَتَيْه المطبقَتَيْن بنهايات حادّة، والشَّعْر الأسود الفاحم، والأنف الصغير، والخَدَّان المرتفعان قليلاً، ذلك كلّه يعطي لمسة من هيفاء وهبي، إذا ما أُضيف إلى ذلك الَمسْكَرَة والديرم والكريمات المطرّية والأصباغ المتدرّجة في البياض واللون الزهري.

كان عادل يفكّر بذلك كلّه فعلاً. يرغب في مضاجعة هيفاء المُغنِّية.

دأب منذ مدّة طويلة على مضاجعة كثير من النساء اللواتي رآهنّ أو عرفهنّ بواسطة زوجته إقبال. يعدّ ذلك واحدة من متعه التي خلّفها له الأَسْر الطويل. الحاجات الجنسية في زنازين الأَسْر ورَدْهَاتها عادة ما تُلبَّى عن طريق الخيال. سنوات وهو يُفرِغ طاقته الجنسية عبر خيالات حادّة، وتجسيدات مُفصَّلة، لنساء عرفهنّ منذ طفولته وحتّى لحظة وقوعه في

الأسر. مضاجعة الوَهْم كما يُسمّيها مع نفسه. استهلك النساء الشهيرات، ثمّ المُغنّيات، ثمّ النساء اللواتي عرفهنّ في الوطن، من جارات وقريبات ومعارف، وكان يختار الأوضاع التي يشاء. ظلّ محكوماً بهذه النزوة حتّى بعد الزواج. وبهذه الطريقة التي يعتقد أنها جزء من أسراره الشخصية، بل أكثر الأسرار خصوصية، ضاجع معظم نساء شارع الدير، بمَنْ في ذلك نور زوجة جلال مَلَك، وجميلة زوجة (أبو نغم)، وحتّى ابنتهم نغم طالبة الجامعة التي لم تصل العشرين من العمر بعد. يستجلب الأصوات، ملامح الوجوه، الضحكات، تكويرات الجسد، ويؤثّث الأمكنة التي يقضي فيها وَطَرَهُ. يُؤثِّث مستوى آخر من الواقع، ويظلّ الأمر واقعاً افتراضياً كامناً في رأسه، يُلبّي له في النهاية رغبَتَيْن، رغبته الجسدية، والذهنية.

***

اليوم هيفاء، قال لها ما إن دخلت البيت مع كيسها، وقطع في رحلة إيفائه للنّذر ما يقرب نصف قنّينة العَرَق، وهو يعرف ويعي أنه ما إن يقطع مقدار قنّينة كاملة حتّى يرى في كلّ امرأة هيفاء. هيفاء المُغنِّية الساحرة التي طالما سهر مع أغانيها المصوّرة، في ليالي العزلة والملل والتفجيرات والمواجهات العنيفة، حين تتألّق على مدارج لبنانية عتيقة، ووسط منصّات ملوّنة بالضوء، مثل فراشة وسط الراقصين. كان يراقبها ترقص بالعصى، وترقص بيَدَيْها العاريَتَيْن، وتتلوّى بفستانها البرّاق، كما لو كانت أفعى بشرية، تأسر لُبّه، وتضعه في تِيْهِ خيالاته. لكي تصبح إقبال هيفاء ذاتها كون عيناها سوداوَيْن، اشترى لها عَدَسَتَيْن مُلوَّنَتَيْن، وهذا ما تعلّمه ذات يوم من مسلسل سوري، يخوض في الموضوع ذاته، لكي تنطبق صورة زوجته على المرأة التي في رأسه. المرأة التي شاهد معظم أغانيها المصوّرة، واستحضرها عشرات المرَّات وهو يضاجع زوجته.

وضع شريطاً لأغاني هيفاء اللبنانية، ورفع الصوت عالياً، وصاح بصوت

عال، هيفاء تعال، بدأ الحفل، وكان دائماً ما يذكّرها عندما يصل إلى موضع السُّكْر، وجاءت إقبال من الدرج تمشي بفستان قصير، وقد وضعت قوساً من الزجاج على شَعْرها، وارتدت حذاء بكعب عالٍ، ونزلت الدرجات بتمهّل، ووقفت وسط الغرفة، أمام عادل الذي ظلّ جالساً جلسة الأسير، ولكن فمه افترّ عن ابتسامة رضا وتواطؤ. الليلة ليلة هيفاء، علّه ينسى المناظر المقزّزة. المناظر الوحشية المتعاقبة على روحه طَوالَ سنوات وسنوات، وكان آخرها منظر سعد الحلاّق وهو يُحمَل بين الأكفّ مُحطَّم الرأس. المنظر الذي يكرّر نفسه في رأسه حالما ينتهي، وكأنه عواء ذئب جريح في صحراء من الرمل.

بدأ الغناء، وبدأت إقبال تتقمّص شخصية المُغنِّية، وبدأ عادل يتقمّص دور رجل أعمال ثري، يطير في أثير من السعادة والإثارة. الأرداف تتمايل، الثديان يهتزّان، العينان ترقصان مثل جناحَي فراشة، الخَدَّان المرتفعان الأحمران يتألّقان بالدلال. الشَّعْر الأسود المنساب على الردفَيْن، يتطاير بخفّة، نتيجة لانسكاب هواء المُبرِّدة في الغرفة.

نسي عادل شارع الدير، ونسي الانفجارات، وسنوات الأَسْر، والمهانة التي يعيشها كرجل عاطل عن العمل، وآمن أكثر من السابق أن الحياة وملذّاتها تُختَصَر في فرج امرأة. كلّ ما عدا ذلك أوهام. الجميع سائر إلى الموت ذات يوم، وليس هناك سوى المتعة. اللّذّة. الوصال مع الأفخاذ، والأرداف، والأثداء، والشَّعْر الأسود المجعّد، والخدود، والشفاه المصطبغة بلون الورد الغامق، دون نسيان العطور المهيّجة، وصبغ الأظافر، وعبق الديرم، ومَلمس البشرة الناعم.

العطر الثقيل يتوزع في الهواء، يتغلغل في الخياشيم، يرتفع بالأفكار إلى جنة اللذة. عطر لم يشمه سابقا لديها، وظن أنه عطر سماوي بعثته آلهة النساء لكي تشعل روحه أكثر فأكثر. وكانت إقبال تتعمد هز أردافها أمامه،

هي تعرف أنه يعشق الكتل المكورة في المرأة، وتجذبه المؤخرة خاصّة. كثيراً ما ضبطته، حين يمشيان سوية في الشوارع والأسواق، وهو يُحدِّق في مؤخرات النساء المارقات. ترى الشهوة الكثيفة في عينيه وتعابيره كلّما التقيا بمثل ذلك النمط من النساء. لم يعد فيه ما يغري، هو زوج فقط، لكنها تقرأ في عينيه تلك اللهفة للنساء وهي تنطلق من جرثه الحيواني المتوحش الذي لا يرتوي.

وكانت تعرف ماذا سيحدث. لقد خبرتْ ذلك سابقاً في ظروف مثل هذه.

سينهض عادل من موته البطيء، وسينزع ما تبقّى عليه من ملابس، ويظلّ فقط بالفانيلا واللباس الأبيضَيْن، وسيُمسك كأسه بين يَدَيْه، ويراقصها. يتلمّس تضاريسها مغمض العينَيْن، كما لو أنه يسبح في عالم أثيري. يتلمّس تضاريس امرأة أخرى، وهي تحسّ بذلك، ثمّ يحاول وضع الكأس على جبهته، ويستمرّ بالرقص حولها، كما رأى ذلك في أفلام مصرية، لا تُحصَى. وسيقترب منها أكثر فأكثر، خالعاً عن نفسه سنوات عمره الكئيبة التي قضاها أسيراً، وسنوات ما بعد رجوعه، وقد تحوّل فيها إلى شخص زائد على الحياة. وعلى وقع الموسيقى الراقصة، وغناء هيفاء الموقّع، سيُمسك بها من الخلف، يلتصق بها مثل أفعى ضخمة. وتحسّ بتوتّره الجنسي، وسيُكلّم نفسه وهو يناديها باسم المُغنِّية، ويُحدِّق طويلاً وعميقاً بالعينَيْن الزرقاوَيْن، حتّى يُنهَكَ تماماً، وتعرف جيِّداً أنه سيُتوِّجها المرأة الوحيدة في حياته، وهي لازمة يكرّرها بين لحظة وأخرى، ثمّ يسحبها إلى الفراش، وسيُصوِّب دائماً إلى المكان المُفضّل لديه، في السُّكْر عادة. وستتحمّل الألم، وستكون كما يريد: لعبة بين يَدَيْه.

وهكذا حدث الأمر بالضبط، في الساعة الواحدة ليلاً، وهي الساعة الملائمة لرقود القاطنين في أسِرَّتهم، وهمود الحركة في الشوارع المُغلَقة، ودخول الكائنات الحَيّة في نفق المدينة السَّدِيمِيّ، الممتدّ قُدُماً نحو

ساعات الصباح. وكان هناك دويّ قادم من نهر العاصمة، وحركات ضعيفة لطيور نائمة، تُرفرف بأجنحتها، لتجدَ لنفسها مَوطِئاً مُريحاً بين لفّة أغصان، وكانت هناك نداءات، تخترق الليل، وتضفي مزيداً من الوحشة على الشوارع.

***

جواد يخرج الأغراض من بيت جلال مَلَك.

لم تتجاوز الساعة العاشرة، في يوم جمعة كسول، فيما بزغت غيوم بيض خفيفة، راحت تنتشر رويداً رويداً، تغطّي بعضاً من الفضاءات البعيدة فوق شارع الدير، ممّا خفّف قليلاً من وهج الحرارة المعتاد حتّى في وقت مبكّر مثل هذا. قُرِئَت الغيوم من قِبَل سكّان الشارع على أنها علامة بارزة على أواخر الصيف، وخطوات الخريف التي تتقدّم بقلق. نضجت العُذُوق في نخلة عادل، تعرّت بعض الأشجار من أوراقها، فتساقطت على إسفلت الشارع، فيما مرقت في السماء طائرتان سَمْتِيَّتَان، اتّجهتا نحو جنوب بغداد.

تعاونت إقبال ونور في نقل أواني الطبخ والمُبرِّدة وسجّادة صغيرة جلبتْها نور من الطابق الأعلى، وأضافتْها هدية إلى ما تمّ الاتّفاق عليه. دور جواد كان ترتيب الأغراض في العربة، وتوضيب الأشياء الصغيرة، كي لا تقع في أثناء النقل، وكان يؤدّي العمل بذهول، غير مُصدِّق برحيل جلال وأسرته.

***

وهي تنظر إلى أثاثها المكوّم في العربة، تتذكّر نور قصّة كلّ ملعقة لديها، وكلّ قطعة ملابس وأثاث، كلّ ستارة، لقد جمعت هذا البيت من الصفر، خلال سنوات عيشها ببغداد. المُبرِّدة الإيرانية اشترتْها في بيت

منطقة المشتل، وكان مثل بئر متوهّج بالحرارة، حيث انتقلوا إليه بداية الصيف. اشترى جلال تلك المُبرِّدة من سوق المشتل، الشبيه بنفق أسود، إذ كان مسيّجا بالصّبّات الكونكريتية من الجانبَيْن خوفاً من التفجيرات. بعد ثلاثة أشهر من التحاق جلال مَلَك بدورة التصميم، من خلال إحدى مُنظّمات المجتمع المَدَني التي انتشرت بعد دخول الأميركان إلى البلد، حصلوا على ذلك البيت. وكانت المُبرِّدة أوّل حاجة ضرورية في صيف بغداد، جلبها جلال. كان رامي في سنته الأولى، تراه في الفراش يتلوّى من الحرارة المنبعثة من الجدران والسقف والشبابيك غير المُظلّلة. ذلك البيت لم يكن فيه حديقة. ممرّاته كلّها من الإسمنت. ثمّ بعد أيّام، جاءت الثلاجة البيكوك العالية. اشتراها جلال من سوق في الكَرَّادَة، وجلبها بواسطة سيَّارة بيك أب بيضاء. ومن ثمّ، الطّبّاخ الصغير، وأواني الطبخ القليلة، والفُرش المصنوعة من الإسفنج. دون أغطية. أعطتْها سندس، زوجة كمال مَلَك، شراشف مستعملة، وأوصتْها بالصبر، إلى أن تستقيم الأمور. البيوت لا تُبنَى خلال شهر أو شهرَيْن، هي تحتاج إلى سنوات من الاستقرار، قالت لها. لكنْ، أين هو الاستقرار؟ بدّلت ثلاثة بيوت خلال بضع سنوات، يُعدّ بيت الدَّوْرَة جنّة مقارنة ببيت المشتل. هو أرخص وأبرد.

وفيما كان جواد يهمّ بدَفْع عربته، سألت إقبالُ نورَ السؤال الذي ارتسم دائماً في رأسها، وتداولا فيه هي وعادل أكثر من مرّة:

- أين ستقطنون؟

بعينَيْن سوداوَيْن قلقَتَيْن وخائفَتَيْن، أجابتها نور هامسة:

- صدِّقيني، لا أعرف لحدّ الآن. جلال يقول مرَّة إنه سيرجع إلى البلدة، ويسكن مع أخيه كمال مَلَك، ومرَّة يقول إنه سيترك بغداد، ويتّجه إلى أربيل، لديه صديق يعمل في دار نشر هناك، وعده بتدبير عمل له كمُصمّم

في الدار. والبارحة سألني إن كانت لديّ رغبة في العيش بلبنان. راسل صديقاً عراقياً هناك، يقيم في بيروت، ووعده بتدبير عمل له، إذا ما قرّر المجيء. لا أعرف بالضبط كيف يفكّر هذا الرجل.

دعت لها إقبال بالخير، ورافقت جواد إلى بيتهم. تركت نور الباب مفتوحاً، وكان سامي ورامي يلعبان في الحديقة. لا يفهمان ما الذي يجري في البيت، الأشياء المألوفة في محيطهم الصغير تتناقص، الأب متجهّم على الدوام، والأمّ لا تعرف ما يدور. فكّرت نور، بأسى، أنهما لا يدركان ما ينتظرهما. بالأمس أعاد عليها سامي السؤال أكثر من مرَّة: ماما، لماذا نبيع أغراض البيت؟ و أخبرتْهُ أنهم سينتقلون إلى بيت ثانٍ أكبر وأفضل. قال لها ومدرستي؟ قالت له سأنقلكَ إلى مدرسة أخرى، لذلك انتظرت الخطوة التالية لجلال، هو مَنْ سيحدّد مصيرهم. لم تشترِ له ملابس جديدة، والمدرسة ستفتح قريباً. أمّا هي، نور، فأجّلت همومها لمفارقة الشارع والجيران والنساء، وباتت تشعر بقربها إليهنّ رغم المنغّصات التي تحدث بين الحين والآخر. أصبح هدفها سلامة العائلة، هدف فوق المشاعر الأخرى كلّها.

نساء شارع الدير لا يمكن لها نسيانهنّ. مَنْ تعتقد بأنها تشبه المُغنِّية هيفاء وهبي، ومَنْ تتزيّن كلّ خميس لزوجها، وتلك الأرقة التي لا تنام، لأنها تخاف على أطفالها من الاختطاف، ومطحنة الكلام التي تستمتع بالحديث، لذلك تأتي كلّ يوم إلى نوفوتيه جميلة، والجارة المهووسة بنظافة واجهة البيت، متصيّدة الأخبار، الأرملة المتشمّمة للرجال الباحثين عن زوجة، مهما كان عمرها، وراعية الغنم التي تجلب اللبن إلى محلّ الكَرَّادَة.

نساء شارع الدير، كيف لها نسيانهنّ؟

وهي تنظر إلى أدوات المطبخ، أحسّت بغصّة في حلقها. حتّى القدور

والصحون والملاعق تصبح أليفة وعزيزة بطول المجاورة والمرافقة. تتذكّر خدوش المقلاية، وطعجات الملاعق، وحُفر الصحون المنتشرة على وجهها. كما لو كانت تلك الأدوات بشراً، تعرف تفاصيلهم بدقّة. البرغي المكسور في القِدْر الكبير. يد المصفّي المستخدَم لبَزْل الرّزّ عن الماء، وقد أصاب قاعدتها التآكل. نار الفرن في الطّبّاخ العتيق، وهي تتراقص غير منتظمة في أثناء شَيِّ الدجاج أو السمك. رفقتها مع هذه الأدوات ستنتهي قريباً. ستفارقها هي أيضاً كما تفارق جميلة وإقبال وأمّ رياض وغيرهنّ من النساء والبنات. كانت متعتها الوحيدة، في السنين التي عاشتْها بين الجيران في شارع الدير هي مرافقة إقبال إلى سوق الدَّوْرَة الرئيس، في أيّام الجُمع، للفرجة على بضاعة السوق. تجولان ساعات في الأزقّة الضَّيِّقة، وتتملّيان بالملابس التركية والسورية والإيرانية، وبأنواع الزيتون واللحوم والخضار، وتشتريان الفواكه الطازجة، التي لا توجد في دكاكين شارع الدير والميكانيك. محلات الذهب المشعّة، وبازارات الأدوات المطبخية الحديثة، ومحلات الموبايل، ونوفوتيهات الأحذية النسائية المكتظّة دائماً. وكانت ترى الجوع المريع في وجوه النساء لشراء كلّ جديد وممتع. توق إقبال لامتلاك ذلك السوق بدافع حرمان طويل، تراه في ملامحها، ونظرات الشباب إلى البنات، وكانت تلمح فيها رغبات لا تُقاوَم. عالم ملوّن ستغادره قريباً وإلى الأبد.

رجعت إقبال بالملابس التي استعارتْها منها، وطلبت منها قميص النوم الوردي كهدية، أو كتذكار كما قالت، أحبّه عادل جدّاً، ووجده مثيراً على جسدها. أعطتْها نور ما طلبت، وتركت لها القوس الزجاجي وحمّالة الصدر. لو أن عادل يهتمّ بقراءة الكُتُب، لأعطاه جلال المكتبة الصغيرة التي يمتلكها، همست لها بودّ. لا يهتمّ بشيء اسمه قراءة الكُتُب، حتّى الجرائد لم يعد يُصدّقها، فهي تُورد الشيء ونقيضه، وفي الصفحة نفسها، قالت إقبال. الموت في جسدها، فكّرت إقبال بهاجس مباغت، لا تدرك سببه، يشمّه الشخص من بُعْد عشرات الأمتار، ويهجسه في تقاطيع الفم

ونظرة العينَيْن. أنفها الطويل، الذي كان يضفي على وجهها شخصية متفرّدة كان مثل منقار طائر الموت، والغضون الصغيرة حول فمها المنمنم تكاثرت ذلك النهار بشكل مُفاجِئ. هل هي أجنحة الموت المرفرفة فوق بيتهم ما سبَّب تلك الغضون؟

رجع جواد ثانية، وطرق الباب، سلّمتْهُ نور خزانة صغيرة للأحذية، كي يُوصِلها إلى بيت عادل، ثمّ سجّادة مربّعة، كي يسلّمها إلى جميلة في دكّانها، ثمّ أقفلت الباب وراءه.

بعد أن سمع انطباق الباب، فكّر جواد، وهو يدفع عربته بكسل، أن شيئاً غير معقول يجري في الشارع، وفي المنطقة كلّها. بيت آخر سيختفي من المحلّة. اختفى أبو هند، جار جلال، رغم أنه لم يحبّه يوماً، إذ كان شخصاً معقّداً، مكفهرّ التعابير، ينظر إليه بتعالٍ. وقُتل سعد الحلّاق، وظلّ محلّه مُغلَقاً، تصفر الريح في شقوقه وزواياه، وتندبه البوم كلّ مساء، وها هو جلال مَلَك وزوجته نور في الطريق إلى المغادرة. أمّه، تحدّثه في بعض الليالي عن نيّتها هي الأخرى في تسليم الشَّقَّة والرحيل عن هذه البقعة السبخة. المكان لم يعد ملائماً لهم، لكنه لم يكن يفهم تماماً بماذا كانت تفكّر، وفي أيّ الأمكنة يجدون الطمأنينة. البشر هنا من الصعب معرفة ما يفكّرون به. أفكارهم، وقراراتهم، تتغيّر مرَّات عدّة خلال اليوم، ولا يدرك السبب.

ثلاث نقلات كانت كافية لكلّ ما اشترتْه إقبال من نور، حصل جواد منها على ثلاثة آلاف دينار، ووجبة من الدولمة، تناولها تحت شجرة النخيل، وسينقل بعدها سجّادة نور إلى محلّ جميلة.

وفي أثناء ما كان يتناول طعامه، ظلّ مشغول الذهن بما يجري لجلال مَلَك. فعلاً لا يعرف بالضبط السبب الذي جعله يبيع أثاث بيته، ويغادر المنطقة. كما لا يعرف السبب وراء قَتْل سعد الحلّاق. حاول جاهداً

الوصول إلى معنى محدّد لكلمة الإيمو التي سمعها تتكرّر على لسان الناس، فلم يُفلح. ظلّت التُّهمة غامضة. نعم، يعرف الحلّاق منذ اليوم الأوّل الذي استأجر فيه المحلّ، واشتغل معه في تبليط الممرّ أمام الباب، وجلب له لفّة من الكباب على الغداء، ووضع في جيبه حين انتهى العمل خمسة آلاف دينار، وهو أكبر مبلغ يحصل عليه في أشغال الشارع. وحين يحلق شَعْره، لا يأخذ منه أجرة الحلاقة، كما يعفي أخاه الصغير من الأجرة. ناولَه أكثر من مرَّة ألف دينار لشراء لفّة فلافل، أيّام ما كان بلا عمل، ويركن عربته أمام دكّان جميلة، منتظراً الرزق.

هذه الأفكار وغيرها راحت تشغل ذهن جواد منذ الظهيرة. وجد سجّادة نور موضوعة عند الباب، وكان مفتوحاً، ونور تنتظره لمساعدته على وضعها في العربة. منحتْهُ ألف دينار مقدّماً، مع تفّاحة حمراء. تسلّى بها في الطريق، قالت له وهي تبتسم. وحين تحرّك في الشارع، وسمع الباب ينطبق وأصوات سامي ورامي تتعالى من الحديقة، وهما يلعبان لعبة طرزان في الغابة، ورائحة عطرها تصل ناعمة إلى أنفه، تمنّى لو يستطيع مشاركة الوَلَدَيْن في اللعبة رغم أنه أكبر منهما سنّاً. العمل صار مُرهِقاً لجسده. الشتاء أفضل من الصيف. الصيف في هذا البلد كأنه تنّور نووي. وأعجبتْهُ كلمة نووي، وجعلت شَفَتَيْه تبتسمان.

وجد جميلة وحدها في المحلّ، تُراجع حساباتها في دفتر مدرسي، وقلم من الرصاص في يدها، طلبت منه وضع السَّجّادة وراء الباب، وغادرها دون كلام، وقد سحب عربته، واتّجه بها إلى بائع الخضراوات المجاور لمحلّ الكَرَّادَة. وكان نهاد يركن سيَّارته التاكسي أمام المحلّ، يتَّكئ على جسد السَّيَّارة، ويدخّن بشراهة، فيما عيناه تراقبان حركة البشر في الشارع. أخبار ابنه عبّود اختفت من النشرات اليومية. قسم يقول إنه سيُعدَم قريباً. وقسم يقول إن الشرطة طلبت عشرين ألف دولاراً لإطلاق سراحه. ثمّة خضار قليلة متبقّية في الصناديق والسلال، ولم يشأ التّوقّف طويلاً قرب المحلّ، وقرّر

التّوجّه نحو مدرسة ابن سعد، ومن هناك، إلى منطقة المعامرة، المنطقة التي يحنّ لها دائماً.

***

منطقة المعامرة هي منطقة شبه عشوائية، نَمَتْ على أطراف منطقة الدَّوْرَة الشرقية، منذ عشرين سنة تقريباً، يقطنها عمّال وشرطة وموظّفون عاديون وكَسَبَة، بيوت ملفَّقة، وشوارع غير مُبلَّطة، تفصلها عن أطراف حَيّ الميكانيك فسحة واسعة، عادة ما يمضي الأطفال من الشوارع المجاورة لِلَعب كرة القَدَم فيها، وترى فيها أحياناً قطعان من الماشية وعدد من البقر، كما تسرح فيها أسراب من الدجاج، وعدد من الماعز. لا يعدم المرء من مشاهدة بيت، نصفه من الصخر، ونصفه من القصب أو من الصفيح، بيت يربيّ البقر والماعز، ويصنع من حليبه اللبن والقيمر، ليبيعه على المرفّهين في شارع آسيا وشارع ستّين والميكانيك والطعمة، كما تأتي في الصباح سيَّارات صغيرة محمّلة بالجت والبرسيم والحشيش الأخضر المخلوط بالخباز والحويرلة من أماكن نائية، على أطراف بغداد، لتصبّ في هذا الحَيّ العشوائي، علفاً للحيوانات. وفي كلّ صباح، يختلط نباح الكلاب مع صياح الديوك وثُغاء الماعز والخرفان وجعير البقر، تأتي من زرائب ضيِّقة مُسيَّجة بالقصب، تكون مُلحَقَة عادة ببيوت الصفيح، ووسط تلك البيوت المُلفّقة يمكن رؤية بيت فخم، بواجهة منمّقة، وأعمدة مطبقة بالسيراميك، تنتصب في حديقته نخلة أو نخلتان وعدد من أشجار النارنج.

أزقّة المعامرة وشوارعها تنتشر فيها الحفر والمطبّات، وتتحوّل في الشتاء إلى بحيرات مائية، تدفع السّكّان إلى استخدام العربات الصغيرة للعبور، وتالياً، تتحوّل إلى مسرح لعب، تُستخدَم فيه الطشوت

الواسعة، وسائل عبور من جانب إلى آخر، رغم برودة الماء. إضافة للحُفر والأمراض الجِلْدِيّة، عشّشت فيها عصابات ومجانين ومشرّدون قادمون من الأرياف، وسَحَرَة وبصّارون يعالجون عقم النساء ونفور الزوج من زوجته، وتعيين أماكن الحاجات المسروقة، وأعضاء سرّيّون لميليشيات وحركات مُسلّحة ومُنظّمات غير معروفة الهوية، ممّا دفع الشرطة إلى محاصرتها أكثر من مرَّة بحثاً عن المجرمين والمزوِّرين والخاطفين، ورغم ذلك البؤس الحياتي كلّه الذي يكتنفها، فإن أبرز ما يميّزها هو رُخص إيجارات البيوت والغرف فيها.

لقد قطن كاظم موحان مع زوجته وابنه جواد في تلك المنطقة عدداً من السنين في بيت للإيجار، كان يقع على سطح بيت أرضي، وشاء صاحب الدار أن يضع درجاً حديدياً، يقود من باب مُلفّق في الحديقة إلى الطابق الأعلى، وأجر البيت المكوّن من غرفَتَيْن وحمّام وتواليت ومطبخ إلى عائلة الشرطي كاظم موحان، وجواد قضى معظم طفولته في تلك المنطقة، نشأ مع الأطفال، ولعب الكرة معهم، ودرس في مدرسة ابن سعد، وكان يحنّ إلى تلك البيئة الممتعة دائماً، ويتذكّر بحسرة ذلك اليوم حين رافق أباه وأمّه إلى حديقة الزوراء، ليشاهد القرود المتقافزة خلف الأسيجة الحديدية، والزرافة بعنقها الطويل، وهي تقف أعلى سياج من القصب، والدّبّ الضخم وهو يحدج الأطفال بنظرات مندهشة، وذلك الرواق المُعتِم الذي ضمّ عشرات الصناديق المائية التي تسبح فيها أسماك ملوّنة ذات هيئات عجيبة، يراها لأوّل مرَّة في حياته.

كلّما وجد فراغاً من العمل، اتّجه إلى هناك، في توقٍ دائم لاسترجاع سنوات طفولته، ولرؤية أقرانه الذين كبروا، وسماع الديوك وهي تعلن عن نفسها في فسحات مُهمَلَة جنب البيوت.

***

كان آخر مَنْ رآه يتّجه إلى تلك المنطقة جلال مَلَك، فقد تصادف نزوله من سيَّارة الدائرة عند سوبرماركت الكوخ، وكان في نيّته شراء بعض الأغراض. رآه جلال يختفي مع عربته خلف جدار المدرسة، وكان ذلك آخر عهد لشارع الدير بجواد. إذ لم يرجع ذلك المساء إلى البيت. عصافير أشجار الزيتون لن تسمع ضوضاء عجلات عربته، ستفتقدُها ربمّا إلى الأبد، والوجه الأسمر المدوّر لن تلمحه جميلة، ولا نور، ولا نغم، ولا أيّ من النساء اللواتي اعتدنَ عليه وهو يتعرّق بسبب سمنه، في أثناء ما كان ينقل أكياس النفايات أو قطع الأثاث أو قناني المياه المعقّمة.

الشخص الوحيد الذي انتبه لغيابه هي أمّه.

توارت الشمس خلف الدير، وتسلّلت العَتَمَة إلى غرف الشَّقَّة وزواياها، وتحوّلت الدقائق إلى سَيل جارف من القلق، تنتظر خطواته على الدرج دون جدوى. تدخل المطبخ، تُحدِّق في خزائن الطعام والمواعين المغسولة المنشورة على المجلى، تعود إلى الصالة الصغيرة، تزيح الستارة عن الشّبّاك المُغلَق، ثمّ تُحدِّق إلى ساحة الدير، يطول الصمت بينها وبين ابنها الصغير المشغول بلعبة قديمة أمام شاشة التلفزيون المُطفَأ، وفي الساعة التاسعة مساء، لم تعد تحتمل الانتظار. سحبت ابنها الصغير وراءها، وبدأت بالسؤال عن جواد. لم يعتد التّأخّر حتّى هذه الساعة، فهو استيقظ منذ السابعة صباحاً، ولم يأتِ لتناوُل الغداء. هي تعرف أن معنى ذلك تناوله وجبة في أحد البيوت، لكنه مُتعَب ونعسان، وتأخّره مثار ريبة وقلق. وعد أخاه الصغير بجَلْب طائرة، تشتغل بالريموت كونترول، سعرها كما قال، لا يتجاوز الثلاثة آلاف دينار. انتظره أخوه على نار. تمشي وتحاور نفسها. الساعة التاسعة ليلاً. ليست من عاداته.

أوّل ما ابتدأت بحثها وسؤالها ببيت جلال مَلَك.

وجدتْهُ جالساً في الحديقة، يحتسي كأساً من البيرة، كانت موضوعة على حافّة شبّاك المطبخ. وكانت هناك أضواء حليبية تنبعث من الداخل، تُوحي بوجود نفق، يمتدّ عميقاً بين الصخور، وكانت هناك التصافات تسيل على جسد المُبرِّدة، رسمها الماء المنساب من الليف، وظلال للحاضرين ترتسم على الجدار. الولدان في الحديقة ونور تجلس جنبه على كرسي من البلاستيك.

قالت لهما جواد لم يرجع إلى البيت لحدّ الآن.

أخبرها جلال أنه لمحه في حوالي الثالثة والنصف متّجهاً بعربته إلى منطقة المعامرة، خلف المدرسة.

ربمّا انشغل باللعب مع الأولاد هناك، طمأنتْها نور.

لكنها لم تطمئنّ، فهي لم تعتدْ على غيابه بعد التاسعة، خاصّة وأن الوضع في بغداد لا يدعو إلى الطمأنينة. خَطْف وقَتْل وتفجيرات واغتيالات. وحين غادرت فتحة الباب بعباءتها السوداء ساحبة وَلَدها جنبها، لم يكن وجهها ينمّ عن أيّة قناعة في ما قيل. أخيراً رافقتْها جميلة بعد أن أغلقت دكّانها، واتّجهتا إلى الشارع، فبدأتا بالسؤال من بيت إقبال وعادل. أكّدا أنهما لم يرياه منذ أن أنجز نقل الأثاث، وتبرّع عادل بمرافقتهما.

اتّجهوا جميعاً نحو سوبرماركت الكوخ. سأل عادل الصبيّ الواقف في المحلّ، فأخبره أنه رآه في وقت العصر يتّجه إلى منطقة المعامرة. وهكذا اتّجهوا إلى هناك. مرّوا بمدرسة ابن سعد، ثمّ اجتازوا الفسحة الواسعة خلف سياج المدرسة، وكانت مغطّاة بالشوك والعاقول والنفايات، تحيطها من الجهات كلّها بيوت واطئة سيِّئة التصاميم، وهي التي يُطلق عليها اسم المعامرة. وكانت الأمّ تتلفّت يميناً وشمالاً، وكأنها تستعجل رؤية جواد يبزغ من شارع ما، أو ينبعث من غيضة صغيرة في زاوية. كما جاءها هاجس

غامض أنها ربّما تعثر عليه مقتولاً، ولكنها دفعت هذا الهاجس بعيداً عن كيانها. هاجس بشع، كلّما برق في رأسها، يملؤها بالرعب.

وكان عادل لا يكفّ عن الحديث المطمئن، يريد منه إدخال الصبر والأمل إلى قلب أمّه، يقول إنه يلعب مع أولاد المنطقة لعبة كرة القَدَم، وسينتبه للوقت، وقد نلتقيه بعد دقائق، لا تقلقي، يوجّه الحديث لأمّه وهو يمتصّ سيجارته الفايس روي بعنف. يقول لها: كان من المفروض أن تشتري له تلفوناً، حيث يمكنك الاتّصال به في أيّة لحظة. التلفون اليوم عنوان متحرّك، الناس تتّصل من أميركا واليابان وباريس، للتّحدّث مع قريب أو صديق في شارع الدير. التلفون ألغى الحدود بين الدول. كنّا محرومين منه حتّى جاء الأميركان، وأدخلوه إلينا. وتردّ عليه أمّه بالقول وهي تخنق دموعها: من الغد، سأشتري له واحداً.

أنا متأكّدة أننا سنجده في البيت حين نعود، أين يذهب؟ تتساءل جميلة وهي تستعجل الوصول إلى بداية حَيّ المعامرة.

في مدخل الشارع، وعند الزاوية القريبة من الفسحة البرّيّة، رأوا عربة جواد. كانت مركونة بإهمال على الرصيف، وجواد لم يكن هناك. العربة فارغة ووحيدة مثل هيكل بشري. العربة عارية. إنها حزينة، فكّرت الأمّ، فهي من دون جواد. طرقوا باب أقرب بيت إلى العربة، فخرج عليهم رجل كهل، لم يفهم القصد من سؤالهم. قالوا له أين صاحب العربة، فلم يفهم ماذا يريدون، قال لهم وكيف يعرف مَنْ هو صاحب العربة، ولمَ تركها هنا، لم أكنْ في سجن بوكا، ولا في سجن (أبو غريب)، كنت نائب ضابط في الحرس الجمهوري. وبشَعْره المنكوش، وملامحه الصلدة وقف يُحدِّق بهم، كما لو أنهم البشر الوحيدون على هذه الأرض.

ولكي يُبسّط عليه عادل القضية، أخبره أن صاحب العربة اسمه جواد،

شابّ في الخامسة عشرة من عمره تقريباً، أسمر، ممتلئ الجسد، ذو عينَيْن عسليَّتَيْن، ويشتغل بنقل طلبات الزبائن، وتوصيل الأغراض، بواسطة هذه العربة، وهو ابن هذه المرأة، وأشار إلى أمّه. جواد اختفى، لم يعد إلى البيت، وهم يبحثون عنه، وجدوا عربته، لكنه هو غير موجود. وسأله ببطء وصوت عالٍ: هل رأيتَهُ؟ اعتقد عادل أن الرجل أصمّ، أو متخلّف عقلياً، فعيناه لا تستقرّان على الوجوه، وفي ملامحه ذعر غير مفهوم.

قال الرجل: كلا، ولا أعرف جواد، ولم أرَهُ في حياتي، اهربوا، الأميركان قادمون، بعد قليل، ستبدأ المواجهات بين الطَّرَفَيْن، رأيتُ الراجمات تتأهّب، والمدافع تُدقِّق تصويبها، والآر بي جي معبّأة بالصواريخ، وجاهزة للانطلاق، ثمّ أغلق الباب بعد لحظة من الذهول، توقّف خلالها نهائياً عن الكلام.

لقد أفرزت الحروب المتعاقبة، منذ الحرب العراقية الإيرانية وحتّى اليوم، هوامشها، وثمارها الفجّة التي لم تُعرَف قبل ذلك في أيّ من السنين، فثمّة المعوقون ممّنْ قُطِّعت أطرافهم نتيجة انفجار قنبلة أو شظية طائشة خلف السواتر الترابية، وأصبحت لهم مؤسّسة خاصّة، تتكفّل باستيراد الأطراف الصناعية وتركيبها، فتحت لها فروعاً في أغلب المستشفيات، وثمّة قطيع هائل من الأيتام الذين فَقَدُوا آباءهم، وامتهنوا خلال عقود من الحروب بيع البضائع التافهة في تقاطعات الشوارع، ومسح زجاج السَّيَّارات، أو جمع الحاجات القديمة من المزابل، ليُعاد تصنيعها في معامل أهلية، أشهرها معامل البلاستيك. وهناك آلاف ممّنْ فَقَدُوا متعة العيش، وتحوّلوا إلى مُدمني كحول، هجروا بيوتهم، وأخذوا يعيشون في الشوارع، ينامون في البنايات المهجورة وقرب الجسور، وفي الأزقّة المُهمّلة، تفوح منهم رائحة الكحول نهاراً وليلا، ويستدلّ عليهم المرءُ من الرائحة المنتشرة حولهم بقطر عشرات الأمتار. ويأتي في مركز الهوامش تلك، هوامش الرعب والأسْر

والموت والتّشوّه والهروب من المعسكرات والجبهات، مجانين ثلاثين سنة، أذهبت غيلان الحروب عقولهم، وحوّلتْهم إلى مشرّدين.

إنه واحد منهم، فكّر عادل الواقف خاشعاً بمواجهة العربة اليتيمة، لقد شاهد عدداً منهم في المعسكرات التي سُجنوا فيها، المجانين الذين فَقَدُوا الصلة بالواقع بعد أن عجزت عقولهم عن تقبّل ما يجري لهم، لحاهم المنكوشة، أسنانهم الصدئة، عيونهم السود المتوهّجة السابحة في عالم دخاني آخر، ارتجافات شفاههم وهي تتلمّس الكلمات قبل إطلاقها. شاهد منهم الكثير تحت جسور بغداد، وفي كراجاتها، وعند المباني المهدّمة التي تُركت في الشوارع مثل ندوب، تروي سيرة الحروب المتعاقبة التي عاشها البلد. كانت أعدادهم في تصاعد منذ الحرب العراقية الإيرانية وحتّى اليوم، وقيل إن قسماً لا يُستهان به منهم، تمّت تصفيته ليلاً من قِبَل حركات مجهولة، ما إن انهارت الدولة بعد سقوط العاصمة. هم الجثث المجهولة الهوية التي تجمعها الشرطة صباح كلّ يوم، وتنقلها بسيَّاراتهم الزرقاء المكشوفة إلى المشرحة.

***

دفع عادل العربة أمامه، وعادوا من الطريق ذاتها.

لقد اختُطف، فكّر عادل مع نفسه، لكنْ، لماذا؟ عائلته ليست غنيّة، كي يطلب الخاطفون فدية، ولا هو ابن مسؤول أو ضابط أمن، لكي يكون الاختطاف انتقاماً من الأب.

سيأتي بعد لحظات، قالت جميلة لأمّه، وكانت تُنهنه بدموع صامتة، وهي تسحب ابنها الصغير جنبها. عودي إلى البيت، وسيأتي، أنا متأكّدة من ذلك.

لكن جواد لم يأتِ ذلك المساء. ولا في المساء الذي تلاه، ولا في أيّ من المساءات الخريفية التي مرَّت على اختفائه. أصبح لُغزاً مضافاً إلى ألغاز شارع الدير، ومنطقة الدَّوْرَة، وربمّا ألغاز العاصمة بغداد كلّها. لكنْ، مَنْ يأبه لذلك؟!

***

تجمّع في الليلة ذاتها عدد من أهالي الشارع أمام باب البناية التي تسكنها أمّ جواد، بينهم جلال مَلَك وأبو نغم وعادل ونهاد السائق، وكانت النسوة في الأعلى يُواسينَ أمّ جواد، وقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة. ثمّة قناعة عامّة مُضمَرَة لدى الجميع أن جواد خُطف، لكنْ، لم يجرؤ أحد على التصريح بها.

في الأعلى، كانت أمّ جواد تلبس عباءة بيضاء، تلفّ بها جسدها، ورأسها، محاطة بعدد من جيرانها، من بينهنّ جميلة ونور وسعاد زوجة رياض وحتّى نغم الطالبة في الكُلّيّة، وهي تصفق يداً بيد، وتُحدِّق في الجدار المقابل بعينَيْن فارغَتَيْن، وتتخيّل وجه جواد مُدمّى في زقاق مُهمَل أو بناية مُهدَّمة أو مصرف مياه في منطقة من مناطق بغداد. وحين تتجلّى الصورة على هذه الشاكلة، يستعصي عليها سحب الهواء. تبدأ تعابيرها بالبهوت. تميل إلى الأمام، لتسقط على وجهها، وتُبادر النساء المحيطات بها إلى إرجاعها إلى الخلف، وجلب الماء لها، ومسح وجهها بقطرات باردة، كي تستعيدَ وعيها.

الشَّقَّة صغيرة، تتكوّن من صالة كبيرة مليئة بالأثاث، وهناك شبَّاك يُفترَض أن يطلّ على ساحة الدير، لكنه مُغلَق، وآخر يطلّ على الشارع، وُضعت عليه ستارة بيضاء خفيفة، وعند نهاية الصالة، ينتصب المطبخ، وليس بعيداً عن ذلك الحمّام والتواليت. الشَّقَّة مُرتَّبة، ونظيفة، كما

تهامست النسوة بذلك، وتشعّ من جدرانها سكينة، تستولي على القلوب. وتحت التلفزيون المُطفَأ، المغطّى بنسيج مخرّم أبيض اللون، طار جواد ذات مرَّة فوق بغداد الشاسعة، المريضة، على بساط الريح، حالماً بنهاية سعيدة لحياته.

- اختُطف بالتأكيد، كرّر عادل هواجسه بصوت عالٍ هذه المرّة لجاره جلال مَلَك، لكنني أخشى من شيء واحد.

- ما هو؟ سأله جلال مَلَك وهما يقفان جنب عربة جواد، أمام باب البناية، وقمر ساطع يرتفع فوق نخلة (أبو هند)، ويرين هدوء عميق على بيوت الشارع.

- أخشى أن تكون عصابة من عصابات تجارة الأعضاء البشرية. هم اليوم يعملون في معظم أماكن بغداد، في البتّاويّيْن وحي العامل والدَّوْرَة والزعفرانية، بل حتّى إنهم قبضوا قبل فترة على عصابة، تشتغل في الموصل. تخيّل أين وصل بنا الحال، يا جلال. المتاجرة بالأعضاء البشرية. يقال إن الكلى هي المفضّلة، لأن زراعتها في مستشفيات بغداد سهلة، أمّا القلوب والعيون والأطراف والأعضاء الأخرى، فهي لا يمكن التعامل معها هنا، لكنْ، هناك عصابات تُهرّبها إلى الأردن وإيران وسوريا، وبعض دول الخليج، عبر الطريق البرّيّ بين البصرة والكويت، ويجنون مبالغ طائلة. كنّا نسمع قبل الحرب العراقية الإيرانية عن أشخاص يبيعون دمهم إلى المستشفيات، وكان لديّ صديق هو زبون دائم لمستشفى اليرموك، يبيع كلّ أسبوع أو أسبوعَيْن قنّينة من الدم. كان وجهه أصفر دائماً، وفي اليوم الذي يتبرّع فيه بالدم يتناول معلاقاً كاملاً من معاليق الغنم، خاصّة الكبدة، مع كيلو من الليمون يستردّ فيه عافيته. أمّا بيع الأعضاء البشرية، فشيء لم يفدْ إلا مع الاحتلال الأميركي، وانفلات الوضع، وسيطرة الميليشيات والإرهاب والعصابات.

جلال يُحدِّق فيه بذهول، مطحنة الكلام هذا.

- ماكو حكومة. تطوّرت قضية تجارة الأعضاء إلى ولادة عصابات، تقوم بخطف المشرّدين والمجانين والمعوقين والأطفال وسرقة أعضائهم. يفتحون أجسادهم في بيوت سرّيّة، عبر أطبّاء أو ممرّضين متواطئين معهم، ثمّ يقتطعون الأعضاء التي تهمّهم، ثمّ يخيطون الجرح، ويرمون الجسد إلى أقرب مزبلة. تخيّل ذلك. الغشّ فنون في بلدنا. سمعتُ عشرات القصص عن سرقة أعضاء من مرضى، يتعالجون في المستشفيات أيضاً. تذهب لكي تجري عملية الزائدة الدودية، فتخرج من دون كليتِكَ. هل تتخيّل إلى أين وصلتْ بنا الحال؟

وكان جلال يسمع، ولا يكاد يُصدِّق، وعادل يستمتع بقَصِّ الحكايات عليه، وبين حين وآخر، يقول له فجأة:

- أفضل ما تقوم به هو مغادرة هذا البلد، طِرْ أخويه جلال طِرْ، حلِّقْ في الفضاء مثل العصافير، أَنقِذْ أولادَكَ وزوجتَكَ، هل تدري كم عائلة نُكبَت في تفجير جامع النور؟ عشرات، وهذا تفجير صغير، كيف بالتفجيرات الضخمة التي تنكب مئات العوائل؟ هذا البلد ملعون، انظرْ إلى التاريخ، حرب الأكراد، حرب إيران، حرب الكويت، قبل ذلك مذبحة الحَرَس القومي، وقبلها مذبحة العائلة المالكة في قصر الرحاب، وقبلها، وقبلها كيف تعاقب العثمانيون والصفويون على احتلال البلد، وحوّلوه إلى إسطبل لخيولهم، طِرْ أخويه جلال طِرْ، وهاجرْ مثل الإوز البرّيّ إلى مكان ناء، أستراليا، كندا، القطب الشمالي، لا تلتفت إلى الخلف.

ورغم أن جلال مَلَك لم يشرْ يوماً إلى أنه سيغادر البلد، لكنه استنتاج عادل وحده، فالأسرار لها رائحة، هذا ما كان يؤمن به جلال دائماً. وفكرة مغادرة البلد كانت قد رجحت على خياراته كلّها. السَّكَن في البلدة غير معقول، لأن عمله في بغداد يعيق حركته، والرحيل إلى أربيل غير

مضمون العواقب. العمل في دار النشر تلك، قد لا يستمرّ طويلاً، وهو يعرف فوضى الأعمال والمؤسّسات، والارتجالية التي تسير بها، خاصّة وهي تعتمد، بعض الأوقات، على مزاج شخص واحد، هو المدير أو مالك المؤسّسة.

كان جلال يفكّر بذلك كلّه، وهو يقف في وسط شارع الدير مع عادل.

اقترب الوقت من منتصف الليل، وعاد الجميع إلى بيوتهم.

***

لنهارات عديدة، ظلّ بيت أمّ جواد قبلة للنساء، والأمل برجوع جواد راح يتضاءل يوماً بعد آخر.

لم تحتمل أمّه فقدان جواد بهذه الطريقة، وظلّت عربته مركونة في الأسفل طَوالَ أسبوع كامل، وكأنها تنتظر عودته. لم تعد الأمّ تحتمل البقاء أكثر في الشَّقَّة، والشارع، فرحلت ذات يوم بسيَّارة حمل من نوع كيا هي وطفلها الصغير مع أثاثها، دون أن تُودِّع أحداً من سكّان شارع الدير. كما تركت عربة جواد في مكانها، وكأنها رمز للعذاب، يُذكّر أهل الشارع بمأساته.

فعلاً، قضى اختفاء جواد المُفاجِئ على آخر ما يمتلكه جلال من أمل في إعادة السكينة إلى نفسه. دائرة حياته في شارع الدير تمّ غَلْقها، سيصبح الجميع مُجرَّد ذكرى، جميلة، سَعَف النخيل المتهدّل في فضاء الشارع، رائحة الأترج، صوت المؤذّن الشّجيّ في نهايات الليالي، ليالي السهر والقلق والخوف، رائحة الخبز، واجهات الأبواب المغسولة في الصباحات، الفاختات وهي تهدل بين أغصان شجرة الزيتون، لحية عادل الطويلة البيضاء المسكونة برائحة المستكي ودخان السجائر، أمّ رياض، نهاد، صوت مُولِّد

الكهرباء وهو يزيل وتيرة الصمت في سماء الشارع، ذلك كلّه سيتحوّل إلى ذاكرة بعيدة، شاحبة، لشارع يتيم، يسبح في غموضه المخيف.

قبل أشهر فقط، عاش قصّة اختطاف مرعبة. يتذكّر الآن ذلك النهار جيِّداً.

كان صباح يوم جمعة عادياً، وغالباً ما يكون الشارع الرئيس، شارع الميكانيك، مزدحماً، إذ تقضي الناس أشغالها مبكّراً، وتستعدّ لصلاة الجمعة وملحقاتها كالتنظيف والطبخ وغسل الملابس، وكان برفقة سامي، ابنه الكبير، مرّا من أمام بيت عادل، ثمّ عند نهاية شارع الدير، انعطفا يساراً نحو شارع الميكانيك، ووجدا الضجيج والزحمة على أشدّهما. أوقات مثل تلك تُشعر جلال بالإثارة، وتأتي إثارته من أنه يرى حركة الشارع، ويخوض فيها كأيّ فرد من مجموع، يهتمّ بتفاصيل الحياة اليومية، ويبتعد بعض الشيء عن هواجسه السوداء، وتداعيات ذهنه المنفلتة التي تقوده دائماً إلى اليأس، وتُوشوش له بفكرة الرحيل.

وكانت نور في منتهى السرور لسامي، فهو يرافق أباه إلى السوق، وينضج قليلاً قليلاً، للوصول إلى عتبة المراهقة، وتحمّل المسؤولية، خاصّة حين طلب منه جلال مرافقته للتّبضّع ومساعدته في حمل الأغراض. منذ فترة وهو يتشكّى من معاملته كطفل مثل رامي. صحيح أنه يخاف وحشة الغرف العلوية، ويخشى النوم بعيداً عن أمّه، ويتخيّل مخلوقات الظلام حين يُطفَأ الضوء وهي تهجم على جسده، ويلعب في الحديقة مع رامي ألعابا خيالية، تمتّ إلى الطفولة أكثر ممّا تمتّ إلى المراهقة، لكنه يشعر بالنضج المتدرّج الذي يغزو جسده يوماً بعد آخر. أكثر ما يدخل الفرح في قلبه حين يُمسك جلال يده، ويمشيان جنباً إلى جنب، يحسّ عندها بأمان فائق، وكأن تلك اليد الضخمة تحميه من مفاجآت الشارع وقسوته وأحداثه غير المتوقّعة.

وَقَفَا عند بائع الفواكه والخضار، أفلت جلالُ يدَ سامي، وبدأ ينتقي من العنب والموز والتمر، ودسّ باقات من البقدونس والفجل والنعناع في كيس آخر، وسط تدافع النساء والرجال الواقفين حول أقفاص الفاكهة المعروضة، بعد ساعات سيخلو الشارع من المارّة، وتغلق معظم المتاجر أبوابها، سينتهي المهرجان قبل أن تبدأ الصلاة، وستحضر النسوة غداء الجمعة الذي تنتظره العائلات كلّها بنشوة ومتعة. وكان جلال قد أنهى دَفْع الحساب، ثمّ التفتَ باحثاً عن سامي، كي يتقاسمَ الأكياس معه، ولدهشته، لم يرَ وجه ابنه، ظنّ أنه مشى خطوات باتّجاه سوق الكَرَّادَة، فخطى متعجّلاً في ذلك الاتّجاه، لكنه حاذى الباب، ولم يلمح جسد سامي، وتحوّلت الدهشة إلى ارتباك، فوقف على الرصيف مديراً عينَيْه بالأمكنة جميعاً، لا يمكن، فكّر مشوّش الذهن بالاختطاف، وهو يقف حائراً لا يعرف بالضبط ما الذي ينبغي عمله في مثل هذه اللحظة.

- هل رأيتَ صبياً صغيراً بعُمر اثنَتَي عشرة سنة؟ ابني سامي.

بدأ يسأل المارّة بوجه شاحب وعينَيْن شابحَتَيْن متوسّلَتَيْن بالوجوه، كان معي هنا، ثمّ اختفى فجأة، وقف شخص أو شخصان يسمعان ما يهذي به، لكنْ، لا أحد أجابه، يهزّون رؤوسهم بعجب، ثمّ يمضون، عاد إلى تجمّع الزبائن حول بائع الفواكه، لكنه لم يلمح أيّ أثر لسامي. ذهنه أصابه الشَّلَل، وحواسّه تعطّلت من الرعب، وأوّل خاطرة وفدت إلى رأسه هي أن سامي قد خُطف. رجلاه راحتا ترتجفان، وعيناه تتأمّلان في الوجوه، وتتابعان سيل السَّيَّارات تبحثان عن وجه سامي في واحدة منهنّ. تمرّ سيَّارات الكيا المكتظّة، ولا يلمح بين راكبيها وجه سامي. تمرّ سيَّارات التاكسي فارغة. يمضي المتسوّقون إلى بيوتهم، من دون ابنه الضئيل الحجم. ترك المشتريات قرب البائع، وركض بقلب متسارع الدّقّات إلى الطريق الذي جاؤوا منه، مسح الطريق حتّى ساحة ابن سعد، لكنه لم يعثر على سامي.

عاد إلى شارع الميكانيك لسؤال المارّة دون جدوى، خُطف، أكيد خُطف سامي. جلجلة مُولِّد الكهرباء الصاخبة، وسرعة مروق السَّيَّارات في الشارع، وفوضى خطوات البشر، وهم يجولون على المحلّات، وأشعّة الشمس التي راحت تسخن بثبات، والأصوات المشوّشة في داخله، ذلك كلّه حوّله إلى شخص مشلول، لم يعد قادراً على التفكير بوضوح، ولم يلبث أن وقف مثل عمود متأمّلاً في ما عليه أن يتصرّف، فيما عليه أن يتّخذ من خطوة تالية.

وفي لحظة صحو خاطفة، في استراحة بين موجَتَيْن من الرعب، مال عقله إلى احتمال آخر غير الاحتمالات كلّها التي وردت إلى خاطره، هل يُعقَل أن يكون سامي قد عاد إلى البيت؟ كان هذا هو الأمل الضئيل المتبقّي له، الأمل الذي بثّ في ساقَيْه شجاعة جديدة، دفعتْهُ للمضي إلى نهاية الشارع، مجتازاً فرن الصَّمُّون، ونوفوتيه جميلة، ومحلّ سعد الحلّاق، ثمّ منعطفاً إلى الزقاق الضَّيِّق الذي يقود إلى شارع الدير. هذا ما كان يخشاه، أن يتمّ اختطاف سامي، ومن بين يَدَيْه، وهو استنتاج مرعب، لا يريد المضي به، وها هو يتشبّث مثل غريق بالأمل الأخير. هذا هو الأمل الذي دفعه للهرولة متّجهاً إلى بيته.

حين فتح الباب الأسود، وأطلّ على الحديقة، كاد أن يقع من الفرح، وجد سامي ورامي يلعبان في الحديقة، لم يتمالك روحه، فجلس مُنهارَاً تحت ظلّ شجرة الزيتون، وهو يردّد في وجه سامي: لماذا؟ لماذا؟ وسامي ينظر إليه، ويبتسم، إذ لم يدرك حجم الرعب الذي أشعله في قلب جلال.

***

كلا، لن ينسى ذلك النهار، وراح يتخيّل حجم الرعب الذي تعيشه أمّ جواد، وقد اقتنعت بحقيقة أن جواد قد اختُطف، وأنه في طريق لن يعود منه.

أيّ السيناريوهات حِيكَت لجواد؟

راح جلال يسأل روحه في أثناء ما كان بصره يتمدّد خارج الشّبّاك، مثل لسان غير مَرئي، راصداً بمشاعر حلمية تلك النجوم المليونية المتلامعة في السماء. تلك المجرّات المُكتَشَفَة وغير المُكتَشَفَة، وهي تشي بضآلة الكائن البشري على هذه الأرض. لا بدّ أن الأمر حدث هكذا. عند منطقة المعامرة رصداه وهو يجلس قرب بيت يقع على حافّة الفسحة، يجلس حالماً بذلك البساط الطائر الذي سيمتطيه ويطير فوق بغداد، اقتربا منه بسيَّارة التاكسي التي يستقلانها، نزل اثنان من السَّيَّارة، وبقي السائق متأهّباً، ناديا عليه، كما لو كانا يرومان سؤاله عن أمر ما، راسمَيْن تعابير الطِّيبة والأُلفة على شَفَتَيْهما، وبطيبته المجبول عليها، وسذاجته، وجهله فيما يجري في شؤون البلاد، اقترب منهما، وانتظر السؤال، وعيناه تشعّان بالفرح، سيُقدِّم خدمة لأشخاص، ضلّوا طريقهم أو يجهلون عنوان بيت، جاءا إليه لأمر طارئ.

كان مستسلماً مطمئنّاً، إلا أنه فُوجِئ برجل منهما، ينقضّ عليه، ويزرقه بإبرة، بجهاز ما يجهل نوعه، وإن هي إلا ثوانٍ، لم يلحق خلالها بفَتْح فمه لطَلَب النجدة حتّى غاب عن الوجود. وضعاه بلمح البصر في الحوض الخلفي، ثمّ جلس واحد منهما جنبه، فيما جلس الثاني جنب السائق، لقد أنجزا المُهمّة بنجاح، انعطفا من أمام باب المدرسة، ثمّ توجّها إلى شارع الميكانيك، صعدا نحو قلب المدينة.

بقي جواد نائماً، مفعول المخدِّر أكبر من أن يظلّ محتفظاً بوعيه، هكذا تجري الأمور، كما فكّر جلال.

المنظر لن يوحي بالريبة، ثلاثة رجال في سيَّارة تاكسي، وشابّ صغير ينام بطمأنينة، وهكذا اجتازوا السيطرات المنتشرة بين الدَّوْرَة والجسر ذي الطابقَيْن، ومن هناك، مرّوا بساحة الحُرِّيَّة، وحدَّقا إلى مطاعم ومثلّجات

الفقمة، ثمّ انعطفوا بعد كيلومترَيْن إلى الكَرَّادَة، وحولهم الحياة تمضي كما تمضي كلّ يوم، واجتازوا المسرح الوطني، وشاهدوا، بعيون ناعسة وكسولة، نصب كهرمانة، وهي تصبّ الزيت في الجِرَار، ودّعوا نصب كهرمانة، ودخلوا في شارع السعدون، وقبل بلوغ ساحة التحرير، انعطفوا نحو اليمين في إحدى أزقّة البتاويّيْن.

هذا هو المكان الذي قال عنه عادل إنه أصبح مركزاً لتجارة الأعضاء البشرية.

ماذا تظنّون قد حدث هناك؟

جلال يُلاحِق الجناة بعين دقيقة، مترصّدة، دون أن يكتشفه أحد، كما لو كان يلبس طاقية الإخفاء في حكايات ألف ليلة وليلة. الزقاق مُعتِم، فهم تعمّدوا الوصول عند الغروب، حيث الكهرباء الوطنية ميّتة، ومثل معظم البيوت المتهالكة تلك لم يكن أيّ من القاطنين يمتلك اشتراكاً بكهرباء المُولِّد المحلّي، كانت الأبواب نصف مُغلَقة، وثمّة نساء يتوارينَ في العَتَمَات مثل أشباح، فالبتّاويّيْن مثلما هي مكان لتجارة الأعضاء البشرية هي أيضاً مكان للدعارة، وبيع الحشيشة، وتزوير العملة الوطنية والأجنبية، ومأوى مثالي للمجرمين. وعند باب مُعتِم مثل فم أدرد، نزل الثلاثة، ونقلوا جواد إلى الداخل، خرج شخص واحد فقط، قاد السَّيَّارة إلى جهة مجهولة، بعدها أطبق الباب على طبابة الرعب.

يلاحقهم جلال بخياله المنفلت، فيقع عليهم وهم يجتازون الصالون المضاء بفانوس نفطي، وتمتدّ على طول جدرانه أرائك ذات رائحة عفنة، تفترشها نساء غير واضحات الملامح، إلا أن ما هو مؤكّد أنهنّ لا ينتمينَ إلى أسرة مثل الأُسر البغدادية كلّها، بل ينتمينَ إلى طائفة موبوءة، غامضة، موجودة، لكن الجميع يتحاشاها، ألا وهي طائفة البغايا.

الرجال مع جواد يجتازون الصالون عبر باب خشبي، وُضعت عليه ستارة

سميكة، كانت ذات يوم منسوجة بالرسوم والخيوط الملوّنة دون أن يعيروا أيّ اهتمام للجالسات، وهنّ أيضاً لم يبادلنَهم أيّ كلام، وراء تلك الستارة تقبع ورشة الأعضاء البشرية، أو كما يُسمّيها القاطنون، ورشة الجراحة. مدّد جواد على أريكة طبّيّة ملوّثة بالدم. تحت مصباح ساطع، ولأن الكهرباء سواء الوطنية أو المُولِّد المحلّي غير فاعلين خمّن جلال أن الضوء مصدره مصباح شحن شاع في السنة الأخيرة في محلات بغداد ومتاجرها، يشحن خلال وجود الكهرباء، ثمّ يلبّي الحاجة للإضاءة لمدّة ساعة كاملة. زُرق مرَّة أخرى بمخدّر إضافي، لتفادي الاستيقاظ المُفاجِئ، ولتفادي الصراخ غير البشري الذي سينطلق لا محالة فيما لو فاق جواد في أثناء العملية، كما فكّر جلال، وبدأ رجل مختصّ يشبه الجزّار عمله المحترف. الطبيب الجزّار، وربمّا الممرّض الجزار، صاحب الخبرة المكتسَبَة في العقد الأخير حين سارت الحياة في هذا البلد نحو مفازة غير مسبوقة من الفوضى.

لا صوت في تلك الغرفة المُغلَقة، ليس هناك سوى الروائح الكريهة، المتجمّعة منذ سنوات ربمّا على سطوح الجدران العتيقة، وفي زوايا الخشب، وتحت الورق البلاستيكي الشّفّاف، الذي يبدّل بين حين وآخر. بين عملية وأخرى. الرجل البارع شمّر عن ساعدَيْه، وأزاح العَرَقَ المتجمّع على وجهه، فليس هناك مِروحة في الغرفة، ووقف الرجلان حول الأريكة، يتأمّلان في يَدَيْه البيضاوَيْن، بسبب ارتدائه قفّازَيْن شفّافَيْن، ويلمح تحت الأريكة الطّبّيّة سطلاً من البلاستيك مليئاً بالثلج، وهو الوعاء الذي ستُوضَع فيه الكلى أو القلب أو العيون، أو ما يجد الطبيب الجرّار من أعضاء مفيدة في الجسد الطازج المليء بالقُوَّة.

هناك احتمالان، لا ثالث لهما، سينتهي إليهما جسد جواد بعد نزع ما يجلب الربح من الأعضاء، الأوّل أنه سيلفّ مثل قطعة إسفنج، ويُوضَع في كيس بلاستيكي ضخم، ويُحمَل في سيَّارة التاكسي ذاته، ثمّ يسافر مع

الرجلَيْن أو الثلاثة نحو المناطق النائية المحيطة بالعاصمة، ليُلقى في مكبّ شاسع المساحة للنفايات، حيث ستنقضّ الغربان والثعالب والجراذين عليه خلال ساعات النهار، مستنفرّة برائحة الدماء والأنسجة الرخوة الطازجة، ولن تغيبَ عنه الشمس حتّى يتحوّل إلى هيكل عظمي مجهول الهوية. أو يلفّ الجسد مثلما السابق، لينتهي في بناية قديمة مهدّمة على أطراف المناطق العشوائية أو على تخوم الأرياف، وهي مناطق اشتهرت بأنها تذبح الحمير، وتفرم لحومها، لكي تُباع لاحقاً في أسواق الشورجة، وحَيّ المُعلِّمين، والفضل، وعند لحّامي الحيدرخانة القريبة من شارع المتنبّي المختصّ ببيع الكُتُب.

لكنْ، ما الذي يفعله جسد جواد هناك؟ وهنا أحسّ جلال بالرعب، وهو يتخيّل نهاية هذا السيناريو، هل يعقل أن يقوم أحد بفَرْم جسد إنسان، وخلطه باللحوم المُعَدّة للاستهلاك البشري؟ لحم حمار مُطعَّم بلحم بشر، لا، لا يمكن تخيّل ذلك، رغم أن البلد أنتج أعداداً لا يُستهان بها في العقود الأخيرة من الوحوش البشرية. وتلك حقيقة لا يمكن له تجاهلها حتّى لو رسا إلى هذا السيناريو الذي لا يُصدَّق.

ربط هذا السناريو المرعب بفكرة أكثر غرابة وشذوذاً، فعاد إلى ذلك النهار البعيد حين فرّ سامي من بين يَدَيْه، وظنّه قد اختُطف، وشعر بالتّقزّز، ما إن راودتْهُ فكرة وضع جسد سامي بدلاً من جسد جواد. وبعد استراحة فكرية قصيرة، عاد خيال جلال، ليتابع السيناريو الثاني المبتكَر من روحه الخائفة، المرعوبة، الشَّاذَّة، بعد أن بَلْوَرَتْها شهور الرعب القاسية التي مرَّت بشارع الدير، وربطتْهُ إلى مسارات تلك الرصاصة التي دُسَّتْ قبل أيّام بعيدة في سيَّارته.

***

في هذا البلد لا يمكن استبعاد أيّ حدث، مهما بدا بشعاً للإنسان السّويّ، لهذا لا يستغرب المرء، فكّر جلال، في أن ما جرى لجواد أخذ هيئة السيناريو الذي صار يتخيّله بوضوح. القسم الأوّل من السيناريو السابق ظلّ نفسه، والاختلاف جاء في مرحلة لاحقة، إذ بدلاً من الذهاب إلى منطقة البتّاويّيْن، ودخول بيت الرعب ذاك، يمضي الرجال بسيَّارتهم إلى منطقة أخرى، وحين فكّر بأسماء مثل السيدية، الأعظمية، الكاظم، الفضل، منطقة كسرة وعطش، بغداد الجديدة، حَيّ القاهرة، الدَّوْرَة، وغيرها من الأمكنة، الأليفة، لم يستبعد أيّ منطقة، فالسنوات السابقة جعلتْهُ يصل إلى قناعة هي أن الجميع يمكن أن يُقدِم على القتل، تحت يافطة مقبولة، وذرائع مسوّغة، وحجج فيها كثير من المنطق.

سيكون البيت هذه المرّة أكثر أناقة من بيت البتّاويّيْن، وربمّا تقطن فيه أسرة ما للتمويه، هناك في الحديقة الخلفية، سيُزرق جواد بالمخدّر ذاته، ولكنْ، بدلاً من نَزْع أحشائه المفيدة، يتمّ تفخيخه بأستذة، ودراية، ودقّة، يلفّ على بطنه الحزام الناسف الذي يربط به جهاز الموبايل، المُعَدّ للتفجير، في النهار سيُوضَع في سيَّارة عتيقة، ويرافقه الرجلان ذاتَيْهما، ثمّ يتّجهون إلى الهدف المطلوب، أمام مركز للشرطة، قرب باب مستشفى مكتظّ، وسط سوق شعبي، أمام مدرسة، يجتمع تلاميذها على بائع اللبلبي أو شَعْر البنات، في مسطر للعمّال المياومين، ينتظرون ربّ عمل، يقبل بتسخيرهم ليوم واحد.

وهكذا، يتركون السَّيَّارة هناك، ويمضون خفافاً تاركين جواد النائم، غير المثير للريبة.

وعند زاوية ما من الشارع القريب، يدير الشخصان أو الأشخاص ذلك الرَّقْم. ما إن يرنّ الرَّقْم حتّى يتحوّل جواد إلى روح طائرة، تنظر بحسرة إلى جسور دجلة، وعمارات البنك المركزي، وبرج المنصور، وحدائق الزوراء،

تنظر بحسرة، لكنها لن تكون وحيدة في هذه السماء المغبرّة الساخنة المتلاهثة النجوم، بل سيرافقها عدد لا يُستهان به من الضحايا، شباباً وشيباً، نساء ورجالاً، دجاجاً وحميراً، شرطة ومَدَنيّيْن، تلفّهم هناك في العلالي رائحة الشواء البشري المختلطة برائحة البارود.

***

منذ الليلة الأولى لاختفاء جواد، وعقل جلال يسرح بتلك السيناريوهات والصور المتخيّلة حتّى أصبح نومه قلقاً، متقطّعاً، لا ينام في الليل إلا سويعات، وثمّة إحساس في داخله أن السِّكِّين تقترب من رقبته، ورقبة العائلة. اختفاء جواد، يُثبت، حسب ما فكّر فيه عميقاً، وفي أكثر من مكان، أن هناك قوى تعرف ما يجري في الشوارع والمناطق، بل وتعرف البيوت وساكنيها، ولديها ربمّا أرشيف لكلّ شخص يعيش في هذه المدينة، والبلد كلّه. لا بدّ أنها تتبّعت مسار رعبه منذ أن اكتشف تلك الرصاصة اللعينة في سيَّارته البرنس، وبدأت تلعب معه لعبة المراقبة عن بُعْد. وتلك الأحداث الكبيرة كلّها التي مرَّت على شارع الدير ما هي إلا تمرينات للانقضاض عليه، وذَبْحه.

تمرّنوا بجاره أبي هند، الذي اختفت أخباره بعد أن رحلت عائلته، وظلّ بيته فارغاً، ثمّ بسعد الحلّاق، الإيمو كما قالوا، وسحقوا رأسه ببلوكة الخرسانة، على مَرأى من كائنات الشارع الحَيّة. وها هم يختطفون جواد. لماذا جواد بالذات؟ هل لأن أباه كان شرطياً، وقُتل؟ أم لأنه يعرف بيوت شارع الدير وأسرارها؟ هل اختُطف، لأنه صيد سهل لتجّار الأعضاء البشرية؟ وكيف تمّ رصده خلال النهار، لكي يستفرد به في تلك المنطقة المُوحِشة، منطقة المعامرة، ثمّ يُختَطف دون علم أحد؟ مَنْ هم الأشخاص الذين راقبوه خلال النهار؟ وهل هم من سكّان المنطقة؟ هل وضعوه، هو الآخر، جلال مَلَك، في دائرة اهتمامهم؟ هل يختطفونه مثل جواد؟ أم يقتلونه مثل سعد

الحلاّق؟ لكنْ، لماذا؟ من الصعب على أيٍّ كان استشفاف أفكاره الخاصّة، وقرفه الكبير ممّا يجري في البلد، وبالتأكيد لا أحد يمكنه رصد بوحه الذي يكتبه على الفيسبوك، ثمّ يمحوه قبل أن يبثّه إلى أصدقائه، ليس هناك تِقْنِيَّة، حسب ما يعرف، تُمكِّن أحداً من رَصْد ما يكتب وما يمحو.

لم يتوصّل أحد، حسب علمه، إلى أن يصبح ربّاً، عالماً بالصغيرة والكبيرة، بالتثبيت والمحو، بالحضور والغياب.

تجمّع لديه ما يقرب الثمانية آلاف دولار أميركي، وهي كافية لمغادرة الخارطة الشبيهة برأس طير.

عدَّها أكثر من مرَّة، لكي يتأكّد من الرَّقْم، كلّ مرَّة ينتهي فيها من العدّ، يضعها في كيس من البلاستيك، ويدسّها في حقيبة الكومبيوتر. كان يأمل، قبل بيعه للسَّيَّارة البرنس، أن يجمع مع أثاث البيت ومصوغات زوجته الضئيلة، عشرة آلاف دولار على الأقلّ. لكن حساب البيدر يختلف عن حساب الحقل.

وفي هذه الليلة، وبعد أن نامت نور وسامي ورامي في المطبخ، امتلأ بإحساس غريب، وخوف داخلي يشبه الصليل. صليل راح ينتشر في صدره، ويتصاعد من الصدر نحو الأعلى، ليلفّ رأسه وأفكاره. ألغى تماماً فكرة السفر إلى أربيل. أخبره صديقه أن دار النشر التي يعمل فيها في طريقها للإغلاق، بعد أن قُطع التمويل الحكومي عنها. اتّصل قبل أيّام بالسفارة اللبنانية في بغداد، وسألهم عن حاجته إلى فيزا. أخبروه أنه لا يحتاج إلى فيزا من السفارة، فقط حجز فندق، وألفا دولار لكلّ شخص. إذا ما توفّر ذلك، فالفيزا تُمنح في مطار بيروت من قِبَل الأمن العامّ اللبناني. حُلّت أولى العقبات أمامه، وهذا ما دعاه إلى الذهاب في اليوم التالي إلى مكتب الخطوط الجوّيّة العراقية في فندق المريديان - فلسطين. ينبغي

عليه أن يحجز فندقاً في بيروت مُسبَّقاً لعدّة ليالٍ. أرشده موظّف الخطوط الجوّيّة إلى مكتب في شارع السعدون، لا يبعد كثيراً عن ساحة الفردوس باتّجاه الباب الشرقي. قال له الموظّف أخبرْ صاحب المكتب أنني أرسلتُكَ من طَرَفي، وهو سيساعدكَ.

جلال جديد على شؤون السفر، وهي المرّة الأولى التي سيترك فيها الوطن. في أشدّ الظروف قسوة، استبعد مسألة السفر، رغم ما سمع عن هجرة ملايين العراقيّيْن وعيشهم في بلدان مختلفة. لا يتخيّل أنه يمتلك طاقة على مفارقة أهله وأصدقائه والمُدُن التي عرفها وعاش فيها، أو الأنهار التي سبح في مائها صيفاً. لكنْ، للضرورة أحكام، كما يُقال. معظم المكاتب وجدها مكتظّة بالراغبين في السفر، لاحظ ذلك في أكثر من مكان. فعلاً حجز له صاحب المكتب غرفة في فندق موزارت القريب من نهاية شارع الحمرا من جهة البحر، كما قال الموظّف، ولا تتعدّى الليلة ثمانين دولاراً. عَدّ أن السعر مناسب جدًّا، إلى أن يجد له صديقه شقَّة في بيروت، ومن ثمّ عملاً بعد ذلك.

لا يريد أن يفكّر بالمستقبل منذ الآن، المُهمّ الخروج من دائرة الذَّبْح التي وجد نفسه محشوراً فيها. أنجز كلّ شيء. أكمل معاملات قَطْع التذاكر، ودفع النقود، وملأه شعور أنه قادم على قفزة هائلة في الفراغ. قفزة الرجل المحاصر بالنار في الطابق العاشر. المُهمّ لديه هو مغادرة الحرارة القاتلة واللهب الذي لا يُحتمَل، والجثث السابحة في نهرَي دجلة والفرات، والبدو المتلاشين في الفيافي، والنخيل المحترق، بسبب الحروب، والشوارع الكالحة التي لم تعد بهجة للنظر.

أمّا ما ينتظره في ذلك الفراغ، فأمر لا ينبغي التفكير فيه.

***

عندما انتهى من فطور الصباح، أكمل ارتداء ملابسه، وقرّر النزول إلى

قلب العاصمة، ممتلئا بهاجس، لا يدرك معناه. حتّى حين سألتْهُ نور عن سبب ذهابه المُفاجِئ، لم يجد جواباً شافياً. اكتفى بالقول إنه يرغب في التّفسّح لا أكثر. وكان يمرّ في حالة عاشها قبلئذ أكثر من مرَّة، وأطلق عليها اسم: طفو الوعي، وهو مصطلح ابتكره من خلال قراءاته في كُتُب الباراسايكولوجي، وَصَفَتْهُ أنه يتحرّك، ويمشي، ويُحدِّق فيما حوله، لكنه لا يفقه مغزى ممّا يراه ويشمّه ويسمعه، بل هو في حالة طفو كامل. صار يخاف من حالته هذه، وامتلأ خشية أن تقوده إلى الجنون.

كان يعيش الحالة ذاتها في هذا الصباح، صحيح أنه يتذكّر ركوبه من أمام محلّ القصّاب، وتغيير السَّيَّارة من الشارع الفرعي المحاذي لسوق الدَّوْرَة المركزي، ويتذكّر مروره في الشارع المحاذي للمُتحف، وعبوره جسر الشهداء ماشياً، واصطبغ عقله بمسطّحات دجلة المائية، كما لو كانت صورة عتيقة، إلا أنه عَبَرَ تلك الأمكنة بذهن سارح وأفكار بعيدة عن واقع تلك التفاصيل. لذلك لم يستغربْ حين وجد نفسه فجأة تحت جسر الشهداء، في قلب بغداد، كما لو عاش مُسَرْنَماً منذ أزمان، لا تُحصى. اخترق السوق، وعيناه لا تستقرّان على شيء محدّد، فَعَتَمَات الدكاكين، ورائحة الأحبار والورق والمخطوطات، ووجوه الباعة، وتخاريم السقف، ذلك كلّه جعله يشعر كما لو كان يتمشّى في زمن آخر، زمن الناسخين والورّاقين، أيّام ما كانت المدينة عاصمة لإمبراطورية، لا تغيب عنها الشمس.

تسرّب بين تلال الكُتُب بخفّة، دون أن يلتفتَ إلى شيء، الكُتُب تلك لم تُنقذ سعد الحلّاق من القتل، فتفاداها مشيحاً بصره نحو الفضاء حتّى وصل شارع الرشيد، وتوقّف بُرْهَة حائراً بين المضي يميناً نحو الرصافي ثانية أم يساراً نحو ساحة الميدان.

عندما انتبه إلى أبنية المدينة، واتّساعها الممتدّ حول دجلة، وذلك الضباب الخفيف الملفّع لآفاقها البعيدة، تبادر إلى ذهنه ذلك التناقض

الغريب المحكومة به، تجلّي الجمال وسفوره، وتواري القبح والعنف والتآكل تحت ذلك الجمال.

البشاعة، هذا ما يرغب في حمله في ذاكرته، يريد أن يتخلّص منها، من خيوطها الساحرة التي تشدّه إليها مثل ميدوزا، كلّ عمود متآكل خنجر في صدره، كلّ واجهة خشبية في البيوت البائدة والشناشيل الرطبة الميّتة يد طاردة، الحيدرخانة، وشارع الرشيد، والأرصفة، وباعة الكُتُب المستعملة، وعربات الكعك والشربت واللبلبي، المارّة كالحو الثياب، المتسوّلون، الفتيات الصغيرات اللواتي يمضينَ إلى المخابز لجَلْب الصَّمُّون، الشيوخ المتسكّعون دونما هدف، وهم يمتصّون بقايا أسنانهم بعادة متأصّلة، كلّ تفصيل من تلك التفاصيل له حكاية مثل حكايته، حكاية متوارية تسعى لشخص ما، كي يرويها على مسامع الجلاس في واحدة من المقاهي المُهمَلة أو البارات الرخيصة.

تلك بقايا الوطن التي لن يستطيع تجميعها مرَّة أخرى. قنبلة تشظّت إلى قِطَع، وها هو الشاهد على انفجارها. ذلك كلّه علامات على رفض المدينة له، ولا يريد أن يتذكّرها، حتّى انتهى إلى مقهى، ينشر أرائكه على الرصيف، فجلس يشرب الشاي الثقيل، ويدخّن سيجارة، ويتأمّل في الساحة العجوز، ساحة الميدان.

لا شيء.

الجالسون حوله يرقبونه بحذر، أو هكذا تبادر لذهنه، وشعر بأنهم جميعاً يعرفون حكايته. شخص يحمل تذاكر سفر للهروب من دائرة النار. وهكذا تحوّل، بين ليلة وضحاها، من رجل بسيط، يقيم في شارع الدير مع زوجته ووَلَدَيْه، ويداوم على حضوره إلى وظيفته بمؤسّسة للدولة، تُشرف على الاتّصالات، إلى شخص مطلوب لجهة ما، شخص مهدّد بالموت في أيّة

لحظة دون أن يكتشف الوجوه الحقيقية المتخفّية وراء الأقنعة، واللثامات.

لقد أصبح ذلك من الماضي. لم يُداخله الشّكّ في أن تلك الرصاصة تدحرجت، طَوالَ شهور، لتتحوّل إلى قذيفة مدفع موجّهة إلى رأسه.

لكن الحياة، وهذا ما هو مقتنع به اللحظة، تمضي في مساربها، رغم كلّ شيء.

باعة الملابس المستعملة يفرشون بضاعتهم أمامه، والأسلاك الشائكة التي تحمي إحدى الوزارات تُضيِّق الخناق على الساحة والباعة. الزمن، كان قاسياً على الأمكنة، في أقلّ من عشر سنوات، حوّلها إلى أمكنة عجوز، تروي فقط ذكريات عقود جميلة، مرَّت مثل شعاع من النور. وإلا مَنْ يشتري ثلاثة أزواج من أحذية عتيقة، وضعها شيخ مهدّم الصّحّة، ملتح، أمامه فيما يجلس على الأرض الساخنة يدخّن بنَهَم؟ جذب ذلك الشيخ نظره بقُوَّة، بجاكيته الذي لا يتناسب مع شهر تشرين الرائق بعض الشيء، ودشداشته المتّسخة ذات اللون الرمادي التي توحي للناظر بأنها لم تلامس الماء طَوالَ أشهر، كان يجلس حافياً، تحيطه مملكته من الأشياء: ريموت كونترول، صحون من الفافون، ميزان عتيق لوزن البشر، طاسات زجاجية، أوعية لغلي الماء، علب بلاستيكية، أسلاك حديدية، فرشاة لتنظيف الأحذية، وأكياس خيش مستعملة تراكمت خلفه، لتصنع تلّة أعلى من رأسه، هل يعيش هذا الكائن على بيع سقط المتاع هذا؟ ومَنْ يشتري أوسمة عتيقة، تعود إلى الحرب العراقية الإيرانية، فرشها شابّ أمامه على بسطة من سجّادة عتيقة؟

ومَنْ يُبدي اهتماماً لساعات عتيقة، تعود إلى السّبعينيّات من القرن العشرين، يصفّها رجل سوداني على طاولة خشبية، لاحظ جلال أن من بينها ساعات، تُعلّق في الجيب، كانت مَفخرة لأفندية بغداد أيّام الملوك؟

تلك أيضاً مُخلّفات عاصفة الأوراق.

العاصفة التي جلبت صحافيّيْن مغمورين ومراكز إعلامية وإذاعات وفضائيات. جلبت كتّاباً تخصّصوا بجَمْع الخطب الدينية، والبلاغات القديمة، وأوصاف المراقد والمزارات، تخصّصوا بفوائد الصلاة والأدعية والفتاوى وأنواع النكاح. وجلبت مُنظّمات مجتمع مَدَني، تتخصّص في كلّ زاوية من زوايا الحياة، مُنظّمات للمرأة والطفل والمعوق والشهيد والسجين السياسي وضحايا الألغام والطَّلَبَة والشعراء الشعبيّيْن والبيئة والأنهار والسماء والغازات السّامّة والمحامين والضّبّاط القدماء وضحايا الحروب والتهجير والمفصولين السياسيّيْن. يستمدّون أموالهم من أياد خفية، ومُنظّمات عالمية، لا أحد يعرف كيف يصلون إليها، ومن فِرَق جيوش أجنبية ومكاتب إعلامية ودوائر في السفارات وأحزاب وطنية ذات اتّجاهات دينية وعلمانية يسارية ويمينية، وحركات ذات مصطلحات جديدة على الذائقة الشعبية، بينما يأكل هذا الحشد البائس المنظر الهواءَ، ويتنفّس الغبار.

نعم، كما يستعيد جلال ذكريات السنوات المريرة، لقد جلبت معها مُنظّمات، تقيم مؤتمرات في فنادق فاخرة، وصالات أعراس، وأبهاء لمحافظات ووزارات وأحزاب، وفي جوامع وحسينيات وكنائس، من بين قادتها، يتمّ انتخاب زعامات لمناصب في الدولة والأحزاب على هيئة مستشارين، ومديرين عامِّين، وخبراء في القانون الدولي، ومُديرين لهيئات مستقلّة وغير مستقلّة، تتكاثر في حقول الحياة، كما لو كانت فطراً نما بعد ليلة ماطرة.

وكان جلال مَلَك، نقيع ذلك طَوالَ سنوات وسنوات.

نحن وَرَثَة الدم، عمّو جلال، يتردّد قول سعد الحلّاق في رأسه كلّ ثانية وساعة.

وها هي الغشاوة تنزاح عن بصيرته، يستيقظ من نوم ثقيل، ليُلفي نفسه

في مستنقع راكد، يغصّ بالنفايات. يتذكّر مثل حلم أن العاصفة، المحمّلة بالجيوش والأسلحة والشركات الأمنية والأحزاب الجديدة رافقتْها أيضاً نخبة من المُحلّلين السياسيّيْن، والمنظّرين، وأصحاب الرأي، ملؤوا القنوات الفضائية والإذاعات والصحف بزعيقهم، يخوضون في السياسة الدولية والإقليمية والوطنية. نخبة صدّقها الشعب، وهم يتوسّعون في تفسير تعابير الوجوه للقادة، فيعضّدون هذا الحزب أو ذاك، يحاربون، يتّهمون، يُشكّكون، يُفتون، ويُعظّمون حسب الدفع بالعملة الصعبة، وحسب الوعود بالمناصب والتّقرّب من السلطة وأروقتها ومنافعها ومقاولاتها وصفقاتها وإيفاداتها.

نعم، يفكّر جلال وهو يتجوّل في أزقّة الحيدرانة، وحارات الشورجة، وسوق الصدرية الذي ينطلق منه نحو مفاصل بغداد الحيوية بعد أن باع سيّارته طلباً للأمان، وهروباً من استحقاق رصاصة، ستُوجَّه إلى رأسه، لقد جاء مقاولون عالميون، ومغتربون هجروا الوطن منذ عقود، مُبعَدون سابقون، صيّادو فرص وعقود عمل، تأسّست شركات وَهْمية في الحقول كلّها، النفط، الإنترنيت، الاستيراد والتصدير، جاؤوا كلّهم ذات يوم، وآثارهم يلمحها مطبوعة على هياكل العاصمة أينما حدَّق أو تأمَّل.

جاء وكلاء لشركات عالمية معروفة لإنتاج المكيّفات، والمُبرِّدات، والتلفزيونات، والموبايلات، والشوكولاتة، والعصير، واللبن، والكوكا كولا، والأجبان. جاءت شركات فرنسية وتركية وإيرانية وإماراتية ولبنانية وسورية وأميركية، في فوضى سوق، يبتلع كلّ ما تُنتجه الحضارة. التربة الوطنية لم تعد تزرع، ولا تصنع، معاملها مخرّبة، حقولها جافّة، نخيلها مغبرّ، ذرتها مصابة بالفايروسات، قمحها زؤان، ماؤها لا يشرب. حتّى امتلأت برّادات السوبرماركتات بلحم الهند المُغلَّف بالبلاستيك، وثيران البرازيل التي تغذّت في مناطق برّيّة، تُسمّى السرتاو، وأسماك البحيرات الاصطناعية في قُرى أفريقيا.

بلد ما بين النهرَيْن صار يستورد قناني المياه بالملايين، ويستورد الطماطم والخيار والباذنجان والعنب والفراولة والبطّيخ، من حلب والغوطة والميادين، ومن مهاباد والأهواز وتبريز، من أبها وينبع. الكهرباء من قصر شيرين، ومن الباخرات التركية الراسية في ثغر شطّ العرب، السَّيَّارات من كوريا، واللبن من (أبو ظبي). وفي فورة العاصفة، ولجت البلاد في حمأة آسنة من فساد إداري، سرقات في وضح النهار، جثث في الشوارع والمزابل والمفازات، حمأة من العقود الوَهْمية والصفقات على الورق وتزوير العملة وتجارة النساء وتزوير الشهادات والتلاعب بالألفاظ واللغة الزلقة التي لا تشير إلى شيء ملموس، والكذب والخداع والتّملّص والاتّكالية.

رجع زهير، قريب جلال، بعد سنة من هبوب العاصفة التي أسقطت النظام، لقد كان واحداً من المعارضين، سافر إلى دول أوربية عديدة، ورجع مستشاراً في شؤون الاتّصالات الحديثة، وهو مَنْ ألحقه مُصمّماً في تلك الهيئة الوليدة. في البداية، ألحقه بدورة التصميم على الكومبيوتر، رعتْها واحدة من مُنظّمات المجتمع المَدَني ذات العلاقة الوطيدة مع السلطة الجديدة، وقد كان مقرّ تلك المُنظّمة في منطقة الوزيرية، تطلّ بنايتها على تمثال الأمّ المنصوب في الساحة منذ سنوات خَلَتْ. عشر طلاب يتوزّعون على أجهزة الكومبيوتر الحديثة يدرسون آخر ما توصّلت لها برامج التصميم، قريبهم ذاك كان يحاضر فيهم مرَّة كلّ أسبوع، وهو الذي سهّل له الالتحاق بالهيئة بعد أن أصبح عضواً في مجلس الأمناء، لكنه لم يلبثْ سوى سنة حتّى عاد إلى بلد إقامته السابق، بريطانيا. ولم يتوصّل جلال إلى معرفة السبب وراء تركه للبلد، رغم ما كان يحصل عليه من امتيازات في الراتب والسَّيَّارة والسَّكَن والعلاقات الواسعة مع المتنفّذين الجدد.

***

تناهت إلى أنفه رائحة الكبّة المقلية، والسمك في المحلّ المجاور

للمقهى، سمك الجري، والزبائن الطامعون بلذّة وعفونة الأزقّة المجاورة التي تتوغّل في منطقة الحيدرخانة باتّجاه شارع الجمهورية، عليه أن يقتنع أنه في زمن آخر، زمن الرثاثة، البريق الخادع، زمن التآكل. كلّ شخص يسير في الشارع لديه قصّة مشابهة. الشّابّ المتهدّل الأكتاف المتعجّل في سيره نحو ساحة الميدان، والشيخ الواقف ذاهلاً متفكّراً أمام زجاج المطعم المجاور للمقهى، والرجل ذو الملابس الخلقة وهو يتجوّل جيئة وذهاباً في الشارع، وشفتاه تتحرّكان بكلام غير مفهوم، حامل الكُتُب تحت أحد إبطَيْه مُحدِّقاً في أسفلت الشارع، كما لو كان ينتظر بثقة العثور على كنز ما، الشَّابَّان اللذان يتحدَّثان بصوت عالٍ، ويتناقشان حول موضوع، بدا خطيراً، لا يكفيه الكلام، بل يسندانه بحركات عصبية من أيديهما ورأسَيْهما وتعابير وجهَيْهما، كلّ واحد من هؤلاء يمتلك حكاية مثل حكايته على الأغلب، ففي هذا البلد، يمكن لرأس سمكة أن يقود إلى القتل، وأجهد جلال فكره في البحث عن سبب مقنع، دعا القَتَلَة لوَضْع تلك الرصاصة في سيَّارته، ونشر الإشاعات حوله تمهيداً لقتله، وأعاد الزمن من بداياته. ما السبب الذي دعاهم لوضعه في دائرة الاهتمام؟ لا يمكن أن يكون شُرب البيرة، على سبيل المثال، هو السبب، فهذا الشعب معظمه يحتسي الخمور، أو احتساها في حياته، قبل أن تصدر القوانين بالتضييق على بيعها أو منعها، وترتسم في خياله أجواء بارات السعدون والكَرَّادَة وصالات النوادي العائلية والفنِّيَّة، رغم أن مرتاديها لم يتخلّصوا من ستار الحذر والخشية على أرواحهم. وهل هو عمله في دائرة حكومية، لها علاقة بالاتّصالات؟ هل هو جلوسه على الكومبيوتر في الليالي المظلمة متوحّداً مع حقوله الأليفة في هيمانه نحو التّوحّد المطلق؟

فكّر أن يستقلّ سيَّارة تاكسي، ويذهب إلى الوزيرية لرؤية تلك البناية التي درس فيها ذات يوم فنّ التصميم، وكانت عيناه مُغلَقَتَيْن عمّا حوله، لكنه وجد الفكرة مُتعِبَة، وغير ملائمة، خاصّة وهو يرى الزحمة المستولية على الشوارع.

استغرقه قَطْع شارع الرشيد حتّى سوق الشورجة أكثر من نصف ساعة.

***

ها هي السماء تعتم قليلاً، في الأعلى غيوم دخانية خفيفة، يخالطها لون كاب، كان سبباً لتساقط قطرات طازجة من المطر، جذبت أنظار الجميع، المطر الأوّل في أواخر هذا الصيف الذي مرّ ثقيلاً مثل كتلة من هموم، لا تنتهي، لكن سقوط قطرات المطر الخفيف لم يستطع انتزاع أيّة مشاعر، لا مشاعر حزن ولا مشاعر فرح، وكأن تلك الوجوه الجامدة، السائرة حوله، فَقَدَتْ حسَّها في ما يتناثر على هذه الأرض.

الاعتياد، هذا كلّ ما تركتْهُ السنون على الوجوه وتعابيرها.

حين يصبح الموت عادة، تفقد الأحداث معناها. الموت هو السقف الأقصى للمشاعر.

رائحة نفّاذة تطغى على الهواء، رائحة ثقيلة عطنة تتدفّق من الأزقّة وواجهات البيوت المطلّة على الشوارع، رائحة المجاري المفتوحة، أو المُغلَقة، لا يمكن إخفاؤها. رائحة غير مريحة، يَنفثها القِدَم والتآكل والرعب الذي يُسفر عن هويّته بألف طريقة وطريقة. يطأ الإسفلت المائع، يتغلغل في الأزقّة العتيقة في الحيدرخانة، والشورجة، والصدرية، وباب الشيخ، والبتّاويّيْن، يشمّ عفن المجاري المفتوحة أمام الأبواب، يتألّم في السحنات التي عاشت عشرات السنين من الحروب والحصارات والرعب، سحنات يعتقد أن تعابيرها تنمّ عن لؤم دفين، أو عدمية متوارثة، أو إحباط مزمن، كرّستْهُ طقوس اجتماعية متحجّرة، يتلفّتُ حوله مثل مُطارَد، مثل مُطارَد تتعقّبه أشباح، لا يدرك ما الذي تريده منه، يشمّ عبق الهيل في شاي الباعة الجوّالين، يرقب عيون النسوة العميقة السواد، النسوة المحجّبات وهنّ ينزوينَ يوماً بعد آخر خلف أبوابهنّ المُغلَقة، يُذكّرنَهُ بهموم نسوة شارع

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

الدير اللواتي يتجمّعنَ في نوفوتيه جميلة لتناوُل وجبة دسمة من الثرثرة. ينفر من مزامير السَّيَّارات المارقة المحطّمة للأعصاب، عاصفة الأوراق المشعّة التي ضربت المدينة، أنجبت جيوشاً من الحمايات، والبلطجية، والسماسرة، والمسؤولين الذين يتنقّلون بسيَّارات مُظلّلة تامّة التصفيح.

فوضى بلا هدف، مثل حياته، لم يستطع التّخلّص من شعوره المُمضّ في أن المدينة لم تعد تخصّه، وأنها تُهدّده، برسائلها المُميتة، وروائح بهاراتها، وسمكها المتخوم بالجثث، ومجاريها المُعطّلة، وحكاياتها، ورموزها المرعبة.

وكان آخر مُعلِّم من العاصمة، قبل أن يتّجه إلى كراج الباب الشرقي، ليعود إلى البيت هو نصب الحُرِّيَّة لجواد سليم.

الألم إيقاعها، والموت رايتها. يطمح مستقبلاً إلى نسيانها تماماً، والبدء من نقطة تقع خارج ذاكرته.

***

كُتُبُهُ سلّمها إلى نغم ابنة جميلة، وأوصاها بقراءة الباراسايكولوجي، إذ هو علم نافع لمعرفة المجتمع، وكيف يفكّر أفراده، ولماذا يحلمون، ومحوّلة الإنترنيت ستبقى لجاره المقابل له، والتلفزيون ستأخذه جميلة، تلك آخر كنوزه من الوطن، وهكذا هم الآن، عُراة بين أربعة جدران. منذ تلك الظهيرة التي تلقّى فيها التهديد على هيئة رصاصة مجهولة، ظلّ جلال، طَوالَ هذه الشهور، يحاول رسم خارطة لمزاج هذا الشعب، وهويته العجيبة المتناقضة، وقد ساعدته قراءاته في هذا المجال للوصول إلى تصوّر ما، حول الأمر، دون أن يجزم بأنه اهتدى إلى هيكلية واضحة ومُقنِعة.

رسخت تلك اللوحة عن تكوّن الإنسان من فتات ما يأكل متشبّثة في ذهنه، وهي، بشكل ما، تُجيب عن السّرّ الكامن خلف ما يجري، لقد

صنعت الحروب أعضاء مهمّة من جسد هذا الشعب، وتَلَبَّسَتْهُ، فلم يعد يستطيع الفكاك منها، استحال إلى كائن متناقض، يرتكب الشيء وضدّه، يفرح بعمق حدّ الغياب عن الوجود، ويحزن حتّى يلامس القَعْرَ من مأساة وجوده، يغنّي ويبكي، يرقص ويلطم، يفكّر ويتصرّف بهوج، يتشبّث بالأمكنة المألوفة له، ويهتبل أوّل فرصة للهروب خارج الحدود، ليعيش مُغترِباً عن ذاته دون أن يكفّ عن الالتفات إلى الخلف، إلى تلك المحلّات والأزقّة الآسنة التي تربّى بين أحضانها.

يعتقد جلال أن هذا الشعب من أكثر الشعوب التي سمع عنها استهلاكاً للخمرة، ومن أكثر الشعوب تطرّفاً في ممارسة طقوس الدين، وارتداء سماته الشائعة. قد يفسّر التّشبّث الهائل بالحياة تلك الاستهانة المُتفشّية بالقتل وازهاق روح الفرد، كون الموت أصبح زبوناً دائماً للبشر، وفكرة الصراع المُميت، من أجل البقاء، حكمت هذا الشعب منذ قرون وقرون، وكانت الخميرة الأساسية لبقائه حَيَّاً حتّى أوقاتنا هذه.

ثمّة فكرة لا يتذكّر أين قرأها، في أيّ كتاب، أو في أيّ حوار سمعه ذات يوم، هي أن الضغط المتواصل على كائن ما لا يجعله مستكيناً فقط، ولا يترك أثره على هيئة تشوّهات روحية وجسدية فقط، بل يخلق كائنات فاقدة للتوازن، مازوشية الطابع، تمتلك القدرة على تعذيب الذات، وتقطيع الأوصال، عقاباً على ذنب، لم ترتكبه، أو جريمة لا علاقة لها بها. هو يفكّر بأولئك الأشخاص الذين تلذّذوا بتهشيم رأس سعد الحلّاق دون أن تكون لهم علاقة عداء معه، ودون معرفة شخصية مُسبَّقة، أو بأولئك الذين زرعوا العبوات الناسفة لقَتْل مُصَلِّي جامع النور.

روى له عادل ذات يوم تجربته الشخصية في الحرب، في أثناء وقوفه على ساتر الجبهة الأمامية، كيف أنهم يفترضون أن جهة الشرق كلّها أعداء لهم، وكل بشر يتحرّك هناك محطّ حقد وكراهية، تقود إلى تسديد الرمي،

وإزالة الشخص المقابل رغم أن ذلك الشخص مجهول، ولا يمتّ بصلة إلى الجندي العراقي، ربمّا يشعر الجندي الإيراني، يقول عادل، بالشعور ذاته، معناه أننا كنّا نحارب جهة، إحداثيات جغرافية مُبهَمَة، وليس بشراً.

وما هو مُبتكَر في هذه المسرحية المحكوم بتمثيل دوره فيها، وصوله إلى حقيقة أن التّشبّث بالمكان لن يتمّ دون الخضوع لشروط ذلك الضغط الرهيب الذي وضع هذا الشعب بين كَمَّاشَتَيْه، إمّا التّحوّل إلى ضحية كحالته، أو الطيران خارج القفص، كما نصحه عادل. طِرْ، يا صديقي، حَلِّقْ بأجنحتِكَ في الفضاء، قال له في ذلك المساء الذي خطف فيه جواد. وهو سيطير دون شكّ أو تردّد. لن يُخبر أحداً من البلدة عن سفره إلى بيروت، سيُبقي خطواته كلّها مُفاجِئة للجميع. حتّى يصل إلى برّ الأمان عليه أن يحتاط لكلّ شيء. سيتّفق مع نهاد صاحب التاكسي، لكي ينقله صباحاً إلى مطار بغداد.

كان يتأمّل في الفضاء الخريفي من الشّبّاك، وكأنه يراه للمرَّة الأخيرة. أخبره عادل البارحة بأنه عرض بيته للبيع في واحد من مكاتب الدلّالين يقع في سوق الدَّوْرَة الشعبي، وقد اتّفق مع أخيه عمر على تهيئة بيت للعائلة في إسطنبول حالما يتمّ البيع، وقال له ضاحكاً، بينما عيناه تغرلان من السّكّر: لا تقلقْ، سأطير معكَ، أيضاً، يا صاحبي.

لم يذهبْ إلى العمل منذ ثلاثة أيّام. وألغى من رأسه فكرة تقديم استقالة رسمية للدائرة. هذه الأمور أضحت غير مُجدية، ولا يريد للأشباح معرفة ما يُخطّط له.

هو بحاجة إلى فسحة من الأمان، إلى رحم دافئ، يُهيّئه لولادة جديدة.

لم يعد يؤمن بشيء، كتب على صفحة الفيسبوك، موضحاً حقيقته للأصدقاء، وكان الليل يسير نحو متاهته بإصرار. هناك سُويعات على

صوت المؤذّن الشّجيّ الذي يدعو إلى صلاة الفجر. رائحة (أبو هند) تلاشت من ليل شارع الدير، وبرودة خفيفة تتسلّل من الشّبّاك المفتوح، وتُغريه بمواصلة الكتابة. في الحديقة المُضاءة بنور القمر يتناثر الأشباح المقنّعون رغم الظلام، في تكرار للمَشاهد التي رأتْها نور ذات ليلة. تنمّ كتابته على أنه خرج تماماً من كلّ شراك القناعات. لا وطن، لا صداقات، لا دين، لا كُتُب مقدّسة، لا شيء يُغريه من الأفكار التي يحملونها. توغّل في الفضاء وأسراره، والطبيعة وتفاصيلها وهندستها، وفكّر بذلك كلّه. كلّ ما تعلّمه الإنسان في الخمسين ألف سنة الماضية ما هو إلا هراء كائنات جاهلة. الرسوم الموجودة في الكهوف. اللوحات الجميلة. الكُتُب المسطّرة على مرّ العصور. النظريات العلمية. التعاليم الدينية. الكُتُب المقدّسة. ذلك كلّه هراء أمام الموت البطيء المُنتظَر للجميع.

كان جلال يرغب في إيصال قناعته التي تبلورت في الأشهر الأخيرة، ومُلخّصها أن مَنْ يفوز في النهاية هو الموت، السّرّ الأعظم الذي وقف أمامه طويلاً وبخشوع. موت مَنْ أحبّهم، أو عرفهم مثل جواد كاظم، وسعد الحلّاق، وسيف العروس، رغم أنه لم يشاهد سوى شَعْره الكاريه المهتزّ في رقصته الشهيرة، وهو يتواثب على مسرح الفندق البغدادي.

ما كتبتْهُ البشرية منذ نشوئها، وما رسمتْهُ، وأبدعتْهُ، واخترعتْهُ، ما هو إلا شرح غير مُجد لذلك السّرّ، سرّ الموت، وهذا الشعب لم يعد يعبأ بهذا السّرّ، كونه لم يعد سرّاً، صار يشربه مع الماء، يُدخّنه مع علب الفايسروي، يلتهمه عبر اللحم الهندي المفروم، يتنفّسه مختلطاً بغبار الصيف، وإشعاعات اليورانيوم.

يتأمّل جسده بهدوء، يجده مصنوعاً لا من اللحم والدم والأعصاب ودوّامات الهواء الداخلة والخارجة في كلّ ثانية، بل هو مُكوّن من عناصر أخرى، لا تخضع لزمان ولا مكان. الرسمة الملوّنة لإنسان في كتاب معروض

على سجّادة في شارع المتنبّي، تحضر ببهائها ورموزها، اليدان من توت وتفّاح وبرتقال وتين، والرأس من ثمار الصيف كالبطّيخ والقثّاء واللوبياء والعنب، والبطن من الخسّ والطماطم والباذنجان والبطاطا، والرجلان من اللفت والجوافة والأناناس والثوم، وهكذا، وظلّت الفكرة تداعب خياله، كلّما حدَّق بشخص يمشي في الشارع، ويستعيد هذه الصورة بطريقة أخرى، إذ يؤمن بعض الأحيان أن جسده هو الآخر مصنوع من شظايا قنابل، وأكياس رمل، وطلقات، ودماء ثأر، ورمال تستخفي بين ذرّاتها العظايا والعقارب. مصنوع من طين مُلوَّث بالديدان، ونظرات صارمة لرجال عُتاة، يُمسكون الهراوات، وسجون معتمة، تنثّ روائح كريهة، تخرج من شقوق جدران مُغيّبة تحت الأرض، جبال محروقة بالنابالم وبيوت، لم تغادرها رائحة الغازات السّامّة ومُدُن مهجورة ووجوه بلِحَى مُرعِبة وانفجارات مُدوِّية، تقذف إلى السماء ريشاً وورقاً وتراباً ونتف سلاميات غضّة، وأحلاماً لم تبلغ نهاياتها.

كان مُنغمِراً بتأمّلات فلسفية، تشبه الإلهام، تتوافد إليه بين الحين والآخر على هيئة موجات ذهنية متعاقبة.

وخلال انغماره في تأمّلاته الفلسفية تلك، وفي سيلان أفكاره العارية، كانت ثمّة أقدام غريبة تتجوّل في الحديقة. كائنات غير بارزة الملامح، يضفي عليها الليل الخالي من القمر سيماء مرعبة. كانت تعالج بأدوات متطوّرة الباب المُؤدِّي إلى المطبخ، وسط سكون عميق، لا يقطعه سوى أصوات الشرطة الحارسة لمبنى الدير.

سيبتعد عنهم، أصدقاءه، في رحلة طويلة، وقد لا يعود إليهم، ربّما يسافر إلى عمق الفضاء، ويبتلعه ثقب أسود، أو ممرّ دودي، ينقله إلى وجود آخر، وحضارة لا يعرفونها، هناك حيث ستكون الأرض نقطة شاحبة في الذاكرة، بينما جلس ساكتاً، صانتاً، يتسمّع، يتسمّع لخطوات الموت وهي تتقدّم نحوه. الدائرة التي بدأ خطّها ذات صيف في بساتين البلدة،

ودراويشها، ومياهها، وطيورها، ستنغلق الليلة. لن يكون هناك كائن بشري يتنفّس الهواء في مشتمل جميلة. لن يكون هناك كائن، اسمه جلال مَلَك.

ما غاب عن جلال في هذه الثانية هو أنه لن يغادر هذه الأرض وحده، بل مع سامي ورامي ونور، لو عرف ذلك مُسبَّقاً قد يشعر بالفرح، على الأقلّ، يأخذ معه الأشخاص الذين أحبّهم أكثر ممّا أحبّ أيّ شيء في هذا الوجود. يأخذهم إلى الضّفّة الأخرى في الرحلة السديمية ذات الاتّجاه الواحد. سيأخذهم إلى بحر الموت المتلاطم الأمواج.

***

كما لو سمع قرقعة صادرة من مكان ما، تنصّتَ لدقائق، لكنه لم يميّز شيئاً، وعاد إلى كتابة رسالة ثانية إلى أصدقائه، عدّها تصفية حساب مع حياته التي قضاها في البلد. لم يُدرك كيف واتتْهُ الشجاعة على بثّ رسائله الصريحة، هذه الجرأة لم يمتلكها سابقاً. هو يؤمن أن الاحتفاظ بالأفكار الخطيرة، والصادمة، يُعدّ السلوك الأفضل الذي يتناسب مع ما يمرّ به شارع الدير، والعاصمة. والبلد كذلك. سلوك لا يعتمده هو وحده، بل إن الجميع يرتضيه ويمارسه. سلوك النعامة. دفن الرأس في الرمال حين يُطبِق الخطر، وتأتي الوحوش، لتُمزّق الجسد، وتستبيح الروح.

كان الأمر أشبه بالحلم. منذ ذلك اليوم الحارّ الذي فتح فيه عينَيْه على مدينة شبحية غير مفهومة، منذ تلك الرصاصة، ما عاد بمكنة جلال أن يكون ذا مزاج طبيعي حتّى مع الأسرة، شكّلت له الرصاصة جداراً سميكاً مع الجميع، الأمر الذي قاده إلى الانزواء في الغرفة ليلاً، وتقليب الرأي في الدوافع والنتائج، والدلالات المرافقة لهذه الانتقالة الحادّة من اعتيادية الحياة إلى غرابة الرموز المحيطة به، سواء في البيت أو الشارع أو محلّ العمل، محكوماً بأسئلة مُلحّة، لا تفارق ذهنه، هل تمّ الأمر صدفة؟ أم أن

مَنْ ألقى الرصاصة في روحه كان يقصده هو بالذات، جلال مَلَك الموظّف في دائرة تتربّع على ضفاف دجلة؟

لكن ذلك كلّه أصبح من الماضي.

وها هم يدخلون الدائرة، دائرة حياته، يتقدّمون بإصرار وثبات.

الأرجل الثقيلة تتقدّم من النوافذ والأبواب والثغرات بين الصخور، صوت تضخّمها يهدر مثل عشرات الدَّبَّابَات والمصفّحات والطائرات السَّمْتِيَّة والمقاتلة، يجلس مستسلماً أمام ذلك، رغم أنه سمع أنّات مكتومة في الأسفل، أنات استغاثة، توجّع، استرحام، أعقبها ضوضاء، وأقدام تستبيح البيت. والوجوه النابعة من فم الدرج كانت كما لو أنها خارجة من كابوس. هي قاسية، نظراتها حارقة، تسبقها مُسدّساتها الكاتمة للصوت، تمسكها أياد لا ترتعش. شَلَل تامّ يستولي عليه. مثل مُجسَّمات رَقْمية بأبعاد ثلاثية، أخذت وجوه أليفة ملوّنة تسبح حول رأسه، وجوه يعرفها، وجه سعد الإيمو، جواد الصغير، وجه نور التي ملأت أحلامه أيّام المراهقة بشَعْرها الذهبي وعينَيْها الناعسَتَيْن وفمها الشبيه بثمرة التوت، وجه جَدّه الذي لم يرَ نور الكهرباء.

الجميع يبتسم له، حتّى المغنّي الشّابّ المُسمَّى سيف العروس.

هل هو في حلم؟ أم يقظة؟ لقد نجحوا في الوصول إليه. لمَ لا ينجحون هم العُتاة وهو البرّاقة التي لا تمتلك درعها، هم الغامضون وهو الواضح مثل قوس قزح في سماء بغداد بعد المطر؟ كتموا أنفاس عائلته في الأسفل. ونجحوا في التّوغّل إلى فراشه، كأي قَتَلَة محترفين. هو في المنتصف من الإعصار، وشعر بجسده يرتفع إلى الأعلى وسط عاصفة تدوّم نحو السماء. الأشباح تتقدّم إليه بخطوات ثابتة، جاؤوا من منعطفات

الشوارع، من شواطئ الأنهار، من هجير الصحاري التي رآها ذات يوم مع أخيه كمال في رحلته الشبيهة بالخيال.

الأشباح، سلالة أسلاف غابرين، عاشوا يوماً في عَتَمَة القرون. يمكنه رؤية الدماء، وآلات التعذيب، والورق الأسمر، والسكاكين، وحبال منصّات الإعدام، تلتفّ حوله وتدور. يمكنه شمّ رائحة البارود، وعطن الشوارع، والجثث المتحلّلة، وزنخ الأرض المستنقعية. زنخة الأسماك التي تتغذّى على جثث دجلة، ورائحة الأجساد المتحلّلة في مزابل المناطق النائية.

لقد سقط في ثقب أسود، راح يسحبه بعنف بعيداً عن اللحظة الراهنة. يمكنه ملامسة سطح الرصاص الموجّه نحو رأسه، وعينَيْه، ووجهه، وقلبه. وطنه حارق كالرصاص. مقابره تغمز له بسمات مغرية. لا بدّ له أن يدفع الثمن. هو الضحية التي سافرت عبر القرون، منذ أن شيّد أجداده معابدهم في هجير الصحاري. هو مثلهم، يمكن أن يكون الرعب قد شلّهم جميعاً، وهذا ما حوّلهم إلى كتلة صماء جامدة. أو ربمّا شعروا بمتعة الدم وهو يسيل حارّاً على التراب، فمَرأى الدم يحوّل الفرد إلى مُدمن، ألم يعتادوا على هذه الرؤية عشرات السنين؟

وراح يتخيّل نفسه فرداً بين ذلك الجَمْع، ويتخيّل ما يفعله، هل سيقف حائلاً بينهم وبين سعد الحلاّق؟ هل ثمّة ما يمنعهم من قَتْله هو الآخر؟ هل استطاع يوماً هو جلال مَلَك من إيقاف تلك الجرائم التي تُرتَكَب أمام عينَيْه كلّ يوم، وعلى مدار سنوات وسنوات؟ هل استطاع إيقاف سمك دجلة والفرات من التّغذّي على أجساد الضحايا؟ هل نجح في إيقاف زحف آلاف الدَّبَّابَات والطائرات والجنود نحو البلد في تلك العاصفة الشهيرة؟ هل استطاع إيقاف زحف الخراب الذي رآه فاشياً بين البساتين والبنايات والسواقي والطُّرُق والمدارس والمطاعم الشهيرة والأوابد الأثرية وشجر اليوكالبتوس والبشر والحجر؟

كلا.

هل استطاع يوماً إيقاف تآكل أرواح آلاف الأسرى العائدين من الحرب، ليجدوا أنفسهم، مثل عادل، أشباحاً لماضٍ، لن يعود، ولا يمتلك ذرّة من الأمجاد؟

في ذلك الليل التشريني الصانت، وفي غمرة تلك التساؤلات الدخانية، وسط غرفته المفتوحة على الخريف، أنهت رصاصة نشطة، حارقة، طريقها نحو رأسه، دون أن يميّز، حقّاً، إن كان في حلم أم في يقظة.

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة

نسخة مراجعة © جميع الحقوق محفوظة